هيرانة القُرطبية

رحلة نحو الماضي الغامض

النجاح ليس إناءً من العصير يُسكب في كؤوس البعض فقط

بل هو قدرٌ مُحتم لكل إنسان مجتهد

الفصل الأول

صاحبُ المرتبة الثانية

منذ قديم الزمن ,عاش الإنسان في تِرحال دائم ,باحثا عن الطعام و المأوى ,يسكن أين تواجد الماء و الغذاء ,و يُغادر متى انتهوا ,لكن مع مرور الزمن تعلم صنع طعامه ,كما تعلم حفر الآبار و استغلال مياه الأمطار ,مما وفر له أهم عنصرين يبقيانه على قيد الحياة ,فقرر تجربة الاستقرار و التعمير في مكان واحد ,هذا المكان سماه الوطن .لكن مع مرور الزمن أيضا ,تضاعفت أعداد البشر و ظهرت الاختلافات بين أبناء الوطن الواحد ,مما جعل عيشهم مع بعضهم أمرا مستحيلا ,فهاجر الكل لصنع موطنه الخاص بعيدا عمن يختلفون عنهم .

ظهرت العديد من الأوطان التي تختلف عن بعضها في كل صغيرة وكبيرة , حتى صار العالم مُفككا و بُنيت حدود لا يمكن تجاوزها فرقت الشعوب فلم يعد أحد يعرف شيئا عن الآخر ,و أصبح الاختلاف يُخيف الكبير و الصغير كأنه أمر خارج عن الطبيعة .

بالنسبة للعرب ,كانوا الشعب الوحيد الذي حافظ على روابطه ,و رغم أن العالم العربي انقسم إلى خمس قبائل كبرى إلا أن العلاقات بينها كانت جيدة جدا ,ما عدا العلاقات بين اثنتين منهن .قبيلة قُرْطُبة و قبيلة عُرُب ,كل منهما نسبت إلى نفسها لقب أقوى قبائل العرب ,أما حُكامهما فنسبوا لأنفسهم لقب الخلافة .

بدأ هذا الصراع منذ موت يُعْرُب الأكبر ,أعظم القادة القدماء ,وسع نطاق الحكم و ازدهرت في وقته التجارة و الزراعة ,كما عمل جاهدا في سبيل بقاء العرب متحدين ,لكن و لسوء حظه ,خاض ولداه صراعا طاحنا على الحكم ,فقد كانا بقدر من الأنانية و الجشع ما جعلهما يشنان حربا ضد بعضهما , أدت لنشأة النظام القَبلي لدى العرب .

الأمير قُرْطُب بن يُعْرُب أنشأ قبيلة قُرْطُبة ليَحكمها و أتباعه ,أما شقيقه الأصغر الأمير عُرْبان فأنشأ قبيلة عُرُب ,و مع مرور الزمن نشأت قبيلة نَشيبَة ثم انشقت منها قبيلة شيبة ,و أخيرا ظهرت قبيلة صغيرة يحكمها خالي حيان ,و التي تعتبر داعما سياسيا هاما لقبيلة عُرب .

مدة الحرب الطويلة و التوتر السياسي الدائم بين القبيلتين ,بالإضافة لتعرض قبيلة قُرطبة للجفاف الذي هدد تجارتها و سيطرتها على حدودها ,سمح للغزاة من الشعوب الأخرى بالتفكير في الاستيلاء عليها , كل تلك الظروف دفعت بجدي الذي كان حاكما على قُرطبة في تلك الفترة إلى عقد إتفاق مع قبيلة عُرب لإنقاذ شعبه و إنهاء الحرب ,و كانت الوسيلة الوحيدة لتوحيد القبيلتين من جديد هي إنشاء صلة الدم التي انقطعت بينهما منذ زمن طويل ,لذا تقدم أمير قُرطبة لخطبة أميرة عُرب و بعد عقد جلسة الصلح الجديد ,والتي عُرفت لدى الشعبين بلقاء لم الشمل أين حضر ممثلون عن جميع القبائل الخمس و اجتمعوا في قصر بني عربان ,وافق الجميع على إتمام الزواج السياسي و أقيمت الاحتفالات على مدى أسبوعين من الزمن ,قَدمت فيها قبيلة عُرب جميع المساعدات اللازمة لتعود قُرطبة إلى سابق عهدها ,و بعد عام رُزق الأميران بطفلة أسمياها هيرانة , و هذا كل ما وُجد في الكتب عن تاريخ أسرتي ,و للأسف لم يكتب أي شيء عن والدتي .

أنا الأميرة هيرانة القُرطُبية كما يُناديني شعبي ,ابنة صلاح الدين القُرطبي حاكم قُرطبة الحالي وابنة الأميرة جنة بنت عثمان العُرُبي .

لطالما كنت فخورة بنسبي و بكوني الشخص الوحيد و منذ عقود من يملك دماء كِلتا القبيلتين في عروقي ,كما أكون الابنة الوحيدة لوالدي الحاكم وسط أشقائي الأربعة ,عمر و سعد أولاد زوجة أبي الأولى ,شهاب و سليم أولاد زوجته الثانية .

عِشت حياة القصور طِوال السنوات الماضية ,وسط المُرافقات و الحُراس ,رُبيت لأكون فخرا لقبيلتي و مثالا تاريخيا يُحكى عنه في الكتب ,كبرت و أنا أحاول ملامسة المثالية و تجنب الخطأ ,حصلت على حصة من كل ما قد تتمناه أي فتاة الذكاء , القوة و الكثير الكثير من الجمال العربي ,و مع هذا أنا لم أُرِد الكثير ,كل ما أردته بشدة حتى الآن كان أمرا واحدا لا غير ,كان بسيطا بالنسبة لي على العكس والدي الذي اعتبره مستحيلا و أصعب من إحضار العقيق الأزرق إلى قُرطبة ,فمهما حاولت و توسلت , الحقيقة الغامضة لموت والدتي كانت و ستبقى لغزا يُحيرني .

لا أحد من سكان القصر ,الشعب أو حتى مُؤرخو القصر الذين كتبوا عن كل شيء يخص تاريخ قُرطبة يذكرون شيئا عن والدتي ,و منذ وفاتها ,أوجِدَت قاعدة صارمة في القصر ,صارمة مثل منع المشي عاريا في الأرجاء ,ظننت دائما أن سببها هو حزن أبي الشديد على فقدان والدتي لكن مع هذا بقي الأمر غامضا بالنسبة لي و غير قابل للتصديق أحيانا , فقد مُنِع منعا باتا على كل المقيمين في البلاط الحديثُ عن الأميرة جنة حتى بينك و بين نفسك ,كما انتشرت قصص و شائعات أن كل من خرق القاعدة و تحدث عن الأميرة الراحلة يقوم الحاكم بنفسه بخياطة فمه كي لا يتحدث في أي شيء مجددا ,البعض يقول أنه يقوم بقطع ألسنتهم و لكن هذه الشائعة ضعيفة مقارنة بخياطة الأفواه المُتحدثة ,و قد كانت تلك القاعدة كابوسا بالنسبة لي حتى تجاوزت سن الثامنة عشرة .

اليوم أصبحت راشدة حسب قوانين القبيلة ,أصبح بمقدوري الخروج خارج القصر و مقابلة شخص مهم أظن أنه يعلم شيئا بخصوص أمي ,لن أكذب و أقول أني لم أزر أسواق قُرطبة قبل سن الثامنة عشرة ,فقد فعلت ,طبعا كان ذلك بمساعدة شقيقي الأكبر شهاب إنه أكثر إخوتي المقربين لي إضافة إلى أخي سليم ,هما على عكس أولاد زوجة أبي الأولى اللذان ورثا كره والدتهما اتجاهي ,كانا يساعداننني على الدوام منذ طفولتنا .

أخيرا أستطيع الخروج دون شهاب و امتطاء بحر خارج أسوار القصر ,كان من المستحيل أخذه معي و إلا كُشف أمري ,عندها سأحرم من الخروج حتى بعد سن الثامنة عشرة .

أتذكر جيدا يوم رأيتُ بحر أول مرة ,كنت سعيدة جدا ,لونه الأبيض المميز عن باقي خيول قرطبة داكنة اللون جعلني منبهرة ,أنا لم أرى خيلا بمثل جماله من قبل ,كانت أمي من اختارته و أمرت بإحضاره من عُرب إلى هنا لتمنحني إياه بمناسبة عيد ميلادي ,هذا ما علمته لاحقا من رئيس إسطبل القصر ,أخبرني أنه استغرق شهرا ليصل ,و قد انتظرت أمي وصوله بشدة ,حضر و هو لايزال مُهرا صغيرا و رغم ذلك فقد بدا لي كبيرا و أنا بنت الخمس سنوات ,اليوم أستطيع أخذه معي إلى الصحراء للركض سويا ,لكن قبل أي شيء علي أن أنهض من السرير .

ناديتُ المرافقات لأطلب إحضار ثياب الصيد ,أنا أنوي صيد غزال كبير و إهداءه إلى والدي فلا شيء يُغيظ زوجة أبي الأولى أكثر من استعراضي لمهاراتي في الرماية ,فالأمر يذكرها يوم خسِر أولادها ضدي في منافسة الصيد التي أُقيمت العام الماضي ,حتى أخوي تقبلا خسارتهما ,لكن هي لم تفعل , الأمر صعب بالنسبة لها ,هي تريد أن يكون أحد ولديها خليفة والدي و أنا على الرغم من أني فتاة ,إلا أني أفضل منهما في القتال و ركوب الخيل و حتى في الرماية ,أُراهن أن هذا الأمر يكاد يُميتها غيظا .

في خزانة مملوءة بأجمل الفساتين تبقى ثياب الصيد هي المفضلة لدي من بينها ,فهي بعيدة كل البعد عن مظهر الأميرة المدللة التي أبدو عليها عند ارتدائي لتلك الفساتين الطويلة الفاخرة ,كما أكره تلك الحُلي الثقيلة التي أجبر على وضعها في المناسبات الهامة ,العِقد الوحيد الذي لا أنزعه أبدا عن عُنقي كان لأمي المتوفاة ,كان على رقبتها حين أخذَتْهُ إحدى المرافقات المقربات لها ,قامت بإعطائه لي و الدموع في عينيها قائلة "عديني أن يبقى هذا العقد على رقبتك مهما حدث "و رغم كوني صغيرة جدا في ذلك الوقت و من الصعب قطع وعد كهذا ,إلا أنني حرصت على الإيفاء به حتى بعدما وشت بي الزوجة الأولى , استَطَعْتُ تجاوز الأمر بعد التوسل لأبي طويلا لأُبقيه معي لكنه لم يخفر للمرافقة و قام بنفيها بعيدا عن القصر ,و هكذا أصبح كل من عرف أمي ميتا ,منفيا أو فاقدا للذاكرة خوفا من الحاكم و تطبيقا للقواعد .

***

حين أعبر أروقة القصر في يوم ميلادي أحظى بتهنئة حارة ممن أصادفهم . أحب عيد ميلادي ,الكل يُظهر الاهتمام نحوي في هذا اليوم ,مع أني أميرة محاطة بالاهتمام طوال الوقت إلا أن يوم ميلادي مميز بشكل أو بآخر .

توجهت للمطبخ الملكي قبل كل مكان لأنني بحاجة لأخذ الفطور إلى بحر ,كيس مليء بالتفاح الأحمر يكفي لإشباع بطنه الكبير .

دخل الطباخ و قد كانت بيده ورقة صغيرة ,إنها قائمة طعام الليلة دون شك ,أراد مناقشتها مع العاملين , لكنني توجهت نحوه و بحذر شديد قمت بسرقتها من يده لألقي نظرة عليها ,غضِب الطباخ البدين و أشار إلى وثيقة مُعلقة بالحائط ,من بين جميع قوانين المطبخ الملكي كان قانون منعي لدخوله الوحيد المكتوب بخط يده و بحجم كبير ,لا يمكنني لومه فقد كنتُ طفلة شقية , لقد أضاف الطباخ ذلك البند حين قمت بمقلب به يوم استقبلنا حاكم قبيلة شيبة فقد وضعتُ كميات كبير من الملح في الحساء الملكي و وضعته في موقف سيء مع والدي , إلا أنني اعترفت في الوقت المناسب قبل أن يتم قطع رأسه , عندها اشترط

الطباخ العودة للعمل فقط إن تم منعي من دخول المطبخ مجددا ,لكنني كبيرة الآن و قد وعدت ألا أُكررها لما لا زال يحقد علي كل هذا الحقد , لولاي لكان مدفونا كجثة دون رأس عليه أن يكون شاكرا على الأقل .

صرخ الطباخ :أبعدوها من أمامي الآن .

قلت بعد أن تجمع العمال حولي : لحظة واحدة اهدؤوا قليلا .. إنه يوم ميلادي ألا يمكنني تغيير بعض الأمور في وليمة الليلة .

تقدم الطباخ نحوي و هو لا يُحاول أبدا إخفاء كرهه اتجاهي ,نزع الورقة من يدي و قال و هو يقذف قنابل اللعاب من فمه :أنا هنا منذ وُلدتِ يا سمو الأميرة ..لذا أعرف أطباقك المفضلة أكثر منك ..لا تقلقي أبدا حيال طعام الليلة ..كل ما عليك القلق حوله هو مظهرك ..فقد أرسل الحاكم دعوات إلى العديد من القادة لحضور احتفال عيد ميلادك لا أظنه سيحب أن يراك ترتدين ثياب الصيد حين يصلون .

لقد تجاوز هذا العجوز البدين الحدود أظن أنه كان علي تركه يموت حين سنحت لي الفرصة .

أحضرتْ عاملة أعرفها كيسا مليئا بالتفاح و منحتني إياه وهي تهمس في أذني :سرقتُ لكِ بعضا من كعكِكِ المفضل .. خبأته لك في علبة داخل الكيس ...اذهبي بسرعة قبل أن يكتشف الأمر .

كان الطباخ بنفسه يقوم بعَدِّ قطع هذا الكعك المصنوع من الزنجبيل ,هو يستغرق وقتا لطحنه و إعداد عدد كبير منه يكفي جميع المدعوين ,المسكين يقضي يوما كاملا في تقشير الزنجبيل بعناية بعد نقعه في الماء لليلة كاملة ,ثم يضعه تحت أشعة الشمس حتى يتحول لونه إلى الأبيض ليشرع بعد ذلك في طحنه ,لذا أخذ البعض منه يعد إنتقاما قاسيا ,أمسكت بكيس التفاح و قلت :حسنا إذاً أنا ذاهبة.. حظاً موفقاً الليلة آمل أن تُحافظ على رأسك حتى يوم غد .

أمسك الطباخ بعنقه و صرخ :سمو الأميرة أنا أحذرك إنْ عَبِثْتِ بطعامي ثانية لن تتناولِ الطعام الذي أعده لبقية حياتك .

هربتُ قبل أن ينهي كلامه ,لا وقت لدي أضيعه في القصر بينما أستطيع الخروج و التجول مع بحر .

***

حين وصلتُ إلى الإسطبل رآني بحر فأطلق صهيله المعتاد ,أنا لا أتحدث لغة الخيول لكنني واثقة أنه يعني بذلك إلقاء التحية ,أو ربما كان يرحب بقدوم الفطور ,من يعلم .

جلستُ في العشب أراقبه و هو يأكل ,فجأة تذكرت أني كتبت قائمة الليلة الماضية عن الأمور التي أود تجربتها معه اليوم ,فكرتُ بأخذه للمشاركة في سباق الخيول الذي ينظمه سكان قرطبة سنويا ,كنت أحْضرُ ذلك السِباق منذ زمن و لم أرى حتى الآن حصانا يمكن أن يخسر بحر أمامه ,أعلم أنه من غير العادل أن ينافس خيولا كتلك لكنني حقا أُريد رؤيته يفوز .

بينما كنت جالسة أتفقد خُططي جلس شهاب بجانبي فجأة ,أتى ليُلقي علي واحدة من خُطَبه المعتادة , سوف يبدأ الآن لذا علي الهرب .

صرخ شهاب مندهشا :مهلا إلى أين ؟

أجبته و أنا أنفض التراب عن ملابسي :إلى الساق)إختصار سوق قرطبة. (

انتبهتُ له و قد ظهر الحزن عليه , لذا تكرمت و سألته :ما الأمر هل من مشكلة ..أنت تعرف أنني انتظرت هذا اليوم منذ طفولتي لما عليك أن تكون عاطفيا فجأة ؟

وقف شهاب و أشار إلى بحر :أنا خائف أن يُصيب بحر مكروه ما ..لا تنسي أنها مرته الأولى التي سيذهب فيها إلى الساق إنه ليس خيلا عاديا لذا عليكِ حمايته .

لم أكن في مزاج يتحمل تذمره المعتاد لذا قلت باختصار :حسنا لا تقلقْ .

أنزل ذراعه المشيرة إلى بحر ثم وضعها على كتفي و قال بنبرة جادة :لست قلقا على بحر فقط ..أنا قلق عليكِ أيضا ..لما لا أرافقك اليوم و في المرة القادمة أعدك أن تذهبي بدوني .

حسنا أعترف أن أخي مراع جدا ,ليس اتجاهي فقط بل هو كذلك مع الجميع ,أتذكر يوم وقع الاختيار على سليم ليكون ممثل القبيلة في مبارزة السيف و لأن سليم سيئ جدا في القتال تطوع شهاب مكانه دون تردد كي لا يتأذ أخوه الصغير ,أيضا حين كنا نقع في المشاكل و نحن صغار كان شهاب يتلقى العقاب بدلا منا ,لن أنسَ يوم أنقذ عمر من الموت في صحراء قُرطبة ,وقتها كنا عائدين من مهرجان نُظِّم في قبيلة شيبة ,لكن عمر أضاع القافلة بشكل ما ,و حين انتبه شهاب لغيابه أخذ معه قِرْبَة كان قد ملأها بالماء و رجع بخيله مسرعا للبحث عنه ,مضت مدة حتى عاد شهاب بعمر الذي كانت علامات الإرهاق بادية عليه ,زوجة أبي الأولى كاد يغمى عليها من الخوف ,أنا لم أرها بتلك الحالة من قبل أبدا فدائما ما كانت تَظهر بصفة المرأة الباردة الصلبة التي لا شيء يمكن أن يكسرها ,لكن لكل شخص نقطة ضعف , و بالنسبة لها كان أولادها خطا أحمر .

أمسكتُ يد أخي و قُلت :أما أنا فهي ليست مرتي الأولى يمكنني تدبر أمري لن أتأخر أعدك ...و الآن علي الذهاب .

لا أعلم إن كانت هذه الكلمات قد أراحت باله ,حتى و إن لم تفعل ,فأنا كنت عازمة على الذهاب وحيدي دون مرافقة فإن أخذته معي لن يدعني أشارك في السباق و سيستمر في حمايتي دون داع ,لقد تغيرت الأمور ,كنت أحضر سباق الخيل منذ سنوات ,و لاحظت انه توجد الكثير من الخيول الرائعة في قرطبة لذا لن يكون خيلي في خطر كما يزعم .

حين وصلنا إلى البوابة امتطيت بحر ثم التفتُ لأنظر إلى أخي قائلة :لا تنسَ أن تُحضر هدية لعيد ميلادي ..أراك مساء .

رفع أخي يده ملوحا بوجه لم يبدو عليه الرضى أبدا ,أعتقد أنني سأبقى دائما مجرد طفلة صغيرة في نظره ,فتاة ضعيفة تحتاج من يكون معها لرعايتها على الدوام ,أمر مضحك فأنا أستطيع هزيمته في المبارزة و مع هذا يظن أني أحتاجه ليحميني .

لابد من أن بحر سعيد جدا ,فهو قد بدأ بالركض من تلقاء نفسه فور فتح الحارس للبوابة ,أنا لا ألومه , مرت سنوات مذ آخر مرة خرج فيها من القصر ,أنا و هو متشابهان ,نحن محتجزان داخل هذه الأسوار العالية غير مسموح لنا بالمغادرة إلا في ظروف معينة .

حين أغادر القصر أُشعر بالحرية التي لا مكان لها داخل القصر و بين الحراس ,و ما أجمل شعور الحرية ,في بعض الأحيان تأتيني أفكار جنونية عن أخذ بحر و الرحيل إلى مكان لا يجدني فيه أحد ,لا المرافقات المزعجات و لا الحراس و لا زوجتا والدي الحقودتان ,أعيش كما يحلو لي و أرتدي ما يحلو لي ,اشعر أحيانا أني لا أنتمي إلى هناك ,ربما أكون شخصا آخر وُضع مكان الأميرة الحقيقية ,لا يعلم أحد ما أفكر به وما أريده فعلا ,الكل يراني أكثر أميرات قُرطبة ذكاء و قوة ,و أنا لم أُرد تخييب ظنهم , حاولت أن أبدو ما أرادوني عليه ,أردت أن أجعل شعبي فخورا ,كما أنني أظن أن هذا ما كانت تريده امي لي أيضا ,أميرة مميزة لا تتكرر ,فأنا ثمرة زواج سياسي بين قبيلتين دام صراعهما قرونا ,علي أن أكون على قدر المسؤولية الموضوعة على عاتقي و ألا أخذل أحدا ,لكنني لم أعلم أني سأفقد نفسي الحقيقية وراء هذا القناع ,ربما سيأتي يوم لن أتعرف فيه علي , هذا هو خوفي الأكبر ,أن تشكلني الأيام كما يحلو لها و يغيرني الزمن على الرغم مني.

***

بعد وقت قصير وصلت إلى الساق ,موطن كل شيء غريب في قرطبة ,ستجد فيها كل ما ترغب في اقتنائه لكن بسعر مرتفع بالطبع ,مقارنة بالقبائل الأخرى تعتبر حدودنا الأكثر صرامة حول تمرير بضائع الشعوب الأخرى ,و هذا ما يجعل دخولها مكلف للتجار و مربح لجنود الحدود .

غطيت شعري و نصف وجهي بقطعة قماش و ارتديت عباءة سوداء طويلة ,هذا سيكون كاف لإخفاء هويتي ,قد أبدوا كشخص غريب لكن مع هذا فأنا لا أجلب الانتباه .

ربطت بحر في عمود خشبي بجانب الطريق ثم توجهت إلى أشهر متجر أقمشة في الساق ,اعتدتُ و شهاب المجيء إلى هنا منذ سنوات فقد كان شهاب يقصده لمعرفة أحوال الشعب و سماع الكلام المتداول بينهم لنقل أن صاحب المحل كان كالمخبر بالنسبة لأخي , أما أنا فقد كنت زبونة وفية عنده و دائما ما أقتني اقمشتي من محله .

حين وصلت رميت كيسا صغيرا من العملات الذهبية فوق الأقمشة و قلت للعم :مرحبا ..هل لديك من الحرير القادم من إنديان آباد ؟

تقدم البائع و فتح كيس العُملات ثم نظر لي جيدا و قال :أهلا يا سمو الأميرة لقد أتيت وحيدة هذه المرة أين سمو الأمير أنا لا أراه ؟

رفعت الغطاء عن وجهي و قلت هامسة :شششش ...لا تنادنِي سمو الأميرة ألا ترى أني متخفية ...كما أن أخي غير موجود لقد خرجت من دونه .

تفاجأ البائع و رد بصوت خافت بدوره :أنا آسف يا سمو الأميرة ...أخبريني كيف يمكنني أن أخدمك ؟

_حسنا لا عليك ..أخبرني هل أحضرت البعض من حرير إنديان آباد ؟

أجاب بطمعه المعتاد :بالطبع و لكنه سيكلف أكثر من هذا الكيس الصغير يا سمو الأميرة .

علمت أنه رجل لا يشبع أبدا لكن لحسن الحظ أنني بارعة في المساومة إلا أنني لست في مزاج يسمح بذلك الآن ,رميت كيسين آخرين من العملات الذهبية على أمل أن يرضى بهما و يتركني أذهب .

نظر للكيسين ,ابتسم و قال مدعيا الخجل :لا أعرف ما أقوله لسموك و لكن حراس الحدود هذه المرة أخذوا رشاوى ضخمة مقابل تهريب البضاعة ..الحاكم رفع العقوبات و شدد القوانين علينا و أنت أدرى لما أتعرض له لأوفر لك أقمشة من الشعوب الأخرى .

حسنا هذا العم الجشع يرفع السعر كل مرة آتي فيها و لا توجد طريقة للمساومة أفضل من إبطال الصفقة كلها ,قلت و أنا اعيد الأكياس واحدا تلو الآخر إلى الحقيبة :حسنا إذاً وفقك الله في مجازفتك فأنا لا أنوي دفع أكثر من ثلاثة أكياس و أنا أعلم أنه لا أحد يشتري تلك الأقمشة الباهظة عداي على أية حال .

أمسك البائع الكيس الأخير قبل أن أدخله الحقيبة و قال محاولا استئثار شفقتي :لك هذا سموك رغم أنني أُعرض حياتي للخطر لإحضار هذه الأقمشة إلى الساق إلا أنه إن لم أبعها لك فما فائدة مجازفتي من البداية .

لا أصدق كم هو ماكر حاصد العملات هذا ,و إن لم أكن أعرفه لقلت أنه بالفعل يعني ما يقوله ,لا بأس فقد تعودت على طبعه ,أعدت الأكياس له و دخلت إلى داخل المتجر أنتظره كي يُحضر القماش و فجأة دخل أحدهم و هو يصرخ مناديا صاحب المحل :سيدي ..سيدي لن تصدق لقد وضع أحد الأغنياء ثروة كجائزة للفائز بمسابقة الخيل هذا العام .

كان الأمر مثيرا للانتباه ,أردت أن أعرف إن كان الغني قد احضر خيلا معه ,تقدمت إلى الرجل و سألت :هل ..هل أحضر الرجل الغني معه خيلا ليشارك به في السباق ؟

أجاب دون تفكير :لا لم يفعل هذا مناف للقوانين إن كان سيعرض جائزة فغير مسموح له المشاركة في السباق .

كانت هذه فرصتي لأجعل بحر يحصل على الجائزة الكبرى ,نادرا ما توضع جائزة كبيرة في مسابقات الخيول هذه ,كلها تكون مبالغ مالية صغيرة ,أعتقد مع جائزة كهذه المسابقة ستكون حماسية أكثر من المعتاد و لابد لي من الفوز فيها.

أخبرت البائع أني سأعود لأخذ القماش لاحقا ثم ركضت مسرعة إلى بحر ,علي اللحاق بالمسابقة لأرى المنافسين ,آمل أنه لم يأتي بعد من يمكن أن يكون نداً لنا ,هكذا سيكون فوزنا مضمونا .

***

في قُرطبة ,إذا رأيت عددا كبيرا من الناس مجتمعين في مكان واحد تدرك أنه واحد من أمرين ,الأول أن موكب زفاف من الأسرة الحاكمة يمر , أما ثانيا فموكب لوفاة من الأسرة الحاكمة يمر ,كلا الأمرين ليس لهما علاقة مباشرة بالشعب ,لذا اخترعوا سباق الخيول ,إنه الأمر الثالث الذي يُمَكِّنُهم من التجمع معا لأمر يعنيهم .

بعضهم يشارك في السباق ,بعضهم يشجع خيلا ما و البعض يأتي فقط للمرح .قرأت كتابا عن تاريخ هذه الرياضة في قرطبة ,و لكن لم يُذكر أبدا كيف بدأت و متى ,إنَّ كُتُبنا التاريخية تتعرض للتحريف , لسبب ما لا يمكننا معرفة الحقائق .

يقول أبي إن بعض الأمور يجب أن تبقى غامضة لمصلحة الجميع ,كأن كشف سر كيف بدأ الشعب بتنظيم سباق الخيل كان سيؤذي أحدا أو سيسبب الضرر للملك .

هذه السنة هناك جمع كثيف مقارنة بالعام الماضي كل سنة تصبح شعبية هذا السباق أكبر ,هنالك أشخاص ليسوا من قرطبة حتى ,بعضهم يبدو من سكان شيبة ,إنها قبيلة قريبة لنا ليس فقط في العلاقات السياسية و التجارية بل حتى الجغرافية .

في مكان بالقرب من المضمار توجد طاولة مستطيلة كبيرة ,هناك يقوم الناس بتسجيل أنفسهم للمشاركة في السباق ,يبدو أن الجميع قد انتهوا من تسجيل أسمائهم فلا يوجد ذلك الصف الطويل الذي يفترض أن اقف فيه طويلا حتى أصل للطاولة , لقد حضر الجميع باكرا على غير العادة ,أظن أن حماسهم نابع من قيمة المكافئة المالية بينما حماسي نابع من حرمانهم منها .

تقدمت نحو طاولة المشاركة و وضعت خمس العملات أمام المنظم ,علي دفع قيمة رمزية للمشاركة تلك هي القوانين ,رغم كوني ميسورة الحال إلا أنني أكره تبديد نقودي ,لست من محبي إخراج النقود من حقيبتي ,بل من محبي جمعها .منحني المنظم ورقة لأسجل اسمي و اسم فرسي و من سيشارك معه في السباق ,وضع أمامي ورقة صغيرة كإثبات لدفع رسوم المرح ,هكذا يسمونها ,لا أعلم ما هو الأمر المَرِحُ في دفع الرسوم ,إن هذه التسميات هدفها الوحيد هو إخفاء الحقائق و خداع الناس .

لم أشارك في السباق من قبل لذا لم أعرف إن كانوا سيكتشفون أمري إذا كذبت بخصوص هويتي ,و أنا أتخبط دون أن أحدد ما علي فعله تقدم شاب إلى الطاولة و طلب ورقة المشاركة ثم أخذ يملؤها أمامي , اختلست النظر ففضولي من الأمور التي لا أستطيع كبحها ,لم يبدو الشاب من قبيلة قُرطبة ,كان من شيبة أنا واثقة ,على المشاركين من القبائل الاخرى الدفع أكثر من سكان قرطبة لذا وضع كيسا من العملات فوق الطاولة , حين رأيت ذلك الكيس أحسست بالظلم في مكانهم , لم أكن أعلم أن عليهم دفع كل هذا القدر إنهم يتعرضون لنهب علني ,بدا الفتى غبيا لذا أردت مساعدته بطريقة ما .

قلت للمنظم :إنه من قرطبة .

فأجاب المنظم مشككا :حقا ..إذا لما يرتدي مثل سكان شيبة ؟

لم أفكر في الأمر لذا قلت أول ما خطر ببالي :إنه أمر رائج الآن ..شباب قرطبة أصبح منفتحا على ثقافات القبائل الأخرى بما في ذلك ألبستهم لذا يحاولون تقليدهم .

أصدر المنظم صوتا بدى كأنه صدق ما قلته ,لكن الشاب ظل ينظر كالأبله و لم يفهم الأمر لذا قال فجأة : اعتذر لكِنَكِ مُخطأة في اعتقادك أنا من شيبة فعلا .

نظر المنظم لي مندهشا كأنه يسأل "هل يمكن أن يفسر لي أحد الأمر ."

قلت مسرعة لأتجاوز الأمر بذكائي :أرأيت لقد اندمج في الثقافة حتى ظن أنه من شيبة حقا ..أمر غريب .

نظرتُ للشاب الذي كان لا يزال ينظر ببلاهة ,بدى أنه لن يفهم الأمر أبدا لذا أخذت بعض العملات من كيسه و وضعتها أمام المنظم ثم أعدت الكيس إلى جيبه و قلت :هكذا يكون قد دفع مستحقاته أليس كذلك حضرة المنظم ؟

وضع المنظم أمام الشاب ورقة إثبات الدفع ثم سحب العملات إلى حافة الطاولة لينتهي بها الحال في كيسه الكبير .

صرخ أحد من الوراء مناديا :عين أسرع سيبدأ السباق بعد قليل .

أجاب الشاب الواقف بجانبي :أنا قادم لقد انتهيت .

غريب ,أنا واثقة أنه كتب في الورقة أن اسمه جرير ,أعتقد أن علي كتابة اسم آخر بدوري ,لأكتب سُنَيْنَة و أُنهي الأمر .

صاح المنظم في وجهي :ألم تنتهي بعد ...كل هذا الوقت لكتابة اسمك؟

أعطيته الورقة قبل أن يبدأ في استعجالي أكثر ,أمسكت ببحر و أخذته إلى مضمار السباق ,علينا أخذ موقعنا فالسباق على وشك أن يبدأ .

عدد المتفرجين كبير حقا لم يعْتد بحر على وجود كل هذا العدد من الناس حوله ,لم يبدُ على المتسابقين بجانبي أي توتر فبعضهم يشارك كل عام لذا هم اعتادوا على هذه الأجواء ,لكنني لم أرى ذلك الشاب من قبل ,هذا مطمئن بعض الشيء ,على الأقل لست الوحيدة الي تشارك لأول مرة .

صاح المنظم بكل قوته :جميع المشاركين ..خذوا مواقعكم .

ركبنا جميعا فوق خيولنا و أخذنا وضعية الانطلاق ,صعد المنظم فوق خشبة عالية تقع بجانب خط البداية و رفع جرسا أمامه و قال :كلكم تعرفون القواعد ..من يحاول الاحتيال سيحرم من المشاركة مجددا و يُغَرَّم ..هيا استعدوا .

رفع مطرقة صغيرة كان يحملها بيده الأخرى و صرخ و هو يضرب بها الجرس :انطلقوا .

معلنا عندها بداية السباق ,انطلقت جميع الخيول بسرعة فائقة و بدأ يظهر التفاوت بيننا تدريجيا ,كنت في المرتبة الثالثة ,يبلغ طول المضمار كيلومترين لذا علي الحفاظ على مرتبة جيدة حتى نصبح قريبين من خط النهاية .

فجأة بدأ خيل ذلك الشاب يقترب شيئا فشيئا حتى تجاوزني و غيري من الخيول ,أظن أنه و أخيرا حصل بحر على منافس له ,هذا يبدو حماسيا بالنسبة لي .

حين لم يبقى الكثير على نهاية السباق كان علي تجاوز ثلاثة خيول إذا أردت الفوز ,تقدمت إلى الأمام بسلاسة تجاوزت بها الفارسين لأصبح في المركز الثاني ,أما ذلك الشاب فهو مصمم أنْ يجعلني الثانية , لكن هذا لن يحصل .

كنا على وشك الوصول لذا جعلت بحر يضاعف سرعته فلم يبقى إلا القليل ,إنه تنافسيٌّ بقدري على الأقل لذا عليه الفوز ,أخذ الشاب يضرب فرسه بقوة لجعلها تسرع لكن دون جدوى فبحر و أنا قد تجاوزناهما و ها نحن نعبر خط النهاية و نفوز لأول مرة , لقد شعرت بالسعادة تغمرني بعدما كاد قلبي يتوقف من فكرة الخسارة , أنا مدينة لبحر بهذا الفوز , أحبك يا بحر ,أحبكِ أمي .

تجمع المتسابقون حولي لتهنئتي على فوزي إلا ذلك الشاب , أنا لا ألومه فهو مثلي , لا يتقبل الخسارة .

تقدم المنظم نحوي و قد بدى غاضبا و هو يقول :مبروك فوزك لديك خيل مميز .

أجبته و أنا أُربِّت على بحر :شكرا ..أنا أعلم .

أخذنا مواقعنا نحن الذين احتلنا المراكز الثلاث الأولى في السباق ,سوف يمنحوننا ميداليات عليها طباعة علم القبائل العرب الخمس ,إنه لا يُرفع سوى في الفعاليات المشتركة كي يُؤكد العرب على كونهم لا يزالون متحدين .

وقف الشاب بجانبي ممسكا بباقة من الورد ثم رفعها في وجهي قائلا :مبروك فوزك .

يبدو أن الأمر استغرقه بعض الوقت ليتقبل خسارته ,أردت إغاظته قليلا فقُلت :كنتَ جيدا ..ربما المرة القادمة سوف تبلي أفضل من ذلك .

لم تبدو عليه أي علامات عن الرضا ,أظنه لا ينوي تخطي الأمر .

كان المُنظِّم من بعيد يكلم شخصا ما يرتدي عباءة حمراء مُخفيا نصف وجهه بقناع أسود ,بدى أمرا مريبا يجري هناك ,سألت صاحب المرتبة الثالثة الذي أتى متأخرا :ما الأمر هل من خطب ما ؟

لكنه أجابني بلا مبالاة :ربما يناقشون إقصاء أحدهم لمخالفته القواعد.

صرخت من دهشتي :ماذا ؟ ..من يكون هذا ؟

أجاب بلامبالاة مُجددا :لا أعلم .

نظرتُ إلى الشاب ذو المركز الثاني الذي استمر في عبوسه و كأنه لم يسمع شيئا ,حسنا بدأ الأمر يزداد غرابة .فجأة سار المنظم نحونا و وسط هتافات الجماهير و قدم لنا ميداليات ذهبية ثم وضع بيدي كيسا متوسط الحجم مملوءا بالعملات الذهبية ,لم يبدو سعيدا و هو يمنحني جائزتي , ربما خسر في رهانه الذي يقيم السباق خصيصا من أجله , لا أعتقد أنه توقع فوز فتاة مع وجود أولئك الرجال ,حسنا ليمت من غيظه إذا , سيكون هذا درسا جيدا له كي لا يُقلل من شأن النساء من الآن فصاعدا ,ابتسمتُ و لوحتُ للجماهير التي هتفت عاليا و بحماس شديد باسم الفارس الأبيض معبرة عن اعجابها بأدائي الرائع ,أصبح لي بعض المعجبين إذا , هذا مثير للاهتمام .

***

حين انتهينا أسرعت نحو الاسطبل فبحر ينتظرني هناك و لا يجب أن أتأخر عليه ,حين وصلت رأيت مجموعة من الأشخاص الملثمين يقفون أمامه , كانوا يشبهون قطاع الطرق في أشكالهم ,مخيفون على نحو مريب و في موقف كهذا لم يكن لي حل آخر غير التظاهر بالقوة و إخفاء الخوف ,تقدمت نحوهم بكل ثقة و سألت :ما الذي تفعلونه هنا من تكونون أنتم ؟

ابتعدوا عن بعضهم ليظهر لي من ورائهم الرجل صاحب العباءة الحمراء الذي كان يُحدث المنظم سابقا , بمظهره هذا كان من السهل أن أخمن أنه قائدهم ,فقد بدا أغربهم و أكثرهم رعبا ,نظر نحوي بعينيه المخيفتين و قال :مرحبا يا سُنَيْنَة .. أم أنك تفضلين لقب الفارس الأبيض كما يناديك جمهوركِ .

لاحظت أنه لم يجب عن سؤالي لذا كررته بغضب :سألت من تكونون ..و ما الذي تفعلونه بجانب بحر ..إرحلوا قبل أن أستدعي المنظم و أخبره أني أتعرض للمضايقة .

ضحك صاحب العباءة الحمراء و قال :ما الذي ستفعلينه ؟ تستدعين المنظم ؟ .. فلتفعلِ .. لنرى من منا إذن سوف يحرم من المشاركة .

بدا واثقا جدا ,ما الذي يعرفه هذا الرجل المُريب ,سألت بكل ثقة :و لماذا قد يقوم باستبعادي أنا ؟

أجاب :ربما لأنك لست سُنينة كما تدعين ؟

لم أكن أعلم أنهم فعلا يولون اهتماما لأسمائنا و يبحثون في الأمر ,كيف عَلِمَ أنه ليس اسمي الحقيقي حتى , هل يعرف من أكون يا ترى ,لا يجب أن أستخف بهذا الرجل و علي حل الأمر دون مشاكل ,قلتُ دون تردد :ماذا تريد إذا ؟

أجاب ضاحكا لأنه أحس بفوزه :حسنا أريدكِ أن تُعيدِ نقودَ الجائزة فهي تخصني .

سألت متحدية إياه :و ما الذي ستفعله إن رفضت فعل ذلك .

أجاب :إذا سيكون علينا أخذ هذا الخيل المميز معنا ..أعتقد أنه سيفي بالغرض.

صرخت بغضب :كيف تجرؤ على تهديدي ..إن لمست شعرة واحدة منه سأجعلك تندم طوال حياتك على ذلك .

قال قبل أن يختفي وراء رجاله :كما تريدين إذن ..تولوا أمرها .

أخذ رجاله يتقدمون نحوي ببطء ,حوالي عشرة أشخاص اجتمعوا حولي و طوقوا طريق الخروج ,لا أدري إن كانت لي فرصة لأنجو من هذا , لا أصدق أنه في أول مرة لي خارج القصر يحدث أمر كهذا , يال سوء حظي ,أنا لا املك حتى سلاحا لأدافع به عن نفسي ,تراجعت الى الخلف و بحثت بعيني عن أي شيء يمكن ان أقاتل به ,كانت توجد مكنسة خشبية ظننت أنها ستفي بالغرض لأتصدى لهم و أحمي بحر ,ركضت بسرعة نحوها لأمسكها لكن و بمجرد أن التفت تفاجأتُ أنهم قد اختفوا و قد أخذوا بحر معهم ,في تلك اللحظة أصبت بالوهن و كاد يغمى علي من شدة الخوف ,كيف يجرؤون على لمس خيلي العزيز ,أنا لن أسامحهم أبدا .

خرجت من الاسطبل أبحث عنهم مثل المجنونة ,لن يكونوا قد ابتعدوا طويلا و مع خيل عنيد مثل بحر سيكون عليهم وضعه في عربة ما .

فجأة رأيتهم من بعيد يركبون عربة بالفعل , كان علي اللحاق بهم بسرعة لذا امتطيت خيلا كان صاحبه مارا بقربي و انطلقت وراءهم لأمسكهم قبل فوات الأوان ,لن أدعهم يفلتون بهذه السهولة و قد سرقوا خيل الأميرة هيرانة .

لقد اتجهوا نحو السوق ,ربما فكروا أن عليهم الاختباء في مكان ما و لا توجد طريقة أفضل من جعلي أفقدهم وسط زحام السوق الذي لا ينتهي .

كان هناك بعض الرجال يتبعون العربة من الخلف بخيولهم و لسوء الحظ قد لاحظوا وجودي , تفاجأت عندما توفق أحدهم لمنعني من المرور فحاولت التوقف بسرعة كي لا أصطدم به لكن الخيل لم يستطع فعلها في الوقت المناسب و أسقط كلانا ,تدحرجت على الأرض حتى ارتطمت بعربة صغيرة لبائع متجول ,كان ذلك مؤلما جدا وقد حاولت استجماع قواي و النهوض سريعا رغم آلامي تلك ,لمحت من بعيد ذلك التابع ينزل من خيله و يتقدم نحوي ,حين وصل إلي مد يده نحوي كأنه يحاول مساعدتي , من يحاول أنْ يخدع ,سحبت خنجرا كان يعلقه على خصره و قمت بدفعه إلى الخلف ليسقط على رأسه , جلست فوقه و قمت بوضع الخنجر على عنقه و بسرعة نزعت له قناعه ,لم أكن أتوقع أن يكون هو , كان الشاب صاحب المرتبة الثانية من سباق الخيول ,ماذا يفعل مع هؤلاء ؟ حين لاحظ دهشتي استغل الوضع و قام بنزع الخنجر من يدي و دفعني بعيدا ثم ركض بسرعة ليركب جواده و يعود إلى رفاقه ,أما أنا فلم أستطع اللحاق به و بقيت مرمية على الأرض من الألم محاولة استجماع ما تبقى من قوتي للوقوف مجددا على قدمي .

حين غربت الشمس كنت قد وصلت أخيرا إلى القصر و أنا في قمة التعب ,نزعت ردائي ووضعته في الحقيبة ,رتبت شعري و توجهت إلى الحراس ,تمنوا لي سهرة ممتعة بينما سألني أحدهم عن بحر , كان علي إيجاد كذبة ما فأخبرتهم أن شهاب أخذه من البوابة القريبة للاسطبل هكذا لن يشكوا في شيء. تسللت إلى جناحي خفية محاولة تجنب المرافقات كي لا يعلمن بقدومي و تنهلن علي بالأسئلة , دخلت غرفتي و رميت حقيبتي بغضب و أردت الصراخ بكل قوتي و لعن اليوم الذي تمنيت فيه الخروج من القصر , ارتميت على سريري أفكر فقد كان الأمر كارثة بالنسبة لي و علي ايجاد حل لها بأسرع ما أمكن قبل أن

يكتشف الحاكم الأمر ,لا أعرف أين من الممكن أنهم أخذوا بحر أو حتى إذا كانوا لا يزالون في قرطبة أو غادروها , ماذا لو لم أره مجددا ,لا يمكنني حتى تخيل حياتي قبل وجود بحر .

طرق أحدهم باب غرفتي ,كانت المرافقات يستأذن للدخول ,قالت إحداهن :أميرتي عليك الاستعداد الآن ..سوف يصل الضيوف قريبا .

آه يا الهي كي اكتشفوا أنني عدت .

صرخت بغضب :أتركوني و شأني هلا فعلتن .

صوتي الغاضب يكفيهن لاستنتاج أن هنالك خطبا ما و انا لا اريد الانشغال بهن الآن لذا قلت بهدوء :أنا آسفة لقد كان يوما طويلا في الخارج هل يمكنكن إحضار ملابسي لليلة و لا تنسوا مجوهراتي .

أجابت إحداهن :أمرك سموك .

أخيرا غادرن , علي استجماع شتات نفسي قبل عودتهن فلا يزال لدي ليلة طويلة علي كبت حزني بها , بعد رحيلهن بقليل طرق أحدهم الباب لذا ظننت أنهن قد عُدْن ,صرخت مجددا :ألم أقل أن تتركوني و شأني .

فُتح الباب فرفعت رأسي عن الوسادة لأرى من هناك ,كان ذلك شهاب ,نظر لي بوجهه القلق المعتاد فلم أستطع إخفاء الأمر أكثر و انفجرت بالبكاء ,أغلق الباب و ركض نحوي ليجلس بجانبي ,سأل بقلق :ما الأمر ؟ ..سمعت من المرافقات أنك في مزاج سيء ..هل حصل أمر ما و أنت خارج القصر ؟

لم أستطع الحديث و أنا في تلك الحالة لذا عانقته و أنا أتخبط في الكلام :أنا ..أنا ..اقترفت ..خطئا جسيما ..كنتَ على حق ..لم يكن علي الذهاب بدونك ..آسفة حقا ..أنا آسفة .

وضع شهاب يده على كتفي و أخذ يعمل على تهدئتي ,قال و هو يحاول مواساتي :لا عليك كل شيء بخير الآن ..لابد و أن نجد حلا أخبريني ماذا حدث ؟

قلت بعد أن هدأتُ قليلا : لقد شاركت في مسابقة الخيول التي أقيمت اليوم و قد فزت بالمركز الأول .. لكن بعض الأشخاص لم يعجبهم ذلك فقاموا بتهديدي إما أن أعيد الجائزة لهم او لن أرى بحر مجددا أبدا .. حاولت حمايته لكنني فشلت .. كانوا كثيرين ..و رغم أني تبعتهم إلا أنني سقطت بسبب أحدهم و أضعتهم ..ماذا أفعل الآن ..شهاب أنت تعرف أني لا أستطيع بدون بحر أرجوك أعده إلي .

مسح شهاب الدموع عن وجهي و قال ليُطمئنني :لا أظن أنهم ابتعدوا كثيرا ..سأرسل برجالي إلى الحدود ليشددوا الحراسة اطمئني لن أسمح لهم بالخروج من قرطبة و حين ينوون ذلك سوف نمسكهم لذا ليس عليك القلق .

قلت بعدما فكرت في أبي :لن تخبر الحاكم أليس كذلك ؟ ..لنخفي الأمر حتى نسترجع بحر ..لا أريد أن يعلم فيمنعني من الخروج خارج القصر مجددا .

أعلم أن هذا الطلب صعب على شهاب فهو سيضعه في موقف حرج مع أبي لذا لم أتوقع أن يوافق لكنه فاجأني و قال :حسنا كما تريدين لك هذا ..و الآن عليك أن تستعدي للحفلة .. لا تريدين أن تجعلي الضيوف ينتظرون .

شعرت بالراحة لسماعي وعوده ,أستطيع تجاوز هذه الحفلة الآن , لطالما كان شهاب موجودا بجانبي , إنه هدية من السماء أشعر أحيانا أنني لا أستحقها .

دخلت المرافقات و قد أحضرن ملابسي لذا شرعت بتجهيز نفسي ,علي أنْ أبدو جميلة جدا كي أُغيظ زوجة أبي الأولى ,أنا لا أملك لوحة لأمي لكن الكتب روت عن جمالها و حسنها , و قد أخبرني الكثير ممن عرفوها أنني نسخة عنها .

زوجة أبي الثانية عادية رغم أنها تنتمي للأسرة الحاكمة ,هي تكون ابنة عم والدي ,تزوجها بعدما مات زوجها في حرب القبيلتين ,تكرهني بسبب نسبي لقبيلة عُرب التي قتلت زوجها ,بينما زوجة أبي الأولى فتكره والدتي لأنها كانت أجمل منها و تفوقها شعبية لدى شعب قرطبة ,كانت تظن أن أمي أخذت مكانها ,كيف لها أنْ تُقارن نفسها بها ,هي مجرد جارية تزوجها والدي بعدما قدمها له حاكم شيبة كهدية يوم استلم منصب ولي العهد ,لم تكن من قبيلتنا أو حتى من أسرة ذات مكانة مرموقة في قبيلتها ,إلا أنها حصلت على لقب الزوجة و الآن تطمع في جعل أولادها حكاما لقرطبة ,في رأيي شهاب و سليم أولى بالحكم منهم .

حان الوقت الآن للذهاب إلى قاعة حفلات القصر ,لم تكن هذه القاعة موجودة سابقا لكنني قرأت كتابا نادرا يتحدث عن فن العمارة لشعب النيبو الذين يسكنون السماء و يعتبرون أكثر الشعوب التي تحتفل ,في اليوم الذي يحتفلون فيه تتساقط الأمطار بسبب رقصهم على السحاب و نظرا لحبهم الكبير للاحتفال أنشأوا ما يسمى بقاعة الحفلات و طوروها بمرور السنوات ,أعجبتني الفكرة كثيرا لذا اردتُ أنْ تكون لنا قاعة لنحتفل فيها نحن أيضا ,أقنعت أبي بصعوبة لتحويل احدى الغرف الكبيرة إلى مكان راقٍ تكتسح الزخارف جدرانه ,و ثرية كبيرة تتوسط سقفه لتضيء القاعة ليلا ,حصلنا على مواد إنشاء قاعة كتلك التي يملكها النيبيون بصعوبة ,فهي لا توجد إلا في قبيلة عُرب فأحد حكامهم قديما كان مقربا لحاكم شعب النيبو لذلك وقعوا معه اتفاقية للحصول على مثل هذا الأثاث الغريب ذو المظهر الخيالي المميز .

من النادر أنْ يوجد احتكاك بين الشعوب لذلك صداقة حاكم عُرب قديما و حاكم النيبو كانت مثالا يُقتدى به حرصت كتب التاريخ أن تذكره كي لا نفقد فكرة التعامل مع الشعوب الأخرى .

اليوم ستكون القاعة مُزينة على غير العادة فهي لا تُفتح سوى في المناسبات المهمة جدا كأعياد الميلاد أو لإحياء ذكرى تخص انتصارات القبيلة ,كيوم عقد لقاء لم الشمل ,أصبح مناسبة نحتفل بها سنويا .

توضع طاولات خشبية ذات جودة عالية مصفوفة على جانبي القاعة و فوقها أطعمة القبيلة التقليدية , يتوسطها وعاء مملوء بعصير الرمان الذي تشتهر به قرطبة .

حين وصلتُ إلتفتَ الجميع نحوي ,كانت زوجتا والدي تقفان بجانب بعضهما و يحيط بهما جميع أشقائي الأربعة .

كما توقعت لقد ارتدت زوجة أبي الأولى أجمل أثوابها و أسدلت شعرها الطويل ,بينما الزوجة الثانية لم تضع حتى مساحيق التجميل ,كما أنها ترتدي فستانا من فساتينها المعتادة و شعرها مرفوع بشكل كعكة كعادته دائما ,إنها لا تبدو حتى من الأسرة الحاكمة مقارنة مع الزوجة الأولى ,أعتقد أن انفاق الكثير على مظهرك نابع من قلة ثقتك بنفسك ,كأنك تحاول ملء الثقوب الكامنة في روحك عند ارتداء أثمن الأقمشة و الظهور بشكل ملفت للأنظار ,فالزوجة الثانية لم تكن تحتاج لمظهر الأسرة الحاكمة لأنها كانت منها بالفعل ,على عكس الزوجة الأولى التي تحاول بشدة أن تسد تلك الفوارق بينها و بين أبي .

اتجهت نحوهم و أُلقيت التحية على الجميع ثم وقفت بجانب شهاب وسليم ,فُتح الباب ليدخل الحاكم بخطواته التي تهز نفوسنا دوما ,وجهه الشامخ و ملامحه الباردة التي نراها مرتسمة عليه في أغلب الأحيان لا تزال تبث الخوف في قلوبنا ,إننا نراها منذ سنين لكن يبدو أننا لن نعتاد عليها أبدا فالأمر ليس مسألة وقت بل هو شعور علينا محاربته داخلنا .

وقف بجانب عرشه ثم قال :ليتفضل ضيوفنا بالدخول .

وجّه الجميع نظره نحو باب القاعة الكبير الذي فُتح ليسير عبره باتجاهنا حاكم قبيلة شيبة ,لقد مرت فترة مذ آخر مرة رأيته فيها لقد هرم أكثر و صار شعره رمادي اللون بالكامل ,هناك بعض الأشخاص الآخرين معه و هذه أول مرة أراهم فيها .

هناك أشخاص مألوفون دائما ما يكونون مدعوين في مناسباتنا الخاصة ,مثل قائد الحرس , و ذلك الشيخ الذي تصل لحيته إلى بطنه الكبير يكون وزير المالية لقبيلة قُرطبة ,لديه ابنة دائما ما يحضرها معه فهو يُريد تزويجها لأحد أشقائي ,هي جميلة و ذكية لكنني لا أحبها لسبب ما ,مذ كنا صغارا كنت أتشاجر معها كلما رأيتها ,إن طريقة تفكيرها مختلفة عني ,تَرى أنه من غير المناسب للفتيات أنْ يُقاتلن او يرتدين السراويل , إنها ترى أن الفتاة عليها تعلم الطبخ و التطريز و الموسيقى و غيرها ,تلك الأمور التي تفيد المرأة لتكون سندا لزوجها في المستقبل ,لستُ ضد الأمر و لكنني لستُ مع أن لا تتعلم القتال كذلك ,فزوجها لن يكون دائما بجانبها لحمايتها ,كما أنها يمكن أن تكون سندا له في الحرب أيضا , فقدرات النساء في القتال لا يُستهان بها ,فمثلا أنا أستطيع التغلب على جميع أشقائي مجتمعين فكيف علي أن أترك ممارسة القتال و الذهاب للمطبخ ,إنها ترى أني أُشبه الأولاد حتى أنها تناديني هيران بدل هيرانة ,أما أنا فأناديها كعك السمسم فهي تحضره معها دائما وتقدمه لأخي شهاب ليتذوقه .

ها هي الآن تقف أمامي مبتسمة تلك الابتسامة التي لا تنزعها عن وجهها أبدا ,إنها تعتقد أن الرجال يحبون المرأة المبتسمة ,لا أعلم من أخبرها بهذا الكلام و قام بخداعها ,قالت و هي تُقدم صندوقا ملفوفا بقطعة قماش صفراء :هذه هديتك ..عيد ميلاد سعيد أميرة هيرانة.

كان الأمر غريبا حين قالت هيرانة ,إنها لا تريد أنْ يسمعها أحد تقول هيران ,كم أكره نفاقها هذا ,قلتُ و أنا ادعي السعادة :شكرا يا كعك سم ..أقصد يا بهار ..لِم أتعبتِ نفسك .

أزحتُ القماش فوجدت علبة من كعك السمسم ,ليته كان كعك الزنجبيل على الأقل ,لا يهم أنا سأمنحه لشهاب إنه الوحيد القادر على أكله .

جلس أبي على عرشه فاصطف الجميع جانبا ليقدم هديته و يشكره على الدعوة .

أول من تقدم كان حاكم شيبة ,وقف بجانبه أربعة رجال ,كلهم كانوا على قدر من القوة و الطول .

قال حاكم شيبة بينما يضع حراسه صندوقا خشبيا فاخرا أمام والدي :سررت جدا لمقابلتك بعد هذه المدة كلها ..كما ترى لقد كبرت في السن ..أما أنت فلم تتغير كثيرا ربما ظهرت لك بعض التجاعيد ليس أكثر لكنك لا تزال صلاح الدين الذي أعرفه .

ابتسم والدي و قال مازحا :لقد جعلت علماء قرطبة يصنعون لي دواء يمنعني من أن أكبر في السن كي أستطيع الحكم لأطول فترة ممكنة .

ضحك حاكم شيبة قائلا :هنيئا لك إذن .

ثم أشار الى أحد الرجال الأربعة ليفتح الصندوق و أضاف :لقد أحضرت أجمل الجواهر التي تفخر شيبة بامتلاكها هدية للأميرة هيرانة .. آمل أن تُعجبها و تصنع بها أجمل المجوهرات .

نظر إلي و ابتسم ثم قال :مع أن سمو الأميرة لا تحتاج أية مجوهرات لتتزيَّن بها فجمالها يكفي .

ضحك والدي و شكره على الهدية لكنه فكر بمثل ما فكرت به تماما و قال :لكن هذه الهدية غالية جدا يا عبد الملك كان من المناسب أكثر لو أحضرت شيئا متواضعا لهدية عيد ميلاد .

رد حاكم شيبة بكل ثقة :لا أبدا .. حين سمعت أن سمو الاميرة بلغت الثامنة عشر قلت أنه من المناسب إحضار هدية كهذه ..و إن بدت غالية جدا فلتعتبرها مهرها الذي نقدمه مقابل طلب يدها للزواج .

تفاجأ جميع من في القاعة و أكثرهم والدي ,لم نكن نتوقع ذلك أبدا ,لا أعتقد أن أبي سوف يمنحه موافقته هذا ليس قرارا سهلا يمكن اتخاذه ,نظرتُ نحو والدي الذي بدا مستغرقا في التفكير ,عليه الخروج من هذا دون أن يسيء للعلاقات بين القبيلتين .

أضاف حاكم شيبة :أعلم أنك لم ترى أيا من أولادي من قبل هذا لأنني أُرسلهم جميعا للخوض في المعارك و التدريب لدى أعظم المعلمين ..لكنني جمعتهم اليوم لتختار منهم من يكون الأنسب للزواج من ابنتك .

لم أستطع رفع رأسي و النظر اليهم ثانية بل وجهت نظري نحو والدي ,انتظرت بقلق موقفه من الطلب .

قال فجأة :اذن فهؤلاء هم أولادك الذين يُثني الجميع على قوتهم و شجاعتهم .

ضحك حاكم شيبة و قال :معك حق .. كما ترى لقد ربيتهم على أن يحملوا دماء القبيلة بفخر و أنْ يَنْذُروا حياتهم فداء لها .

نظر أبي إليهم بتمعن ثم سأل :لكنني أتذكر أنك تملك خمسة ذكور من الأولاد و انا لا أرى سوى أربعة منهم ..أين يكون خامسهم ؟

أجاب حاكم شيبة و علامات التوتر بادية على وجهه :اه يبدو أن ذاكرتك جيدة أيضا ..ابني الخامس مريض للأسف لذا لم يستطع الحضور ..إنه يُقدم اعتذاره مقدما لتخلفه عن الحفلة.

وقف أبي فجأة و نزل ليقف أمام حاكم شيبة مباشرة ثم قال :إن ابنتي ليست مثل باقي الأميرات يا عبد المُلك .. هل تعرف نيروبا ؟

أجاب حاكم شيبة :بالطبع إنها المحاربة العظيمة التي حكمت حِنْط قديما .

أضاف والدي :حسنا ابنتي ستكون محاربة أعظم و ستروي كتب التاريخ انتصاراتها ..لذا هل تعتقد أنها مناسبة لأحد أولادك ؟

بدا أن الأمر انتهى حين لم يضف حاكم شيبة شيئا إلا أن أحد أولاده تكلم فجأة و قال :إعذرني يا حضرة الملك على مداخلتي و لكني أثق في نفسي و أنا أكيد أن جميع إخوتي كذلك ..نحن نرى أنه من الأفضل إعطاءنا فرصة لنثبت أنفسنا أمامك .

تقدم أبي نحو المتحدث و نظر إليه جيدا و قال :تُعْجبني شجاعتك يا فتى و لكنها لا تكفي ..كيف تفكر في إثبات نفسك أمامي إذا ؟

لم يجب الفتى بشيء لكن أخاه تكلم بنبرة التحدي :لقد سمعنا أن الأميرة تجيد ركوب الخيل ..يمكننا أن نسابقها جميعا و إنْ فاز أحدنا كان هو الزوج المُختار ..أما إنْ فازت فاعتبر أننا لم نقدم طلبا كهذا أبدا و ستستمر علاقة الأخوة بين القبيلتين كما كانت .

نظر أبي نحوي و فكر أنه الوقت المناسب لطلب رأيي لذا سأل :ماذا تقولين أميرة هيرانة ..هل توافقين على تحديهم في سباق الخيل ؟

كنت سأجيب من دون تفكير لو كان بحر معي الآن فأنا لست متأكدة إنْ كنت سأفوز من دونه ,لم أملك خيارا آخر ,فرفضي سيضع أبي في موقف حرج و قبولي مع وجود احتمالية خسارتي يعتبر مجازفة لا أريد الخوض فيها .

لقد تمنيت لو أني لم أخرج من القصر أبدا ,هل كانت رغبتي في الشعور بالحرية أمرا صعبا لهذه الدرجة .

قلت دون أنْ أفكر أكثر :موافقة ..أنا أقبل التحدي .

التفت والدي مجددا نحو حاكم شيبة و قال :إذا لنمرح الليلة و غدا سيقام سباق الخيل الذي سيحدد جواب مطلبك يا عبد المُلك .

هز حاكم شيبة رأسه دلالة على رضاه ,بينما كان الجميع يتهامس و يتكلم عن رأيه في من سيكون الفائز , التفت فرأيت أن زوجة أبي الأولى تبدو مسرورة بما حدث ,إنها لا تصدق أنه من الممكن أن أغادر القصر و أترك المجال لها و لأولادها ,أظن أنها متحمسة للسباق أكثر من أمراء شيبة أنفسهم , ربما يكون عرض الزواج هذا واحدا من حيلها للتخلص مني خاصة و أنها قريبة من حاكم شيبة فهو الذي قام بإرسالها إلى والدي قبل سنوات ,لا أشعر أني بخير , ماذا لو خسرت السباق ,ستكون نهايتي عندها , لدي مهلة يوم واحد فقط لأجد بحر و أشارك معه .

وسط ضجيج الضيوف ,تسللت خارجاً لاستنشاق بعض الهواء و إلا كنت سأنفجر في تلك الحفلة ,جلست في حديقة القصر أحتسي عصير الرُمان و أنظر للنجوم ,توجد معتقدات لدى شعب السود تقول أن النجوم هي أعين أُمواتهم يُراقبونهم من السماء ,رغم كوني لا أؤمن بهذا إلا أنني تخيلت والدتي تنظر لي من خلال احدى نجوم هذه الليلة و تحاول أن تنير أكثر من الأخريات كي ألحظها ,آمل أنها في مكان أجمل بكثير من هنا ,في مكان لا يجعلها تشاق إلي كما أشتاق إليها الآن .

من بعيد لمحت شيئا يتحرك بجانب الشجرة فكرت أنه قد يكون ضفدعا أو بومة ,تقدمت بحذر باتجاهها و استجمعت شجاعتي لأقفز نحوها و إذا بي أجد نفسي أجلس فوق شخص ما ,وقفت مذعورة و قلت :من أنت ..ماذا تفعل في حديقة القصر ليلا إنْ لم تُرد أنْ أحضر الحراس ليبرحوك ضربا و يجعلوك تتكلم قم بتعريف نفسك الآن .

لم ينطق ذلك الغريب بكلمة لذا أمسكته و قمت بجره خارج ذلك الظلام ,رفعته من ياقة قميصه كي أرى وجهه بوضوح تحت ضوء القمر ,لم أصدق عيني حين رأيته , إنها المرة الثانية بالفعل ,ما الذي يفعله صاحب المرتبة الثانية في حديقة القصر ليلا ؟

لكنني سعيدة لرؤيته حقا فهو طرف الخيط الذي سيساعدني على ايجاد بحر و قد جاء هذه المرة بملء إرادته و أنا لا أنوي أن أتركه يضيع مني ثانية أبدا .

الفصل الثاني

هكذا علمتني أمي

في ليلة عاصفة ,ذات أمطار غزيرة تتساقط كالخيط المسترسل , وسط ظلام شديد ,يُضيء وهج البرق الطريق بين الفينة و الأخرى ,كانت قافلة حاكم شيبة متوجهة نحو قصر قبيلة عرب ليُسجل حضوره في اجتماع تاريخي هو الأول من نوعه بين قبيلتين دامت الحرب بينهما قرونا من الزمن .

فجأة توقفت القافلة حين سمع أصحابها صراخا قادما من عربة الملكة نَسِيبة , ترجل الحاكم عن خيله و ركض مسرعا ليتفقدها ,فتح باب العربة و إذا به يراها تمسك ببطنها المنتفخ ,نظرت نحوه و صرخت : سوف ألد يا عبد المُلك ..الطفل قادم .

ذُعر الحاكم فهو أمر لم يتوقع حدوثه الآن فلا يزال الوقت مبكرا على الولادة ,صاح مناديا على مرافقات الملكة :تعالين بسرعة و ساعدن الملكة .

ركضت المرافقات نحو عربة الملكة و دخلت واحدة منهن بينما توجهت الباقيات لإحضار الماء الساخن و بعض المستلزمات لقدوم الطفل .

تعالت صرخات الملكة وسط صمت الجميع و انتظارهم بقلق , و بعد فترة قصيرة توقف صراخ الملكة و اندلع صراخ طفل صغير معلنا ولادة فرد جديد في عائلة حاكم شيبة , وقف الأشقاء أمام العربة و معهم والدهم متلهفين لرؤية الوجه الجديد , و بعد دقائق من الانتظار خرجت احدى المرافقات من العربة و هي تحمل بين يديها الرضيع ,تقدم الملك نحوها و أشار عليها أن تسمح له بحمله بين يديه , كما تقدم اخوته و التفوا حوله ليروه .

قال أحدهم مُعلقا :انه هزيل جدا كيف يكون أخانا ؟

لكمه أحد إخوته على بطنه قائلا :أيها الغبي هذا لأنه وُلد مبكرا .

سأل محب التعليق :هل هذا يعني أننا وُلدنا متأخرين ؟

رد عليه شقيقه :لا أحد منا وُلد متأخرا عداك يا سلامة .

حين سئِم الحاكم من حديثهم تقدم و صعد عربة الملكة و جلس يُقابلها ,نظرت إليه بوجه مرهق و حزين ثم سألت متوسلة :أرجوك يا عبد المُلك ..أخبرني أنه فتاة .

أجاب الحاكم متجاهلا رجاءها :مبروك لك يا ابنة مِلحان أنت أم لخمسة رجال الآن سوف تحسدك نساء القبائل الأخرى .

أشاحت الملكة وجهها بعيدا و ذرفت دموعا أكثر ملوحة من مياه البحر ,كان الملك يشعر بألمها هو الآخر فحتى مع تفضيله للذكور كان يتمنى هذه المرة أن يرزق بابنة جميلة ,نزل من العربة و قد شعر أن هذه الدقائق القصيرة قد أضافت سنوات إلى عمره ,الآن هو يعي أنه لن يرزق بابنة أبدا و عليه تقبل الأمر .

وقف أمام أولاده الأربعة و ناداهم من أكبرهم حتى أصغرهم :طهران ..عبد الله ..حُسين ..سَلامة .. عدوني جميعا أن تعتنوا بأخيكم الصغير .. ستعلمونه ما علمتكم و تحمونه كما تحمون أنفسكم ..لقد كبرت في السن و هذا يجعلني قلقا طوال الوقت حول مستقبل القبيلة ..و الآن أنا قلق حول شقيقكم هذا لكن حين أنظر إليكم اتذكر أني لست وحيدا أنا أملك أربعة أسود يحمون ظهري لذا ليس علي القلق بعد الآن .

تكلم الشقيق الأكبر قائلا :أنا طهران ابن عبد المُلك الأشعث النصري أعدك يا والدي أني سأحمي جميع سكان القبيلة بمن فيهم شقيقي الأصغر كما أحمي نفسي تماما ..أنا أعدك أني سأكون كما أردتني و لن أخيب ظنك أبدا و لن أفشل مادام إخوتي بجانبي ..أليس كذلك يا رجال ؟

تقدم الاخوة و صرخوا في وقت واحد :الواحد للكل و الكل للواحد .

هذا كان شعار قبيلة شيبة منذ تأسيسها ,و هو كان من الأسباب الرئيسية لازدهارها و تضاعف قوتها .

ابتسم الحاكم و هز رأسه بفخر ,في حين سأل سلامة أمرا غاب عن بالهم للحظة :لكن أبي أنت لم تطلق اسما على أخي الصغير بعد .

أفاق الحاكم من أفكاره و نظر للرضيع ثم قال :حسنا ..ماذا عن عبد الله ؟

صرخ عبد الله مندهشا :أبي أنا عبد الله هذا إسمي .

ضحك الاخوة على أخيهم بينما فكر طهران ثم تقدم و قال للحاكم :أبي لما لا يكون اسمه عبيدة تيمنا بالقائد العسكري لقبيلة شيبة قديما .

التفت الاخوة الى طهران و تجمعوا حوله مندهشين ,تكلم أحدهم :طهران ماذا بك هل نسيت أنه كان خائنا و مات الكثيرون بسببه .

نظر طهران إليهم و لم يبدو عليه الندم أبدا ,كان يعلم من يكون عبيدة البدري جيدا لكن مع ذلك ذكر إسمه للحاكم .

أجاب الحاكم موافقا :حسنا ليكن عبيدة ..لربما يرث عنه مهاراته في القتال و ذكاءه في التكتيك العسكري .

همس الحاكم في أذن الرضيع :انت اسمك عبيدة ..عبيدة بن عبد المُلك .

تقدمت المرافقة و أخذت الرضيع الى عربة والدته بينما عاد الباقون إلى خيولهم لتستطيع القافلة استكمال طريقها فلا يزال أمامها الكثير لتصل إلى عُرب ,حين بدؤوا في السير كانت العاصفة قد هدأت و الأمطار توقفت و صار الطريق أكثر وضوحا عن ذي قبل .

هذه كانت قصة ولادتي التي روتها لي المرافقات ,أعترف أنها لم تكن مؤثرة كثيرا رغم أنها حصلت في ظروف صعبة إلا أنني أفتخر بأنني ولدت في يوم عقد لقاء لم الشمل ,اليوم الذي تحتفل جميع القبائل فيه بمناسبة حلول السلام .

لكن كان هناك ثلاثة أشياء أزعجتني في القصة ,أولا حزن أمي لمعرفة أنني ولدت ولدا و ليس فتاة كما كانت تتمنى ,أعتقد أن أمنيتها كادت تتحقق لكنها توقفت في المنتصف ,فأنا لم أكن مثل أخوتي فعلا ,فقد كبرت لأصبح رجلا ضعيف هزيلا ,قليل الشعر و وسيم الهيئة و هو بالطبع أمر غير مقبول تماما في شيبة ,فبسبب هيئتي الضعيفة و ملامحي كنت صيدا سهلا لإخوتي و للأطفال في مثل سني ,لم أستطع فرض احترامي مهما فعلت ,كنت أذكى إخوتي و أعلمهم لكن هذا لم يغير حقيقة أني أضعفهم ,حين أدخل في مبارزة معهم دائما ما ينتهي بي الأمر مكسور الساق أو اليد ,كانت والدتي تقول أن هذا بسبب ولادتي المبكرة و أن أولد ضعيفا أفضل من ألا أولد أبدا, كلماتها هذه شجعتني فرغم كل عيوبي تلك إلا أنها تفضلني على سائر إخوتي ,لقد كانت ترى في ما لا يمكنني رؤيته في نفسي , آمنة بي و أحبتني حين كرهني الجميع ,بمن فيهم والدي ,نظراته اتجاهي وحدها كافية لجعلي أتمنى لو أني لم أولد تلك الليلة , هو لم يكلمني يوما بفخر مثلما يكلم اخوتي ,لم يتحدث عني و عن نجاحاتي لأي من ضيوفنا من القبائل الأخرى ,حتى أنه لم يرسلني لأتدرب خارج القبيلة كما فعل مع الباقين ,كان الأمر محبطا جدا حين لم أتلقَ اي تشجيع منه ,لكن والدتي كانت موجودة دائما لدعمي و هي سبب استمراري حتى الآن .

من بين جميع الرياضات التي تمارس في القبيلة ,ركوب الخيل كانت الرياضة الوحيدة التي تميزت بها , كما أنني استطعت تعلم كيفية القتال بالخنجر و طورت أسلوبي الخاص في مهاجمة الخصم ,أنا سريع و خفيف مثل الريشة لكن أمي تناديني بعين ,إضافة إلى سرعتها و قوة عضلاتها فالعين البشرية هي من الأعضاء الأكثر تعقيدا بعد الدماغ ,و أمي تعتقد أني أشبهها و هذا ما يجعلني أذكر ثاني شيء أزعجني في قصة ولادتي ,إنه إسمي ,عبيدة يمكن أن يُقصد به حتى الشتم لدى قبيلة شيبة ,القبيلة التي أبناؤها يضحون بأنفسهم لأجلها إذا ناديت أحدهم بعبيدة كأنك تصفه بالخائن ,حيث كانت الخيانة جريمة لا تغتفر ,إلا أن أبي وجد أن الاسم يناسبني و سماني عبيدة ,لم يكن الامر بيدي لكنني تعرضت للسخرية بسبب اسمي هذا , لذا غيرته الى عين وطلبت من الجميع ان يناديني به حتى لا أكون موضع سخرية مجددا .

ثالث أمر أزعجني كان أكثرهم إزعاجا إنه وعد أخي طهران بحمايتي ,فلو عدت بالزمن وحضرت لحظة إلقاء وعده لأبي لانفجرت ضاحكا ,أنا في الحقيقة لا أحتاج طهران ليحميني من أي أحد يكفي أن يحميني من نفسه ,فمن بين جميع إخوتي المزعجين كان هو أسوأهم من جميع النواحي .

كيف لا يكون كذلك و هو الوحيد الذي يكسر عظامي عندما أنازله ,كيف لا يكون أسوأهم و هو من يظل يناديني عبيدة أمام الجميع كي أصبح عرضة للسخرية ,كيف لا أبغضه و هو الذي عارض ذهابي للتدريب خارج القبيلة بحجة كوني ضعيف البنية و سوف أتعرض للقتل ,موقفه اتجاه القرار جعل أبي يمزق أمر تجنيدي ,فهو يظل الأخ الأكبر و أبي يراه المثل الأعلى لنا جميعا ,أمر مقزز أن يكون ذلك الشخص مثالا لنا ,لقد كنت أخجل حتى من أن أناديه بأخي .

كان أكثرنا قسوة و خشونة ,في نظره ,الرجل الحقيقي يجب أنْ ينزع من قلبه شعور الشفقة و الرحمة و إلا صار عبدا لمشاعره مثل النساء ,لا أعلم إن كان وُلد هكذا أو أنه أصبح كذلك مع الوقت ,حتى حين أسأل أمي عنه كانت تتجنب الإجابة ,لم أكن أضغط عليها لأن ملامح الحزن و القهر التي ترتسم في وجهها عند ذكر اسمه توضح كل شيء .

لم يكن لي اصدقاء في صغري لأن الجميع ظن أنني غريب أطوار ,لكنني كبرت و آمنت بأمر ما , الاختلاف ليس عيبا بل العيب هو أنْ تظن أنَّ الاختلاف عيب .

مرت الأيام و أنا أتدرب بخنجري و أركب الخيل ,أعيش في شيبة دون افتعال المشاكل و كانت سنوات تشبه بعضها ,أعيش و أنتظر اليوم الذي سيعتبرني أبي واحدا من أبنائه و يُرسلني خارج القبيلة لأتدرب عند معلم كفء ,إلى أنْ جاء هذا اليوم أخيرا .

في صباح يوم صيفي مشمس ,بينما أحاول إيجاد حركات جديدة لمهاجمة الخصم بالخنجر ,تقدم نحوي أحد الحراس و قال بالحرف الواحد :سموك لقد تم استدعاؤك إلى غرفة الاجتماع .

طلبت منه ان يكرر ما قاله فأنا ظننتُني قد سمعته خطأ ,حين أعاد كلامه تيقنت أنني لست أحلم ,أنا لم يسبق لي حضور اجتماعات والدي مع إخوتي من قبل ,كنت أنتظر القرارات حالي حال موظفي القصر حين تُعَلق على حائط الحديقة المخصص للمناشير المهمة والغير مهمة .

ذهبت ركضا نحو غرفة الاجتماع فأنا انتظرت هذه اللحظة بفارغ الصبر ,اللحظة التي يتم استدعائي فيها لأمر مهم جدا جدا جدا ,أردت المرور على الملكة لأوصل لها الخبر السار لكنني لا اريد ان اتأخر عن أول اجتماع لي .

حين وصلت طرقت الباب و دخلت ,كان المنظر جميلا كما تخيلته ,وجدت جميع إخوتي يقفون حول طاولة خشبية مستديرة ذات ساق واحدة في المنتصف .

بدى الجو المخيم على الغرفة جديا لذا تقدمت بخطوات ثابتة محاولا إخفاء حماسي و سعادتي المفرطة , كنت أقف على الجانب المقابل لوالدي و هذا جعلني متوترا أكثر ,لم أستطع حتى النظر في عينيه مباشرة .

قال الحاكم و هو يفرش خريطة على الطاولة :هذه تكون الخريطة الوحيدة من نوعها لقبيلة شيبة الحالية .

تقدم جميع إخوتي لينظروا عن كثب للخريطة بينما استمررت في الوقوف بعيدا ,نظر أبي نحوي و أشار لي بالاقتراب , امتثالا لذلك تقدمت خطوتين لا أكثر كي لا أبدو بعيدا جدا حينها شرع أبي في شرح سبب اجتماعنا قائلا :لدي أخبار سارة و أخبار سيئة بماذا تريدون أن نبدأ ؟

بقي إخوتي صامتين فقلت في نفسي ربما يكون الأمر غير مهم بالنسبة إليهم , لذا قمت بالاختيار بدلا عنهم قائلا :لنبدأ بالأخبار السيئة .

بعد قولي ذاك التفت الجميع نحوي و نظروا الي كمن ارتكب جريمة ما ,هذا أول اجتماع لي لذا لم أعلم ما الخطب بالضبط ,هل كان علي الصمت و ترك الحاكم يقرر بأي الخبرين سيبدأ أم ماذا ؟

تكلم أبي أخيرا :حسنا إذا لنبدأ بالخبر السيئ ..للأسف يا أبنائي نحن نتعرض للهجوم .

تفاجأنا جميعا لدى سماعنا للأخبار السيئة فلا أحد منا كان يملك فكرة عن الأمر ,حتى انه أمر صعب التصديق فعلاقاتنا السياسية و الاقتصادية جيدة جدا مع الجميع فمن عساه سيجرؤ و يعلن الحرب علينا .

تابع قائلا :إنهم شعب البابالون يريدون شن حرب على القبيلة .

كان شعب البابالون الوحيد الذي يُكِّن العداوة لنا فبرأيهم نحن قبيلة تضطهد النساء ,أما بالنسبة لنا فهم شعب يضطهد الرجال ,لا نعرف الكثير عنهم فالحصول على المعلومات حول شعب معين هو أمر صعب جدا ما لم تكن لك علاقات معه أو جواسيس يعيشون داخله ,كل ما نعرفه أنهم شعب يتكون من جنس النساء فقط ,لهن أجنحة مثل أجنحة الفراشات لكن بحجم أكبر ,لا نعلم كيف يتكاثرن أو حتى كيف وُجدن من الأساس .

أتذكر منذ عام مضى أول حادثة جعلت العلاقات بيننا تتوتر ,إحدى نساء شيبة اخترقت الحدود و هربت إلى شعب البابالون ,لكن زوجها أراد استرجاعها و عقابها حسب قانون القبيلة و هو الإعدام بالطبع ,لذا رفع شكوى و جعل أبي يُرسل رجالنا للتفاوض معهم ليسلموها لنا إلا أن جميع محاولاتنا باءت بالفشل , فقد رفضوا تماما فكرة تسليمها و قالوا أنها سوف تعيش معهم بكرامة من الآن فصاعدا بعيدا عن قوانيننا الظالمة .

جن جنون أبي لما سمعه و أراد حشد الجيش و الذهاب لقتالهن لكن أمي الملكة اعترضت و أخبرته أننا سوف نخسر أكثر لو أعلن عليهن الحرب و من الأذكى التغاضي عن الأمر خاصة أننا لا نعرف عنهن الكثير ,و خسارة امرأة واحدة أحسن من خسارة الآلاف من الجنود ,أقنعت أبي بشكل ما للعدول عن قراره و لكن لا اظن ان شعب أو الأصح نساء البابالون قد اكتفين بتحرير امرأة واحدة , يبدو أنهن يُردن جعل كل نساء شيبة مثلهن .

كيف يعتقدن أن النساء بمثل منزلة الرجال ,مذ كنت طفلا لم أرى امرأة واحدة تجيد القتال أو تمارس أي رياضة معينة ,ماذا عن السياسة هل تعرفن أي شيء عنها ,طيلة عشرين سنة التي عشتها لم أرى امرأة في شيبة تترأس منصبا مهما عدى أن تكون زوجة رجل ذو منصب مهم ,حتى انه متى تتزوج تصبح النساء تنادينها بمنصب زوجها ,مثل زوجة وزير الدفاع أو زوجة أستاذ التاريخ القديم و غيرها من الأسماء التي تتنوع بتنوع المناصب التي يشغلها الرجال عادة.

لقد كبرت لأرى النساء في المطبخ و في ورشات التطريز ,لم أرى منهن من تهتم بشيء عدى هذين الأمرين ,أمي كانت استثناء لأنها لم تكن من شيبة و لكنها مع الوقت فهمت هي أيضا أن وظيفتها الأساسية كانت دعم الحاكم و منحه رأيها في بعض الأمور .

قال طهران كاسرا حاجز الصمت الذي خيم علينا :لا تقلق يا أبي شعب القبيلة سوف يتصدى للهجوم يمكننا هزيمتهم .

رد أبي :هنا تكمن الأخبار السيئة ..لقد وردني من حراسنا في الحدود أنهم يفوقوننا عددا بكثير و إن دخلنا معهم في حرب سوف نهزم دون أدنى شك .

قال عبد الله :لما لا نطلب الدعم من القبائل الأخرى سوف نتغلب عليهم عدة و عددا .

أجاب أبي :إن جنود البابالون يتقدمون بسرعة و بينما تحشد القبائل جيشها و ترسله إلى شيبة سيكونون قد وصلوا بالفعل وقضوا علينا .

قال طهران :معك حق ..لكن ماذا عن قرطبة إن جيشها هو الأقوى بين جيوش القبائل الخمس و هي الأقرب إلينا أيضا ..جيشها سيصل في الوقت المناسب لدعمنا في حربنا ضد البابالون .

نظر أبي نحونا بحزن وقال :أنا أعرف قوانين قرطبة جيدا هم لن يرسلوا جيوشهم لحرب لا تعنيهم حفاظا على أبنائهم .

سأل سلامة سؤال غبيا كالمعتاد :أتقصد أنهم لن يساعدونا إن طلبنا الدعم ؟

أنزل جميع إخوتي رؤوسهم ليفكروا في حل ,بعد سماع الأخبار السيئة نسي الجميع أنه توجد اخبار سارة لذا سألت :ماذا عن الأخبار السارة ؟

نظر الجميع نحوي كأنني فعلت أمرا خاطئا مجددا ,لذا أضفت هذه المرة :قُلتَ إن هناك أخبارا سيئة و أخرى جيدة ..ماذا عن الجيدة ؟

نظر أبي نحو إخوتي و قال :ليست سارّة فعلا و لكنها تمنحنا أملا ..لقد تلقيت دعوة اليوم لحضور حفلة عيد الميلاد الثامن عشر لأميرة قرطبة لذا فكرت أنها فرصة للقاء الحاكم و طلب الدعم.

قال طهران بعد تفكير عميق :هذا لا يكفي علينا جعل هذه الفرصة أكبر ..أبي ..لما لا نتقدم لطلب يد الأميرة ؟

دُهشنا جميعا لاقتراح طهران ,لكن بعد التفكير في الأمر بدا انه الحل الوحيد الذي لدينا ,فالزواج السياسي يمكن أن يجعلنا مقربين كفاية لقبيلة قُرطبة و هذا سيجعلها مجبرة على منحنا الدعم السياسي و العسكري كما حدث معها و مع قبيلة عُرب .

أجاب والدي على اقتراح طهران قائلا :حسنا أنا لم أفكر في الأمر و لكن لست متأكدا أن الحاكم سوف يوافق على تزويج ابنته بسهولة .

تراجع طهران خطوتين إلى الوراء ثم قام بحركة الوفاء الخاصة بقبيلتنا ,إنها ترمز لشعارنا أيضا ,يقوم أخي بجعل راحتي يديه متقابلتين ثم يقرب أصابعه الثلاثة الوسطى كأنه يشكل مثلثا ثم يوجهها إلى الأمام و هو يقول :سمو الحاكم ..أنا أعدك أننا لن نخذل القبيلة ..سأجد طريقة لجعله يوافق كل ما عليك هو طلب يد الأميرة منه .

هز أبي رأسه موافقا و وضع يديه على كتفي طهران ثم قال :أنا أعتز بك يا بني ..لحسن الحظ أنك ولدت ..لحسن الحظ أنك إبني .

كم كنت بحاجة لسماع هذه الكلمات منه ,لقد ظننت أنه لا يستطيع لفظها لكنه قالها لطهران بسهولة قبل حتى أن ينفذ وعده ,إن كانت الكلمات لوحدها تجعل أبي فخورا فسوف أجعله فخورا أكثر بأفعالي .

في اليوم التالي كنا قد حزمنا أمتعتنا متجهين نحو قرطبة ,الرحلة ستأخذ منا أياما لذا أرجو أن يكون وقتا كافيا ليفكر طهران بطريقة لإقناع الحاكم .

عند وصولنا إلى قرطبة قرر أبي المكوث في نُزل قديم يقع بالقرب من القصر ,فقط ليرتاح قليلا من تعب السفر كي يكون بكامل نشاطه الليلة في الحفل .

أما نحن ,فقد اجتمعنا في مقهى يقع في سوق قرطبة ,كان علينا مناقشة الخطة التي فكر بها طهران .

بعدما وضع الرجل القرطبي الشاي الذي طلبناه تكلم طهران :اسمعوا ..حسب ما سمعت فالأميرة من محبي رياضة ركوب الخيل لذا أعتقد أنها لن تفوت سباق الخيل الذي سينظم اليوم.

سأل سلامة :هل ستكون من المتفرجين أم من المشاركين ؟

رد عليه طهران :حسنا أنا لا أعلم .

سأل حسين :إذن كيف سنميزها من بين كل ذلك الحشد لا أظن انها ستسير مع موكب و حرس ؟

أجاب طهران :لن تفعل إذا أرادت عدم كشف أمرها .. فالأسرة الحاكمة ممنوعة من حضور مثل هذه الفعاليات التي يقيمها الشعب بينهم .

لم أفهم الخطة بعد لكنني لم أرد سؤال طهران عن التفاصيل , اقتربت و همست لسلامة :ما هو المطلوب منا إذا ؟

سأل سلامة :ما هو المطلوب منا إذا ؟

نظر طهران نحوي و أجاب :هناك أمران مهمان عليكم معرفتهما عن الأميرة ..أولا أنها ماهرة جدا في ركوب الخيل و من المحتمل أنها أحسن منا .

ضحك سلامة مستهزئا و لا يمكن لومه فكلنا لم نرى في حياتنا امرأة واحدة جيدة في ركوب الخيل و كيف أن تكون أحسن منا ,نهض طهران عن مقعده بهدوء و رفع كوب الشاي الساخن ثم أراقه فوق رأس سلامة دون أي تردد , وسط صراخ سلامة ابتلع الجميع لسانه و أنزل عينيه كي لا تتقابل مع عيني طهران و هو في هذه الحالة ,انه وحش لا يمكن التنبؤ بأفعاله .نهض سلامة من مقعده و ركض مسرعا نحو النافورة الواقعة وسط السوق ليدخل رأسه فيها لربما ستخفف عنه قليلا .

رفع طهران احد الكراسي ثم رماه نحونا بغضب , استطعنا تفادي الكرسي الطائر ولكن ماذا عن نوبة طهران هذه كيف سنتفاداها , وضع يديه على الطاولة و صرخ بغضب و عيناه لا تبشران بالخير :هل تعتقدون أننا نمزح هنا ..قبيلتنا في خطر و أنتم لا يزال عندكم مزاج للضحك .

قال عبد الله :نحن آسفون لم نقصد ..نحن فقط متعبون من السفر و ..

قاطعه طهران و هو لا يزال يشتعل غضبا :آسفون ..متعبون ..لا تعطوا أعذارا لضعفكم و غبائكم ..لو كنتم جيدين كفاية لما أجبرت على وضع خطة من الأساس .

قال حسين :إذن ما هو الأمر الثاني الذي علينا أن نعلمه ؟

أجاب طهران بعدما هدأ :سمعت أن لديها خيلا مميزا ..لقد بحثت بخصوصه مع التجار هنا ..قالوا أنه من عُرب و هو خيل من سلالة نادرة و سريع جدا ..أنا أريد أن أتحداها في سباق الخيل لأكسب ثقة الحاكم لكن ذلك الخيل يصعّب المهمة .

قلت بعدما فهمت مقصده :تريد سرقة خيلها كي تهزمها ؟

بدى السؤال مستفزا بعض الشيء لكنني لم أستطع استيعاب الأمر ,فنحن لا نقوم بأمر سيء حتى لو كنا مجبرين .

ابتسم طهران و أجاب :إن كانت توجد طريقة أخرى فتفضل أخبرنا بها نحن نستمع .

أنزلت رأسي و قلت بخوف :ربما يمكنني هزيمتها .

ضحك طهران وقال مستهزئا :ربما ؟ لا تبدو واثقا جدا و انت تقولها .

رفعت رأسي بثقة و نظرت إليه مباشرة و حاولت الكلام دون ان يهتز صوتي فقد كنت خائفا :إمنحني فرصة ..كل ما علينا هو استدراجها للمشاركة أنا سوف أشارك أيضا و إذا فزت هذا يعني أني قادرا على هزيمتا مجددا في سباقنا معها .

قال طهران كأنه يريد عقد اتفاق معي :و إذا خسِرت هل ستساعدنا على سرقة خيلها ؟

أجبته بصعوبة :أجل ..إذا خسِرت سيكون علينا سرقته منها .

سأل طهران مجددا :إذا خسرت فأنت لن تشارك في سباقنا معها لن تريها وجهك أبدا و ستقول لوالدي أنك تناولت شيئا سيئا لذا لن تستطيع التواجد معنا ..مفهوم ؟

نظر إخوتي نحوي بحزن ,أظنهم يشفقون علي ,لكن بالنسبة لي فقد تعودت على معاملته القاسية , أجبت :أجل فهمت .

لكن و لسبب ما أنا لم أستطع ,حاولت الفوز لكنني لم أستطع , ساعدتهم على سرقة الخيل لكنني لم أستطع ,وعدت ألا أدعها ترى وجهي مجددا و لكنني لم أستطع ,كيف لم أستطع ,و كيف أستطيع رؤيتها تبكي الآن بسبب ما فعلناه و لا أحرك ساكنا ,هذه ليست أخلاق رجال شيبة نحن لا نجعل النساء تبكي ,ليس هذا ما ربتني عليه أمي .

كان علينا أن نجد حلا غيره أو على الأقل ,نكون رجالا كفاية لتقبل الخسارة ضد امرأة .

بدى أنها سُرَّت لرؤيتي ,فقد ابتسمت رغم الدموع التي لا تزال عالقة في عينيها ,قالت :أنت ..أين أخذت خيلي ؟

كان صوتها يائسا ,ليس هو نفسه الذي حدثتني به عند وقوفنا لاستلام الميداليات ,أعتقد أن الخيل يعني لها الكثير ,فقد فقدت ثقتها بدونه .

سألتُ مجددا :أين أخذتموه ؟

نظرتُ بعيدا متفاديا نظراتها فتابعتْ :إن كنتم تريدون المال سوف أمنحكم أضعاف ثمنه الأصلي ..أنا أعد أني لن أسبب لكم أية مشاكل فقط أعيدوه إلي ..أنا أعدكم بشرف قبيلة قُرطبة ..لن يمسكم أي أذى طالما أعدتموه لي قبل مساء غد .

لم يكن بوسعي قول أي شيء و لا أريد أن أُكشف أيضا لذا الحل الوحيد كان الهرب , حين التفتت اثر سماعها صوت شخص قادم استطعت الهرب من بين يديها و اختفيت حول الأشجار مجددا ,بقيتُ أراقبها و قد بدأت في بالبكاء مجددا ,في تلك اللحظة قررت مساعدتها .

تسللت إلى غرفتها ليلا بينما كانت نائمة و علقت في أعلى سريرها رسالة لتراها لحظة استيقاظها ,قلت فيها أن عليها الذهاب غدا إلى السوق بدون مرافقة إن أرادت استرجاع خيلها .آمل أن تلتزم بالشرط و لا تحضر معها أي أحد ,ليس علي الوثوق بها و لكن إن وثقت هي بي و أتت فأنا سوف أثق بها بدوري .

غدا خرجت مبكرا من النزل دون إثارة انتباه طهران و ذهبت للسوق للبحث عنها ,بعد بحث طويلا رأيتها تخرج من محل لبيع الأقمشة ,تتبعتها بينما تسير في أرجاء السوق و حين دخلت بين المباني كانت فرصتي للقائها .نزلتُ من على السطح لأقف أمامها مباشرة ,لم تبدي أي رد فعل على ظهوري المفاجئ ,أظنها كانت تنتظرني ,قلت بدون مقدمات :اتبعيني .

سِرتُ أمامها بخطوات بطيئة لتستطيع اللحاق بي ,و كنت ألتفت كل دقيقتين لأتأكد أنه لم يتبعنا أحد ,بينما ظلت هي تلتزم الصمت و توجه عينيها نحو الأرض .كنت أريد دخول عقلها لأعلم ما تفكر به الآن ,لم تكن مسرورة كما تخيلها ,غريب أمرها ,ظننت أنها سوف تستعجلني للقائه ,فبعد بكائها البارحة هل تحاول أن تبدو قوية الآن .

حين وصلنا إلى الإسطبل الذي نخبئه فيه فتحت الباب و قلت :إنه هنا ..لا تقلقي نحن لم نؤذه أبدا .

حين استدرت لأرى وجهها تفاجأت بحراس يحملون سيوفا يتقدمون نحوي ,علمت عندها أنها خدعتني كان علي اكتشاف الأمر فقد كانت مريبة ,لم يكن علي الوثوق بها , ندمت على ذلك .

ركض أحد الحراس و هاجمني ,تفاديت سيفه لكن حارسا آخر هجم علي من الجهة الأخرى ,تراجعت إلى الوراء بسرعة كي أتفاداه هو الآخر ,نظرت حولي لكني لم أجد مخرجا أبدا ,فجأة نزعت الأميرة عباءتها و أخذت سيفا من يد أحد الحراس و ركضت نحوي لتهاجمني ,كانت سريعة جدا و حاولت بشدة تفاديها ,لكنها استطاعت إيقاعي أرضا ,و قبل أن أمسك خنجري أخذته مني ورمته بعيدا ثم وضعت سيفها بالقرب من عنقي و قالت :استسلم لقد هزمت .

تقدم الحراس و امسكوا بي ,رفعوني و قاموا بتقييدي ,كنت غاضبا جدا ,لقد جازفت بحياتي و قمت بخيانة اخوتي لمساعدتها لكنها في المقابل قامت بتقييدي ,أظنها تظنني صيدا سهلا ,أنا سوف أنتقم منها .

جرني الحراس الى سجن القصر و وضعوني في احدى الزنزانات ,تخيلت وجه أبي و هو ينظر لي بعدما خيبت ظنه كعادتي ,كل ما أردته حقا كان جعله فخورا ,و لكن الآن سوف أصبح ندمه الأكبر في الحياة .

بعد مرور بعض الوقت ,فُتح باب زنزانتي و دخلت الأميرة و هي تمسك كيسا كبيرا بإحدى يديها و بالأخرى كانت تمسك خنجري الذي أخذته مني في الاسطبل .

وضعتْ الكيس و الخنجر أمامي و قالت :هذه النقود ستكون بديلا عن الخيل ..سوف أترك باب الزنزانة مفتوحا بعد خروجي ..بمهاراتك في التسلل يمكنك الهرب بسهولة من الحراس ..خذ النقود و لا اريد رؤية وجهك ثانية .

يبدو أنها ظنت أني ساعدتها من أجل النقود ,هل سيكون ضميرها مرتاحا الآن هل تظن أنها وفت بوعدها هكذا .

لم أتحمل أكثر ,وقفت و أمسكتها لأمنعها من الرحيل ببساطة ثم قلت :لقد أخبرتك ألا تحضري أحدا .. هل جميع أفراد الأسرة الحاكمة ليسوا موضعا للثقة مثلك ؟

أجابت و هي تبعد يدِي عنها :لم أرى أحمقا مثلك في حياتي ..هل كنت تظن حقا أني لن أحضر الدعم معي ..كيف أثق بك من الأساس و قد سرقت خيلي .

قلتُ بيأس :لكنني وثقت بك .

ضحكتْ باستهزاء و أجابت :إنه خطؤك إذا ..لا تلمني على ذلك .

بعدما فقدت الأمل عدت لأجلس خائبا ,أنا أظن أن الزنزانة هنا ستكون أهون من مواجهة والدي ,قلت لها :أغلقي الزنزانة و أنت تغادرين و خذي النقود معك فأنا لا أريدها .

بدت علامات الحيرة في وجهها ,تقدمت نحوي و قالت :إذا ما الذي تريده ؟

لم أكن أملك شيئا لأخسره لذا قلت :سوف أخبرك بكل شيء لكن عديني أن يبقى هذا سرا بيننا .

سألت بدهشة :آلا تزال تريد أن تثق بي ؟

قلت بعد أن تنفست عميقا :ماذا أفعل ..هذه طبيعتي .

جلست الأميرة على ركبتيها و قالت :حسنا أعدك ..بشرف قرطبة .

ابتسمتُ و سألتها :ألا تزالين تريدين منحي وعدك ؟

أجابت :ماذا أفعل ..هذه طبيعتي .

اعتقد انها ليست سيئة لتلك الدرجة ,و لدي شعور أنها ستفي بوعدها هذه المرة لذا شرعت أشرح لها سبب سرقة خيلها و من وراء ذلك و لماذا ,تفهمت الموقف جيدا لكنها قالت أن عليها التفكير أكثر لإيجاد حل و ستعود إلي لاحقا لإخباري به ,غادرت الزنزانة و أنا بقيت أصلي أن تسير الأمور على خير و إلا سوف أصبح منبوذا إلى الأبد من قبيلتي .

استلقيت لآخذ قسطا من الراحة كما أن النوم هو الطريقة الوحيدة لجعل الوقت يمضي ,فجأة سمعت صوت باب الزنزانة ,استيقظت مذعورا فقد كنت أحلم أنني أقف على منصة الإعدام حيث يقوم طهران بلف الحبل حول عنقي ثم يقوم بدفع الصندوق الذي أقف عليه ,كان الأمر مخيفا جدا ,نظرت حولي فوجدت الأميرة تقف أمامي ,قلت دون تفكير :كم الوقت الآن ..هل انتهى السباق ؟

قالت و هي ترمي بعض الملابس نحوي :لا تقلق إنه لم يبدأ بعد ..سوف يقام قبل غروب الشمس .

_ هل وجدت حلا ..هل ستطلبين من والدك دعم قبيلتنا في الحرب ؟

أجابت :أبي لن يوافق حتى لو طلبت منه ذلك فدخول حرب ما ليس بالأمر السهل ..سوف تكلفنا الكثير ..لكنني سأساعدك في كسب ثقة والدك مجددا .

قلت متسائلا :كيف ذلك ؟

_حسنا سوف تشارك في السباق الليلة ..و أنا سأدعك تفوز .

_هل تعتقدين أنهم سوف يصدقون لقد رأوني أخسر أمامك من قبل ؟

_لا تقلق ثق بي لن أدعهم يشكون بشيء .

_و ماذا بعد ..هل سوف نتزوج بعد فوزي ؟

أظنها لم تتوقع سؤالي لذا دفعتني بعيدا و هي تقول : مستحيل ..في أحلامك يا ابن شيبة .

قالت أنها سوف تخسر طواعية ضدي و الآن تلومني على سؤالي ,أنا لم أفهم بعد إن كانت تريد مساعدتي أو جري نحو حبل المشنقة ,ماذا لو كان كابوسي هو رؤيا لمستقبلي المحتوم ,إنها حقا لا تبدو جديرة بالثقة أبدا .

تابعت بعدما أدركتْ أني لن أقاطعها مجددا :أنصتْ جيدا ..سوف أدعك تفوز لأنقذك ليس إلا ...ثم أنت ستساعدني لإلغاء الزواج ..و سيكون ذلك بعد أن يقرر والدي إن كان سيساعدكم أم لا ..هل فهمت الآن ؟

بدت خطتها منطقية و بسيطة جدا ,لكن لا أعلم إن كانت الأمور ستسير لصالحنا ,فمازال علي الفوز عليها ,لم أشعر بهذا القدر من التوتر في سباقنا الأول ,الآن و أنا أعلم أني سأفوز أشعر كأنني سوف أخسر ,أمر غريب ,علي الخروج من هذه الزنزانة قبل أن أجن .

ارتديت ما أحضرته لي من ملابس بسرعة ,ثم خرجنا من هناك متفاديين الحرس ,قالت وهي تشير إلى مكان ما :هناك ..سوف يقام السباق هناك ..علي الذهاب الآن ..فلا يجب أن يرانا أحد سويا لمصلحتك .

حركت رأسي موافقا ,ثم افترقنا ,لم أعرف إلى أين أذهب الآن ,هل علي الذهاب إلى اخوتي أم أنتظر هنا ,لم أشعر بهذه الحيرة من قبل ,كنت خائفا ,و وحيدا .

***

أوشكت الشمس أن تغرب ,لذا أسرعت إلى المكان الذي أشارت إليه ,رأيت إخوتي من بعيد و هم يركبون خيولهم متجهين إلى خط البداية ,علامات التوتر و الحزن واضحة على وجوههم ,يبدو أنهم فقدوا الأمل في الفوز و إنقاذ القبيلة ,و كل هذا بسببي ,علي أن أفوز اليوم مهما كلف الأمر .

ذهبت إلى الإسطبل و أخرجت حصاني الذي أحضرته معي من شيبة ,ثم اتجهت لأقف بجانب اخوتي وسط نظراتهم التي تخلو من الرحمة ,لم أستطع النظر إلى طهران فهو سيكون أكثرهم شعورا بالغضب .

تقدم أحد حراس القصر و سألني عن هويتي ,نظرت إلى والدي الذي كان يقف بجانب حاكم قُرطبة و أجبت :أنا أكون الابن الخامس لحاكم شيبة ..أنا الأمير عين .

ركبنا جميعا خيولنا و انتظرنا وصول الأميرة ,لا أعلم لما تأخرتْ كل هذا ,ظهرتْ فجأة من بعيد و هي تركب خيلها الأبيض ,ربما تكون قد خدعتني لأخبرها بكل شيء و لكن لا يهم علي أن أكون رجلا و أتحمل مسؤولية قراراتي .

تقدمت بخيلها إلى خط البداية ,لم تنظر نحوي حتى ,أظنها مصممة على الفوز و جعلي محل سخرية الجميع .

ألقى حاكم قرطبة خطابا يذكرنا فيه لماذا نقوم بالسباق ,و وعد أن لا يخون الوعد بين القبيلتين و حين انتهى ,تقدم أحد الحراس براية القبائل الخمس و رفعها عاليا ,ثم صرخ و هو ينزلها سريعا :انطلقوا .

ركضت الخيول جميعها بأقصى سرعتها لكن كان واضحا قوة خيل الأميرة ,كان الأسرع بلا منازع , حاول أخي طهران تجاوز خيول إخوتي ليصل إلى الأميرة ,تجاوزت كذلك خيول إخوتي لأصل إليها قبله ,لكنها كانت في الصدارة و يليها طهران ,كنا قريبين لخط النهاية ,فضاعفت الأميرة من سرعتها , عندها قررت أن لا آبه باتفاقنا و أسعى للفوز دون الاعتماد عليها ,ضربت الحصان و لم أتوقف عن ذلك حتى بعدما تجاوزت خيل طهران كنت قريبا جدا من الأميرة ,و فجأة أبطأت من سرعتها ,التفت للخلف فوجدتها تنظر نحوي ,ابتسمتْ ثم افلتتْ حصانها لتقع على الأرض بقوة ,يا لها من فتاة مجنونة كيف استطاعت رمي نفسها هكذا كان من الممكن أن تتأذى و تصاب بجروح خطيرة يبدو أنها غبية تماما أو مجنونة فلا تفسير آخر لما فعلته ,هذه لم تكن شجاعة بل حماقة .

كنت في المرتبة الأولى و بدى فوزي مؤكدا ,يبدو أنني سوف أجعل أبي فخورا بي لأول مرة ,لكن كيف لي أن أحلم بهذا و أخي طهران موجود ليفسد ذلك علي .بدون سابق انذار تقدم طهران إلى جانبي و قام بدفعي عن حصاني لأسقط على الأرض و أرتطم براية كانت موجودة لتحديد حدود المضمار .

لقد أحسست بدوار فظيع كان كل شيء يدور من حولي و لم أستطع تمييز صوت من ينادي باسمي حاليا , نظرت باتجاه خط النهاية و ركزت جيدا فرأيت طهران يعبره معلنا فوزه بالسباق .

غبت عن الوعي و لم أستطع تذكر أي شيء بعدها ,لا أعلم كيف وصلت الآن هنا ,تتقدم نحوي امرأة كبيرة في السن مرتدية فستانا أبيضا طويلا ذو أكمام ,و تضع رباط رأس أبيض ,من ملابسها استطعت معرفة أنها حكيمة ,هل أنا في البيمارستان ؟

سألتْ بقلق :هل أنت بخير ..هل تستطيع سماعي ؟

أجبت بصعوبة :أجل ..أستطيع سماعك ...كم الوقت الآن ؟

قالت إنه الصباح ,ثم تذمرت من سهرها طول الليل لتعتني بي بسبب الحمى التي أصابتني .

حاولت النهوض فآلمني رأسي بشدة ,أمسكته فلاحظت وجود عصابة مربوطة في رأسي ,أظن أني أصبته حين سقطت عن الخيل ,تذكرت أمر السباق فسألت بسرعة :ماذا حصل بالسباق ؟

أجابت و هي تحضر صينية طعام لتضعها فوق سريري :تناول طعامك أولا ..لكن لا تقلق أنتم لم تخسروا ..لا أدري كيف حصل هذا فقد كنا جميعا واثقين بفوز الأميرة ..غريب أليس كذلك ..يبدو أنه قدرها أن تتزوج زواجا سياسيا كما حصل مع أمها من قبل .

نظرت إلى الحساء الموضوع أمامي ,كنت أريد رميه بعيدا و الصراخ بأعلى صوت "الأميرة خسرت بسببي ..طهران أيها الوغد ..أنت لم تفز كما تظن ..أنت لست سوى وغد منتهز للفرص "

لكن ما الفائدة من الصراخ الآن ,علي الخروج من هنا و الذهاب إلى والدي ربما أستطيع إقناعه بمنع هذا الزواج .

نهضت من السرير مقاوما آلام رأسي و الحكيمة التي استمرت في إعادتي للسرير ,ارتديت حذائي و سرت متكئا على جدران الممرات حتى وصلت إلى الحديقة .

شاهدت من بعيد الأميرة و هي تجلس في مكانها المعتاد ,ربما هي تبكي مثل تلك المرة ,سرت خطوتين متجها نحوها و فجأة أمسكني شخصان من الخلف و وضعوا قماشة على فمي و سحبوني بعيدا .

أدخلوني غرفة ما و شرعوا بضربي ,لم أكن أملك أية طاقة لأقاوم ,لم أستطع الصراخ حتى ,فجأة دخل شخص ثالث الغرفة ,لم أستطع رفع رأسي للنظر اليه ,كل ما استطعت رؤيته كان قدميه و هما يسيران باتجاهي ,وقف أمامي و سأل الرجلين :هل رآكما أحد و أنتم تأخذونه؟

أجابه أحدهما :لا سموك ..كنا حذرين جدا .

كان صوته مألوفا جدا و بعد سماع سموك تأكدت شكوكي ,كان طهران هو الفاعل ,لا أعلم لما هو في عجلة من أمره ,ألا يستطيع الانتظار حتى تتم محاكمتي و اعدامي لخيانتي .

انحنى نحوي فرأيت وجهه السعيد ,كنت أعلم أنه وحش و يستمتع بتعذيب الآخرين ,لكن كرهه لي كان مختلفا و ابتسامته هذه دليل على ذلك .

سأل قائلا :هل تظن أني لم أكن أعرف أنك من سرق الخيل ..حتى لو أن الجميع ينكر ذلك و يقول أن اختفاءك و اختفاء الخيل في الوقت ذاته كان مجرد مصادفة ..لكنني لا أعرف كيف أقنعت الأميرة بأن تخسر أمامك ..لقد أبهرتني حقا .

لم يكن بمقدوري فتح فمي و قول كل شيء أردته لكنني استجمعت كل قواي لقول عبارة واحدة :أنت تحلم ..لن تتزوج الأميرة وغدا مثلك حتى لو كنت آخر رجل على وجه الأرض .

ابتسم حتى ظهرت جميع أسنانه ,هذا يعني أنه غاضب جدا ,وقف يحدق بي ثم أخذ يركل بطني مرة ثم مرتين ,توقفت عن العد حين أغمي علي ,آمل أنها لم تكن عشرين مرة و إلا سأبقى طريح الفراش لشهر كامل .

أعتقد أني قد توفيت ,عيناي لم تريا النور لفترة ,لا أعلم كم من الوقت مضى و كم من الوقت تبقى ,لكن إن منحت فرصة لأعيش ثانية ,أنا لن أعيش ثانية ,لن أطوي الصفحة و أتظاهر أن لا شيء حصل ,بل سأستمر في عيش مرتي الأولى و أصحح أخطائي ,لأن الرجل الحقيقي لا يهرب من أخطائه ,بل يعترف بها و يحتويها ,هكذا علمتني أمي .

الفصل الثالث

كيف ماتت والدتي؟

كان الأمر فظيعا ,الأمور لم تسر كما خططتُ لها ,خسِرتُ السباق و خسِرتُ الحق في اتخاذ القرار , نهض أبي و غادر دون قول كلمة واحدة ,الجميع متفاجئ و حزين ,لقد خيبت ظنهم ,ماذا الآن ؟

طلبت من العاملين أن يعيدوا بحر إلى الإسطبل و ركضت مسرعة لأقابل والدي ,وقفت أمام غرفته أأبى المغادرة , لكن الحارسان عند الباب طلبا مني الرحيل قائلَيْن :إن الحاكم أمر أنْ نمنع أي أحد من ازعاجه الآن .

قاومتهما و دخلت عنوة للغرفة ,رأيته يجلس في مكتبه يقرأ بعض الأوراق ,توجهت نحوه و ألقيت نظرة عليها ,كانت مواثيق الزواج .

جلست على ركبتي موجهة عيني نحو الأرض و قُلتُ :سمو الحاكم ..اعلم انني خسرت في السباق .. و اعلم أننا وافقنا عليه ..و اعلم ايضا انه من واجبنا كأسرة حاكمة أن نفي بوعودنا) ..رفعت عيني الممتلئتين بالدموع و نظرت في عينيه مباشرة و تابعت (لكن ..هذه المرة فقط ..هل يمكنك أن تكون والدي فقط و ليس سمو الحاكم ..ابي ..انا لا اريد هذا الزواج) ..جازفت في قول ذلك و لكن أنا لم يعد لدي الكثير لأخسره لذا قلت .. (هل تظن أن امي ..لو كانت بيننا الآن ..كانت وافقت ؟

وقف أبي بغضب و سار متجاهلا دموعي و كان سيغادر الغرفة ,حين وصل إلى الباب قال دون أن يلتفت لينظر في عيني :إبدئي في تجهيز نفسك لديك الكثير من الأمور للقيام بها قبل موعد الزفاف .

خرج و تركني هنا وحيدة ,أحسست اني يتيمة تماما ,لا أم لي و لا أب ,كان عليه على الاقل ان يبدو حزينا من أجلي ,اظنني احس الآن كيف شعرت والدتي حين قام جدي بالتضحية بها من أجل مصلحة القبيلة ,هل كانت حزينة جدا ؟ هل رفضت الزواج ؟ هل بكت كثيرا ؟ هل شعرت بالخيانة ؟ هل نسيت الأمر حين أنجبتني ؟ هل أصبحت سعيدة رغم كل شيء ؟

كل هذه الأسئلة و اكثر كانت تتصادم داخل رأسي ,أرادت أن تتم الإجابة عليها ,لكن كيف أحصل على الاجابات و من يجب علي أن أسأل ,عزمت غدا على الذهاب أخيرا فقد انتظرت ثلاثة عشر عاما لأقابل ذلك الشخص و لن أستسلم الآن .

***

في صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة صاحب المرتبة الثانية ,لقد تأذى كثيرا بسبب شقيقه ,آمل أن يكون بخير ,حين وصلت إلى بيمارستان القصر دخلت و سألت عنه فأخبرتني إحدى الحكيمات أنها انتهت للتو من تطهير جراحه و ستذهب لتحضير خليط من الأعشاب لتدهنه بها ,غادرتْ مسرعة و لم تمنحني الفرصة لسؤالها إن كان سيكون بخير ,لذا رحت أطمئن عليه بنفسي .

رأيته مستلقيا على السرير غائب الوعي و نقط العرق تتزحلق من على جبينه ,وضعت يدِ فوقه لأتحسس حرارة جسمه ,كان ساخنا جدا يبدو أنه أصيب بالحُمى .

فجأة و دون سابق إنذار أمسك أحدهم يدِ و نزعها عن جبينه ,نظرت باندهاش إلى الفاعل ,لقدكان شقيقه الذي فاز بالسباق .

قلتُ بغضب :ما هذا ..هل كل أفراد العائلة غريبو الأطوار ؟

ابتسم و نظر إلى شقيقه و قال :إذا أنت تعرفين شقيقي ..غريب فأنتما لم تلتقيا أبدا قبل اليوم.

ارتبكت فأنا لم أنتبه كيف زل لساني ,حاولت بجد كي لا يتهموه بالخيانة ,لا اريد افساد الأمر الآن .

قلت كمن نفِد صبره :لا أنا لا أعرفه ..لكنني أعرف بقيت أشقائك ..و أنتم لا تختلفون كثيرا .

قال و هو يُلَمِّحُ إلى أول مرة التقيته فيها :ألا تظنين أن وجهه مألوف بعض الشيء .

أجبت بلا مبالاة :بلى إنه مألوف ..لكن لا يمكنني أن أتذكر أين رأيته ..لا يهم ..ربما أكون مخطئة .. فكما قلتْ ..نحن لم نلتقِ أبدأ قبل اليوم .

إبتسم مجددا , لا أدرِ لما تستفزني ابتسامة هذا الشخص انه يبدو غير جدير بالثقة ,لا اصدق انه بعد ايام سوف نصبح زوجا و زوجة ,شيء مقزز .

سأل بحذر ليتأكد من أمر ما :حتى لو التقيت به من قبل فهذا لن يعرضه للخطر ..فقط إن قال أمرا لا يجب عليه قوله ..برأيك ..أتظنين أنه في خطر ؟

نظرت نحو عينيه ,فمن أشهر علامات الكذب هي عدم النظر في عيني الشخص مباشرة و أنت تكذب , لذا لم أرده ان يكتشف اي شيء و حاولت ان أبدو هادئة قدر المستطاع رغم كونه شخصا مخيف نوعا ما ,قلت بعدما استجمعت شجاعتي :لا يهمني بقدر ذرة إن كان في خطر أو لا ..لكن برأيي ..انه سيكون بخطر اكبر ان كان يخفي شيئا ما ..و بقولي يخفي فأنا اعنيكم جميعكم يا أبناء شيبة ..بصفتي الاميرة انا احذركم من العبث مع قرطبة ..مفهوم .

أبعد رأسه و ابتسم مجددا ,يا له من معتوه ابتُليتُ به ,ألقى نظرة خاطفة على وجه اخيه ثم غادر ,انا علي مراقبة هذا الشخص ,فآخر مرة رأيته فيها كان قد دفع اخيه من على خيله فقط ليفوز بالسباق ,لا يبدو انه يهتم لأمر قبيلته كما يزعم ,بل هو فقط رجل جشع يطمع في الحكم .

في صباح يوم غدْ ,كنت قد جهزت نفسي و أرسلت المرافقات لإحضار وجبتي لأنني قررت الخروج و البحث عن ذلك الشخص ,طرق أحدهم الباب فأجبت :تفضل .

دخل شهاب و سليم الغرفة و هما يحملان طعامي ,قلت متفاجئة :صباح الخير ..هل حصل امر ما .. منذ متى تقومان بإحضار طعامي إلي ؟

قال سليم متذمرا :منذ دقائق ..أخي سرق الطعام من المرافقة قائلا انه سوف يوصله في طريقه .

ضرب شهاب شقيقه على رأسه و ابتسم قائلا :دعك منه ..إلى أين الوجهة ..هل ستهربين أم ماذا ؟

اعلم انه قالها بدافع المزاح و لكنني شعرت انني فعلا سأهرب ,لم ارد جعله يقلق أكثر فبعد ما حصل البارحة اخبرتني المرافقات انه دخل غرفته و لم يرغب في تناول العشاء رغم ازعاجهن المستمر ,يبدو انه حزين من أجلي ,أنا حقا آسفة يا شهاب .

ضحكت قائلة :ما الذي تقوله ..الأميرات لا يهربن ابدا ..لقد قطعت وعدا لهم و علي ان اكون مسؤولة عنه ..لا تقلق بشأني كثيرا ..انا لست جائعة يمكنك تناول الطعام مع سليم سوف أغادر الآن ..حسنا ؟

خرجتُ من الغرفة متفادية النظر إليه ,ليس من السهل علي إخفاء ما أشعر به من حزن إن كان ينظر إلي بتلك الطريقة ,فعندما نظر إلي حينما كنت ذاهبة لاسترجاع بحر ,أخبرته بكل شيء ,و رغم انني لم ارد

جعل الامر اكبر او حتى محاسبة الفاعل ,إلا أنه أصر على إرسال الحراس ليمسكوا به ,لا يمكنني لومه ايضا ,فقد كان خائفا علي ,وأنا كنت كذلك أيضا .

أخرجت بحر من الاسطبل بعد إطعامه ثم غادرت القصر متوجهة إلى أغرب معالم قرطبة ,وادي الدماء ,هناك اسطورة مخيفة تروى عن ذلك المكان .

في زمن ما ,غير معروف من كان حاكم قرطبة وقتها ,كانت توجد جماعة من البشر الذين يعيشون في ذلك الوادي ,متخفيين عن أعين سكان قرطبة ,قيل انهم ارادوا الانفصال و انشاء قبيلتهم الخاصة ,لكن حين علم الحاكم بوجودهم أرسل حراسه ليقبضوا على رجال تلك الجماعة ,و بالفعل تم سجنهم و تعذيبهم في سجون القصر كي يمحوا فكرة الانفصال من اذهانهم ,لكنهم لم يرضخوا مهما فُعِل بهم ,بل استمروا بالتمسك بأفكارهم حتى النهاية ,مما جعل الحاكم يأمر بإعدامهم جميعا في ساحة الذنب التي كانت قديما تقع وسط الساق ,أما الآن فلم يعد لها وجود ,المحزن أكثر في القصة ,أن نساء تلك الجماعة حين سمعوا بوفاة ازواجهم و اولادهم اجتمعوا جميعا في اعلى الوادي و اقدمن على الانتحار .

مياه الوادي قامت بجر أجسادهن فلم يعثر عليها احد ,و الغريب اكثر أن مياه الوادي بأكمله قد تغيرت للون الاحمر ,و اصبح منظر ذلك الوادي الجميل الذي يبعث على السكينة ,مخيفا و غريبا مما جعله منبوذا من قبل الجميع ,البعض من سكان قرطبة يدعِّي انه رأى نساء في اعلى الوادي حين اتى ,و البعض يقول انه سمع بكاءهن ,و مع اختلاف الروايات و القصص المرعبة حول الوادي ,إلا انني توجهت اليه للبحث عن الشخص .

حين وصلت نظرت حولي جيدا ,انا لا اصدق قصص السكان التي يختلقونها لإضافة بعض الإثارة لحياتهم الروتينية المملة ,لكن الهدوء في المكان و الذي لا يسمع فيه سوى صوت جريان الماء و أصوات بعض الحشرات يبعث الخوف .

سرت في الأرجاء و انا امسك ببحر جيدا ,اردت ان اكون متأهبة جيدا فإذا حصل أمر ما فأنا علي الرحيل بسرعة .

فجأة سمعت صوتا ما ,بدى كصوت شخص يسْعُل ,حسنا على الاقل ليس بكاء بعض النساء ,تقدمت نحو مصدر الصوت و الذي بدى قريبا ,اقتربت اكثر فرأيت رجلا كبيرا في السن يجلس امام كهف صغير و يمسك بيده رُّبابة ,يبدو انه صنعها بنفسه فهي لا تشبه تلك التي تباع في الساق ,حين توقف عن السعال انطلق يغني وهو يعزف عليها :

عيد ميلاد سعيد

عيد ميلاد سعيد

عيد ميلاد سعيد سمو الاميرة

عيد ميلاد سعيد

لا اصدق انه أمامي الآن ,كم سنة مرت لم اره فيها ,إنها ثلاثة عشر عاما ,يبدو مختلفا كثيرا ,لكن تلك الندبة التي سببتها له لا تزال موجودة ,هل سامحني يا ترى ؟ هل تأسفت له وقتها؟ لا اعلم .

توقف عن الغناء حين التفت فوجدني اقف امامه ,نظر الي بعينين ملؤهما السعادة ,تقدم باتجاهي ثم قال : لا أصدق عيني إنك نسخة طبق الأصل عن امك كأنني ارى الاميرة جنة امامي ..سمو الاميرة كيف ..

لم ادعه يكمل سؤاله و عانقته فجأة بكل قوتي ,لقد اشتقت إليه كثيرا ,و قد سامحته على تركي و الرحيل منذ وقت طويلة لذا لن امثل اني كنت بخير بدونه .

ابتعدت لأنظر اليه اكثر و قلت :أنا آسفة ..لم أكن أنوي المجيء .

مسح على رأسي و قال :لا بأس المهم أنك هنا .

لم اعرف كيف نزلت الدموع من عيني ,أنا حزينة أن ذكرى حزينة بيننا جعلت كل ذكرياتنا السعيدة وهما نتذكره كأنه مجرد حلم ,بينما نتذكر تلك كأنها حدثت بالأمس .

قلت بقلب مثقل :انا ..اريد ان اعرف ..لقد وعدتني .

نظر الي بارتباك ثم أشار إلي بالجلوس ,دخل الى ذلك الكهف و احضر معه صينية صغيرة وضع فوقها بعض الشاي و الكعك .

قلت متجاوزة المقدمات البديهية كالسؤال عن حاله و عن أحواله ,فلم يعد للأمر اهمية ,ما يهم الآن ليس الحاضر بل الماضي :هل امسكوك وقتها ..سمعت من المرافقات ان ابي ظل يبحث عنك لأشهر .

أجاب ضاحكا ,كأن الأمر مزحة :بالطبع لا ..إستطعت الفرار منه ..انا لم اكن شخصا سهلا كما تعلمين .

امسكت كأس الشاي و تذوقته ,لقد اشتقت إلى هذا الطعم ,كان هذا الشاي الذي يُعِده بطريقته الخاصة , في الماضي مهما سألته عنها ,هو لم يكن يجيب ,لذا سألته الآن ربما يكون قد غير رأيه و قرر إخباري : انه نفس الشاي الذي اعتدت تحضيره لوالدتي ..ما هو السر ؟

ابتسم و نظر إلى كوبه و قال :لو اخبرتك لما شربته .

ذعرت لإجابته و بصقت ما شربته في التراب و صرخت قائلة :ماذا وضعت فيه ..هل هو أمر مقرف .. كيف فعلت هذا بأمي ..أم هل كانت تعرفْ ؟

ضحك بصوت عالي رغم أن جسمه الهرم لم يكن يساعد ثم نظر نحوي و قال :لا تزالين مضحكة يا سمو الاميرة ..انا لن اخبرك ابدا ما هو السر ..لكن لا تقلق ليس امرا مقرفا .

نظرت نحوه بغضب فهو يبدو مستمتعا بإثارة أعصابي و لكنني مسرورة انه لا يزال يتذكرني ,قلت بغضب :حسنا ..لقد فهمت ..لن اسأل مجددا مهما حصل .

عم الصمت لفترة ,ليس لأننا لا نملك موضوعا لنتحدث عنه و لكن ,كانت هناك مواضيع كنا خائفين ان نتحدث فيها ,و أي شيء نتحدث فيه سيقودنا نحوها ,اسئلة في عقلي كنت خائفة من اجابتها و اجابات في عقله كان خائفا من قولها ,لان لا احد منا يتوقع ما قد يحصل إذا ما سمعها أو قالها .

لكن لقاءنا هذا كان من اجلها لذا وجهت نظري نحو عينيه و سألته مباشرة :عمي ..انا اعرف انك تعلم كل شيء لذا من فضلك اخبرني ..كيف ماتت امي ؟

ابعد وجهه و نظر بعيدا ,لكنني استمررت بطرح السؤال و توسله حتى قال :سمو الأميرة ..قُتلت يا هيرانة.

كنت أشك في الأمر و فكرت في حدوثه ضمن الكثير من الاحتمالات لكنني لم اتوقع ان سماعه سيكون ذا تأثير كبير بهذا الشكل ,تمالكت نفسي و حاولت ألا انفجر بالبكاء كي لا يحس بالذنب و يستمر في اخباري الحقائق و سألت :لماذا ..من فعلها ..لقد كانت محبوبة لدى الجميع ..كيف لها ان تموت مقتولة ؟

نظر إلي مجددا و أجاب :هذا لأنها كانت محبوبة لدى الجميع ..قُتلت يا هيرانة.

لم أستطع التحمل أكثر فنهضت و توجهت نحو مياه الشلال ,لكن منظر المياه الذي يشبه شكل الدماء المُراقة جعلني في حال أسوء ,صرخت عاليا و أنا أضرب المياه بقدمي :لماذا ..لماذا ..لماذا ؟

كانت أمي امرأة رائعة كان يجب ان تعيش طويلا و تراني أكبر ,كان يجب ان تموت على سريرها و احفادها يحيطون بها ,كان يجب ان يتحدث الناس عنها و عن انجازاتها لكن ذلك كان ممنوعا .

ركض العم و أمسكني محاولا تهدئتي و هو يقول :هيرانة أرجوك توقفي ..أمك كانت تعلم ان ذلك سيحصل ..لكنها لم تفعل شيئا خوفا عليك ..لقد طلبت مني ألا أخبرك بأي شيء ..لقد وعدتها .

ابتعدت عنه بعدما هدأت قليلا و جلست على الأرض ,كلماته تلك كانت مبهمة و لم توضح أي شيء ,هل علي لومها الآن انها سمحت لذلك أنْ يحصل ,استجمعت شجاعتي و سألت مجددا :من كان الفاعل ؟

جلس على الأرض ليقابل عيني البائستين ,ربما سيشفق علي و يخبرني ,لكنه بدل ذلك قال :لقد وعدتها ..لكنني أريدك ان تعرفي الحقيقة ..أمك كانت ترسل رسائل الى ابيها على مدار العام لا اعلم محتواها لكن ربما تكون قد ذكرت شيئا ما ..لقد سمعت انك سوف تتزوجين زواجا سياسيا ..هذا مؤسف لو علمت أمك لحزنت كثيرا .

كان شخصا مقربا جدا لامي ,لم يكن أي احد ,قدِم معها من عُرب و رحل بعد أن توفيت ,في ذلك اليوم ,كان عيد ميلادي ,كانت المرافقات تنظرن لي نظرات الشفقة و يتهامسن ,أمسكت سيف أمي المفضل ,أخذت ألوح به مهددة كي يخبرنني بما حصل ,لكن فجأة ظهر هو ليأخذه من يدي قبل ان أؤذيهن ,لكن السيف قد اصاب يده و ترك له أثرا دائما .

في ذلك اليوم اخبرني انه سوف يُغادر لكن سيعود في عيد ميلادي الثامن عشر و ينتظرني في مكان لا يجيء اليه أحد لأنه لا يريد ان يرى دماء المساكين .

أبقيت تلك العبارة في عقلي حتى بعد مرور سنوات ,حين بحثت عن المكان أدركت أنه يقصد وادي الدماء ,لكن لولا هذا الزواج لما فكرت بالقدوم فأنا لم أرد تصديق أن هناك ما يجب أن أعلمه عن موت امي ,فقد بدت فكرة موتها بسبب لدغة العقرب أكثر قصة أردت تصديقها ,لكن أردت سماع رأي امي في زواجي و قد قدم لي الجواب .

عدت أدراجي بعدما ودَّعته إلى الأبد ,هو لم يمنحني موعدا آخر نلتقي فيه ,نحن تجمعنا ذكرى حزينة لا احد منا يريد تذكرها .

جلست في الحديقة محاولة إيهام نفسي أني سأكون بخير ,لكن من أخدع انا لن اكون بخير لسماع انها قتلت و انا لا اعلم السبب حتى ,لا أعرف على من علي الغضب ,لقد غضبت من نفسي لفترة ثم على العم لفترة و أحيانا أغضب على أبي و على زوجاته ثم أغضب على الجميع ,كان عليهم حمايتها ,كلهم مسئولون كلهم ساعدوا المجرم في جريمته ,لا أحد منهم يُعد بريئا .

أحسست فجأة ان شخصا يراقبني من بعيد ,أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتي و حاولت معرفة من يقف هناك بواسطتها ,كان يرتدي لباس المرضى ,هل هو ذلك الشخص هل استيقظ اخيرا أسقطت المرآة فجأة حين ظهر رجلان ملثمان ,أمسكا به و أخذاه .

استدرت فوجدت أنهم اختفوا ,كنت خائفة جدا عليه لذا ركضت لأتبعهما ,دخلا غرفة مهجورة من غرف القصر أظنها كانت من قبل مستودعا صغيرا او شيئا من هذا القبيل ,لم اسمع اي شيء يدور بينهم ,كاد الخوف يقتلني .

سمعت صوت شخص قادم فعدت لأختبئ ,وصل شقيقه الفائز بالسباق و دخل الغرفة ,لم أجرؤ على الاقتراب من الباب ,مع انني سمعت صوت شخص يتحدث .

بعد دقائق خرج الرجلان برفقة أخيه و غادروا جميعهم ليتركوه في الغرفة ,حين تأكدت من مغادرتهم , فتحت الباب ,لأراه مستلقيا على الأرض غائب الوعي .

لا اصدق انهم من فعلوا هذا به ,ركضت بسرعة اليه و امسكت رأسه و حاولت إيقاظه لكن دون فائدة , تفحصت جسده فلاحظت وجود كدمات على بطنه و اخرى في صدره ,وجهه لم يكن يخلو منها ايضا , هل سيعيش يا ترى ؟ هذا ما كنت افكر فيه ,تكلمت بصوت خافت مع الدموع التي تتدفق من عيني بدون اذني :انا آسفة ..كل هذا بسببي ..أنا آسفة ..لا تقلق ..ستكون بخير ..سوف اعتني بك و ستكون بخير ..لن اسمح لهم ان يؤذوك ثانية ..أنا حقا آسفة .

طلبت المساعدة من شهاب و سليم و أخذناه إلى الحكيمة ,فالحراس سيكشفون أمره لوالدي و انا لم ارد حصول ذلك .

وعدت شهاب و سليم ان أشرح لهما الأمر لاحقا حين يكون الوقت مناسبا لكن في الحقيقة لم يكن هناك وقت مناسب ,الآن لا خيار آخر لدي سوى قبول الزواج و حماية هذا الشخص من الموت بسببي ,فشقيقه لم يكن ينوي العفو عنه و لا اعرف ما هو موقف والده و لا يمكنني سؤاله ايضا .

سوف اخون قبيلتي ايضا اذا اخفيت أمر الحرب التي تطمع شيبة ان نشاركهم فيها ,لكن إن كشفت الأمر هذا الشخص سيموت لا محالة .

اكره حين اكون محاصرة ,كأنني في غرفة مغلقة من دون مخرج ,كل ما أراه هو الظلام ,لا أعلم ان كان علي تحطيم الجدار و الخروج ام انتظار شخص ليسمح لي بالمغادرة ,انا لم انتظر أحدا لكنني كنت خائفة مما سأجده خارج الغرفة ,سأندم اني لم انتظر اللا أحد .

قررت اني سوف انتظر ,ليس شخصا ,بل الوقت المناسب لتحطيم الجدران ,هذا ما كنت انتظره .

مرت الأيام و القصر كله مشغول بالتحضير للزفاف ,لم أغادره طول تلك المدة ,فانا لم اكن في حالة نفسية جيدة ,طلبت من المرافقات تولي أمور اختيار القماش المناسب لثوب الزفاف بالإضافة إلى المجوهرات التي سأرتديها معه ,لكنهن لم يتخلين عن ازعاجي رغم ذلك ,كن سعيدات جدا و انا لا ألومهن ,فهن لم يشهدن حفل زفاف ملكي منذ زواج الحاكم بوالدتي ,و هذا كان منذ زمن طويل .

لكنني كنت أكره تلك الإبتسامات ,لا أحد منهن يشعر بي ,كل ما يهمهن هو ارتداء ملابس جميلة و التزين و الاستمتاع بسبعة أيام من الاحتفالات التي لا تنتهي ,لقد ظننت أني الوحيدة التي تجد أن أسبوعا من الاحتفال كان أمرا مبالغا فيه و مضيعة للوقت و المال ,لكن حاكم شيبة وافقني الرأي و طلب أن يكون يوما واحدا ,انه في عجلة من أمره ,عليه إبرام الاتفاق قبل ان يصل البابالون إلى مدن شيبة .

كان من عاداتنا ألا ترى العروس زوجها حتى يوم الزفاف ,و هذا كان أكثر تقليد أعجبني ,لقد تخلصت من أيام التعارف التي بدأ البعض من سكان قُرطبة بإقامتها قبل الزواج ,لا أظن أن تلك اللقاءات ستعود بأي فائدة ,كلا الطرفين سيقوم بلعب دور الزوج المثالي ,كل ذلك سيكون تمثيلا و الحقيقة ستكشف بعد الزواج .

اما انا فكنت اعرف نوع الأشخاص يكون ذلك الشخص في الحقيقة ,لذا لم اكن لأخدع بتمثيله المحترف أمام والدي .

في خضم كل تلك التجهيزات لم تكن امي تغيب عن بالي ابدا ,كنت اتذكرها عند اختيار الاقمشة و عند حزم الامتعة ,افكر فيها عندما انظر لبحر و هم يقومون بتنظيفه و إطعامه استعدادا للرحلة ,أراها في عيني و انا اجرب أثوابي التي تم الانتهاء من تطريزها .

كنت أقابل شهاب يوميا ,و يوما بعد يوم كان يبدو أكثر شحوبا و حزنا ,لم أكن أجرؤ على سؤاله لكنني كنت اسأل سليم ,و كانت الاجابة هي نفسها ,انه لا ينام جيدا و لا يأكل جيدا .

قبل يوم من الزفاف جلست في الحديقة اتأملها لآخر مرة فبعد غد سوف اغادر إلى شيبة , عبارة "آخر مرة "مؤلمة جدا ,انا اعلم اني سآتي يوما ما لزيارة والدي ربما سأكون قد انجبت طفلي الاول حينها ,لا اصدق ان اكبر مخاوفي سيتحقق اعتقد ان بهار سعيدة الآن أنها هزمتني ,غدا إذا التقينا انا واثقة انها ستقول "أرأيت لقد قلت لك "أظن ان تحقيق الانجازات و كتابة التاريخ كان حلما لن استطيع رؤيته على الواقع ,سيكتب عني أني كنت زوجة وفية و مساندة لزوجها و فقط ,هذا إن كتب عني أساسا .

أكره أن اعترف بذلك لكنها كانت على حق فماذا بوسعي ان افعل و انا تحت رحمة والدي .

جلس شهاب بجانبي فجأة و أخرجني من دوامة أفكاري قائلا :ما الأمر أراكي ذهبت بعيدا في تفكيرك لم تسمعيني حين ناديتك من بعيد .

نظرت اليه و كان يبدو متعبا ,هالات سوداء تحت عينيه و أظنه فقد بعض الوزن ,غضبت للحالة التي اوصل نفسه اليها ,و صرخت في وجهه معاتبة :ألا تملك قلبا يا شهاب ..كيف تسأل عني و أنت في هذه الحالة المزرية ..هل نظرت الى نفسك في المرآة مؤخرا ..هل أنت غبي لا اصدق ان هذا هو شهاب الذي اعرفه ..كنت اظنك اقوى من هذا ..انا اسفة لأنني أخطأت في معرفتك .

لم ينطق بأي كلمة ظل ينظر بعيدا محاولا تمالك أعصابه ,لم أقل تلك الكلمات إلا لجعله يعود إلى رشده , لكنها لم تفد في شيء ,لذا حاولت مجددا لكن بنبرة حزن واضحة لأجعله يدرك مدى الالم الذي يسببه لنا حين نراه هكذا ,والدته و شقيقه ,المرافقات التابعات له و أنا ,كلنا كنا نشعر بالألم ,لذا قلت :آسفة لأنني غضبت ..لم اقصد الصراخ ..أنا فقط ..اشعر بالكثير من الالم حين اراك هكذا ..الامر لا يستحق صدقني ..انا حزينة و لكن أنت ..لا تفعل .

رفع عينيه فجأة و نظر نحوي بغضب كأنني قلت شيئا خاطئا و اجاب :لا تفعل ..هل حقا هذا كل ما لديك لقوله ..لا اعلم ان كنت حمقاء لهذه الدرجة ام انك تدعين ذلك ..كيف لي ألا أكون حزينا هل تعلمين كم حاولت حتى ..لكن لا شيء يفيد .

عم الصمت للحظات لم افهم اي كلمة مما قاله و هو لم يكن ينوي الإيضاح ,نهض فجأة و وقف أمامي و قال :إن كنت حزينة يا هيرانة فعليك ان ترفضي هذا الزواج ..و لا تقلقي انا سوف أحميك ..كل ما عليك فعله هو الذهاب إلى الحاكم و إخباره انك لن تتزوج من ذلك الوغد .

لم تمر ثانية على انهائه كلامه حتى تلقى لكمة في وجهه لتسقطه أرضا ,أظن انه سمعه ,البكر كما يناديه والده ,نهضت و دفعته بغضب و أنا أصرخ في وجهه :هل جننت كيف تجرؤ ..إنه أمير قرطبة ..حين يعلم الحاكم سوف يلغي الزواج برمته و ستعاقب فوق ذلك .

نظر إلي و ابتسم تلك الإبتسامة المستفزة المعتادة و اجاب بكل برود دون ان يرف له جفن :و من سيخبره ..انت ..ام هذا الوغد .

نهض شهاب و تقدم نحوه محاولا تمالك نفسه ,وقفت بينهما كي امنع أي اشتباك آخر ,بينما كانا يقفان متقابلين يحدقان في بعضهما بغضب ,قال شهاب :ان لم تفعل هي أنا سأفعل لقد منحتني فرصة جيدة أنا لن افوتها .

ضحك ذلك الوحش ثم نظر إلي و تحدث :حسنا ..اذهب و قل ما لديك ..فانا ايضا لدي ما اقوله للحاكم ..هل تريدين سماعه يا سمو الاميرة .

لا اصدق انه يهددني بحياة شقيقه , كيف يستطيع النوم ليلا لا بد انه معتوه من نوع ما ,استدرت الى شهاب و اشرت له ان يتوقف ,لكنه لم يتقبل الامر و اضاف :انا اعلم انك تهددها بشيء ما ..لكنني سأعلم ما هو ..و حين افعل ستكون نهايتك على يدي ..لن يفيدك الاختباء وراء حيل الجبناء بل سيكون عليك مواجهتي كرجل ان كنت كذلك طبعا .

رحل شهاب غاضبا دون ان يستمع الي حتى ,هو يعلم اني لن اخبره بشيء لذا ما الفائدة من الحديث اساسا .

نظر الوحش الي و ابتسم مجددا ثم همس في اذني قائلا :كنت اعلم انكما التقيتما من قبل فلا أحد من اشقائي غريب اطوار غيره .

لم استطع قول اي شيء لقد اصبحت كالخيل المقيد ,إن لم يطعمونِ لا آكل و إن لم يسقونِ لا اشرب و إن لم يدفعوني لا أركض ,ليست حريتي فقط التي سلبوني إيها حتى كرامتي سلبت مني .

غدا هو اليوم الموعود الذي كان أهل القصر يتجهزون له لأيام ,الكل مشغول جدا فالليلة ستكون استثنائية هذا ما كانت ترده المرافقات منذ الصباح ,لقد نسين أمري وانشغلن بأنفسهن .

كانت القوافل التي وصلت صباحا فقط توحي ان الحفل سيكون كبيرا جدا من حيث عدد الضيوف ,ذهبت لسؤال مسؤول القصر إن كان حاكم عرب أي جدي سيكون موجودا في الحفل لكنه نفى ذلك .

لم أفهم لما ليس من المدعوين ,انا لم ارى جدي ابدا لا في اعياد الميلاد و لا حتى في المناسبات المشتركة كل حكام القبائل قد قدموا لقرطبة مرة او مرتين و تعرفت عليهم لكن جدي لم يأتي ابدا ,حتى حين كانت أمي معنا .

لا أجرؤ على سؤال ابي لذا حاولت نسيان الأمر فهو لم يعد مهما على أية حال .

صاحب المرتبة الثانية أعني عين ظل نائما طوال تلك المدة ,عزمت على تفقده كل يوم علّه يستيقظ من سباته لكنه استمر في النوم ,كنت خائفة عليه أن يموت إلا أن الحكيمة اخبرتني انه ليس في حالة سيئة لتلك الدرجة ,عليه ان يرتاح ليس إلا و حين يُشفى سيستيقظ من تلقاء نفسه .

لا أحد من إخوته اتى لزيارته ,انه لأمر محزن ,أنْ يكون منبوذا من قِبل عائلته .

لم يكد يحل الظلام حتى صارت أنوار القصر كلها مضاءة و كل جهة في القصر مزينة و مبهرجة ,موائد الطعام وُضعت في الحديقة و في قاعة الحفلات و في كل غرفة وُجد فيها الضيوف ,تستطيع سماع ضحكاتهم و قصصهم التي أحضروها من كل مكان عند التجول في أروقة القصر .

كؤوس العصائر تُملؤ و تَفرغ في لحظات ,المرافقات يعْمَلْن بالتناوب ,بَديْن مثل النحلات العاملات في قفير النحل ,لا وقت ليرتحن و لا وقت ليستمتعن .حين انتهى الضيوف من الطعام توجهوا إلى الحديقة ليجلسوا في الهواء الطلق تحت أضواء الشموع ,لقد ازعجوا هدوء الليل خاصتي ,شوهوا منظر الحديقة الذي اعتدت عليه ,مكاني المفضل للتأمل أصبح بفضلهم مثل مهرجان منتصف الصيف ,الاطفال بركضون في كل مكان متجاهلين توبيخ أمهاتهن , و بقايا الطعام متناثرة هنا و هناك كأن اعصارا ضرب للتو .

والدي و حاكم شيبة جلسا في مائدة مشتركة بينما زوجات والدي جلسن في مائدة أخرى بعيدة عنهما , إخوتي لم يكونوا من محبي الحفلات لذا اظنهم بقوا في غرفهم او في شرفة غرفتي يشاهدون الأجواء من الأعلى .

أما انا فكنت على وشك الظهور بثوب الزفاف الأحمر ,أرتدي إكليلا من الزهور الحمراء فوق رأسي بدل تاجي الملكي ,انا لا احب ذلك التاج الثقيل لا يمكننِي السير به حتى .

تقدمت بخطوات سريعة بينما علا التصفيق و الهتافات ,وصلت إلى المائدة التي يجلس فيها والدي لأحييه و حاكم شيبة ثم اتجهت لأجلس مع زوجات والدي ,لم أكن اريد ذلك لكنني كنت مرغمة ,لا خيار لدي عدى إدِّعاء المودة وسط هذه العيون التي تراقبنا من كل جانب ,تنتظرني على أقل غلطة لتنطلق تبث سمها ,تلك الأفاعي السامة التي رغبت دائما بقطع رأسها .

سألت زوجة أبي الثانية و هي تنظر إلى إكليل الزهور :هل كانت فكرتك استبدال التاج بالأزهار يا سمو الاميرة ؟

أجل .. فكما تعلمين انه ثقيل جدا لا يمكنني تحمله طول الليل .

ابتسمت الزوجة الاولى و قالت :معك حقا انه ثقيل جدا ..ليس بوسع أي شخص حمله ..امك ايضا لم ترتده في زفافها .

انها الشخص الوحيد في القصر الذي يستطيع الحديث عن امي دون ان يشي بها احد للحاكم و إلا كان لسانها هذا قد قطع منذ وقت طويل .لم أكن أنوي بدء عراك معها لكنني لم اكن من بدأ ,قلت :و من برأيك يستحق حمل التاج ..انت مثلا ..لا تجعليني أضحك سموك .

أجابت بتكَبرِها المعتاد :أنا أحمله الآن كما ترين ..لقد قصدت أنه ثقيل عليك لما انزعجت لهذه الدرجة .

_انت تحملينه ..هل تقصدين قطعة المجوهرات التي فوق رأسك ..التاج الحقيقي لم تحمليه ابدا في حياتك ..انه غير مرئي ..موجود فوق رؤوسنا نحن فقط ..أصحاب السلالة الملكية ..و كل الحاضرين يرونه ..أنت لا تملكينه لذا ترتدين واحدا مزيفا تظنين انك ستخدعيننا به ..لكن في اعيننا لا نزال نراك جارية شيبية غير واضحة أصولها .

اشتعلت نيران اللهب في صدرها ,يمكنني رؤيتها من عينيها بوضوح ,بدت الزوجة الثانية سعيدة فهي تتعرض لتنمرها يوميا و دائما ما تغض نظرها عن الأمر ,لكنني لست مثلها انا لا أغض نظري عمن يهين والدتي أو يهينني .

نظرت إلي بغضب كأنها تريد خنقي الآن ,هي لن تجازف بإهانة نفسها أمام الجميع لشفاء غليلها كل ما كانت تستطيعه هو فتح فمها و التحدث في أمور لا يمكنني التأكد من صحتها ,قالت :هل تعتقدين ان امك كانت اميرة حقيقية ..في نظري هي مجرد خائنة لم تتقبل زواجها من الحاكم .

أجبت بلامبالاة و انا اتناول كأس العصير من المائدة :أهذا كل ما تستطيعينه ..الافتراء على شخص غير موجود ليدافع عن نفسه و يضع حدا لأكاذيبك ..كفاك ..لست في مزاج لأتحمل هذا حقا .

نظرتْ نحو الزوجة الثانية و قالتْ :يمكنك سؤالها إذا لم تصدقيني .

اجابت الزوجة الثانية :انا لا اتحدث فيما لا اعلم يا سميحة ..لست مثلك ..إعذريني .

_كفاك كذبا يا حِناء ..ان لم تكن خائنة فلماذا قُتلت .

عم الصمت فجأة ,نظرت نحو الزوجة الاولى التي ازاحت وجهها عني فهي قد قالت كلاما كبيرا لم تُراجع بعد عواقبه ,بينما الثانية وجهت نظرها نحو المائدة و لم تنظر إلي ابدا ,يبدو ان تلك الجارية نجحت في جعلي افقد اعصابي لهذه الليلة ,وضعت كأس العصير بقوة و نهضت عن المائدة بغضب , توجهت نحو والدي و قلت :سمو الحاكم ..اعذرني و لكن هل يمكن ان اناقش معك امرا ما ؟

استأذن حاكم شيبة لكن والدي أشار له بالبقاء ثم قال :بالطبع ..تكلمي فكلنا هنا عائلة .

سألت دون أن أبالي بأحد :أبي ..أنت لم تمنحني هدية زواجي حتى الآن ..لذا كنت أفكر في أمر ما .. إن استطعت تحقيقه لي فسأعتبره افضل هدية قد قدمت لي .

توجه والدي بالحديث إلى حاكم شيبة قائلا :لا تعجب إنهن الفتيات لا تكفيهن الفساتين و الجواهر التي حصلن عليها دائما سيرغبن بالمزيد ..هل يمكنك إن تعذرنا للحظة .

_بالطبع ..خذا راحتكما .

عندما غادر حاكم شيبة قال والدي :أعتذر لعدم تفكيري بالأمر ..فكرت انك لا تحتاجين الى أي شيء .. اطلبي ما تشائين مهما كان غاليا انه يوم زفافك و انت تستحقين ذلك .

قلت متمالكة نفسي كي لا أخطئ في الكلام :أبي ..أريد اجابة صادقة و صريحة عن سؤال ما .

_فهمت ..قولي ..ما هو السؤال ؟

سألت و أنا أنظر في عينيه مباشرة و حاولت إخفاء الخوف مما قد يحصل لاحقا :أبي ..أريد أن أعرف .. كيف ماتت والدتي ؟

الفصل الرابع

المرأة الزومبي

إلى متى ,إلى متى ينوي إخفاء الحقيقة عني ,إلى متى ينوي تعذيبي برواياته الكاذبة ,ماتت من لدغة العقرب ,يا له من كاذب ,لم أتحمل النظر أكثر إلى وجهه دون أن انفجر غضبا ,شعرت أنَّ الدخان يخرج من اذني .

غادرت تلك الحديقة غير مهتمة لنظرات الضيوف و همساتهم المتزايدة ,أردت الذهاب إلى غرفتي و الاستلقاء على سريري ,أريد أن أنام حتى يحل الصباح لتنتهي هذه الليلة الغبية و يعود الجميع من حيث أتوا ,لكن أمنيتي هذه لم تتحقق .

حين دخلت غرفتي وجدت إخوتي كما توقعت سابقا مجتمعين في الشرفة يشاهدون الحفل من بعيد و يحتسون عصير الرمان ,نظرت نحو سريري فوجدت بقعة من العصير عليها ,ماذا أقول ,إنها القطرة التي أفاضت الكأس .

توجهت نحوهم و صِحْتُ بغضب :من منكم الفاعل ..من سكب عصير الرمان فوق فراشي المفضل ؟

نظروا نحوي و انفجروا ضاحكين ,لقد ظهرت كالحمقاء وسط سخريتهم تلك ,تقدم عمر و اخذ إكليل الزهور من رأسي قائلا :ما هذا الذي فوق رأسك ..هل أضعت تاجك أم ماذا ؟

حاولت انتزاعه من يده و استرجاعه لكنه كان اطول مني و ظل يتجنبني ,صرخت قائلة :أعده إلي في الحال .

قذفه عمر نحو سعد ,فتوجهت إليه لآخذه لكنه رماه إلى سليم ,استمروا في قذفه هنا و هناك و أنا اركض وراءه كالغبية لأمسكه ,فجأة حضر شهاب للغرفة و أخذه من يد سليم و أراد إعادته لي ,لكن عمر أمسك به قبلي و قال موجها كلامه إلى شهاب :ماذا تفعل هنا ..من المفترض أن تكون في غرفتك تبكي كالفتيات .

سحب شهاب الإكليل نحوه بغضب قائلا :هذا ليس من شأنك ..اعده اليها و توقف عن ازعاجها .

رد عليه عمر و هو يسحب الاكليل اليه :لماذا انت منزعج هكذا ..نحن نمرح فقط مع اختنا الصغيرة .. هي ستغادر قريبا و لن نراها مجددا إلا بعد وقت طويل .

سحب شهاب اكليل الزهور مجددا بقوة اكبر فقام بتمزيقه ,لقد آلمني منظر الزهور الممزق شعرت انني قد تمزقت ايضا ,اصبحت مثل هذه الزهور المرمية على الأرض ,فقدتْ جمالها و رائحتَها و لن يرغب أحد بها مجددا .

نزلت دموع كنت أحبسها بصعوبة طوال هذه الليلة لكن ما بيدِ حيلة ,لقد تعبت من محاولة إصلاح الأمور ,إنها تزداد سوءً كلما حاولت .

نظر إخوتي نحوي بارتباك ,هم لم يروني أبكي إلا مرات قليلة جدا في حياتهم ,فإذا كبِرتِ مع الأولاد عليكِ أن تملكِ قلبا قاسيا مثلهم ,أليس كذلك ,و إلا لن يقول أحد انكِ فتاة و سيضايقونكِ كونكِ الحلقة الأضعف .

صرخت في وجوههم واحدا واحدا :اخرجوا ..اخرجوا و اتركوني بمفردي ..لقد تمزق هل انتم سعداء الآن ..اخرجوا لا اريد ان اراكم ..لا تأتوا لتوديعي غدا حتى ..انا اكرهكم .

دفعتهم خارج غرفتي رغم اسفهم ,لم يكونوا صادقين ,الاعتذار الوحيد الذي لطالما كان صادقا ,هو اسفهم لي انني ولدت كفتاة .

حين كنت لا أزال طفلة تفتقر للكثير ,كان أبي يأخذهم للصيد و أحيانا يصطحبهم معه في رحلاته خارج قرطبة ,في حين أبقى انا حبيسة القصر ,أمضي أيامي انتظر عودتهم ليقصوا علي مغامراتهم التي كانت

تبدو حماسية دائما ,و دائما ما شعرت أنني انتمي إليها و انه كان من المفترض ان اكون معهم حينما عاشوها .

قبل ذهابهم كنت أودعهم و كل ما كانوا يقولونه في لحظة تركي وحيدة و الذهاب هو "آسفون أنك فتاة " رغم أن هدفهم كان المزاح إلا أنه بدى اعتذارا صادقا شعروا به مثلما فعلت ,الآن ,انا من تعتذر لنفسي كوني فتاة .

طرق شهاب الباب ,لا اظن انه سيرحل من دون ان يتأكد اني سامحته ,فتحت و قلت دون ان أنظر اليه :لست غاضبة يا شهاب ..من فضلك اذهب من هنا اريد ان ابقى بمفردي قليلا .

اجاب بحزن واضح في صوته :انا حقا آسف ..لم استطع حمايتك كما وعدتك ..لكنني سأحاول حماية ذلك الشاب .

ما الذي يقصده ,كيف علم ان ذلك الشاب في خطر ,سألت :انا لم افهم تحميه من ماذا ؟

اجاب :من شقيقه ..بعد عراكي مع طهران اردت معرفة ما تخفينه لذا قمت بتتبعه ..انه يسعى لقتل شقيقه ..اخبر احد تابعيه ان يتخلص منه قبل رحيلكم غدا إلى شيبة ..منحه زجاجة صغيرة ..اظنه سيسممه .

لا اصدق ذلك المعتوه لقد صمتُّ من اجل ان يبقي على حياته لكنه خان الاتفاق ,علي انقاذ الفتى من الموت بأي طريقة .

قلت لشهاب :حسنا اريدك ان تتركني بمفردي لأفكر ..شكرا لك لإخباري .

اغلقت الباب و لم امنح شهاب اية اجابة ,اعلم انه يريد المساعدة لكنني لا اريد تعريضه للخطر فذلك الوحش المدعو طهران خطير جدا و يجب التعامل معه بحذر .

لم املك خيارا اخر ,حزمت حقيبتي وبدلت ملابسي و ارتديت ثياب الصيد و عباءتي السوداء ,اخذت سهامي و تسللت الى البيمارستان اين يتعالج الفتى .

احضرت ناقلة خشبية تستعمل لنقل المرضى و وضعته فيها ثم غطيته بملاءة بيضاء ,نقلته فوقها حتى وصلنا الى الاسطبل ,لم ينتبه احد لنا لأن الجميع كان يحتفل في الحديقة ,حتى العاملون في الاسطبل .

أخرجت بحر بهدوء ,و بصعوبة جعلت الفتى يركبه ,انه ثقيلا على عكس ما يبدو عليه ,عندما قمت بتثبيته جيدا ,امتطيت خيلي و خرجت من المخرج السري الذي كنت اغادر القصر منه قديما .

لم أعلم الى أين أتجه في هذا الوقت من الليل ,و كم سيستغرق الآخرون حتى يكتشفوا غيابي ,لم أرد الهرب و وضع ابي في موقف محرج لكنني لم املك خيارا آخر ,فبعد تخليه عني ,انا لن استسلم له بسهولة .

كيف لهذا الفتى ان يظل نائما طول هذه المدة هل تأذى لتلك الدرجة ,آمل ان يستيقظ قريبا فانا لا ادري إلى متى استطيع حمايته و انقاذه من شقيقه .

المكان الوحيد في قرطبة الذي لن يفكر الحراس في البحث عني فيه كان وادي الدماء لذا اتجهت اليه .

وادي الدماء في الليل اكثر رعبا منه في النهار ,لكن حتى ان سمعت بكاء النساء أو رأيت اشباحهن فوق الشلال فانا لن اهرب ابدا فلا مكان آخر اختبئ فيه غيره ,و اعتقد ان ابي سيكون مخيفا اكثر منهن لذا لست خائفة لتلك الدرجة .

صرخت منادية على العم ربما لا يزال يمكث هنا ,لحسن حظي هو لم يغادر بعد ,كان كهفه منيرا بضوء الحطب المشتعل ,حين تقدمت ببحر الى الكهف رايته نائما بجانب النار ,نزلت من الخيل و توجهت نحوه لأوقظه :عمي ..عمي استيقظ ..احتاج لمساعدتك .

عندما استيقظ و رآني استغرق بعض الوقت حتى ادرك انني قد جئت الى هنا ليس كزائرة او لأنني اشتقت اليه ,صرخ قائلا :ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت ..و من ذلك الشخص الذي معك ..هل تريدين ان يُكشف امري ..مهلا لحظة أليس اليوم هو يوم زفافك ما الذي تفعلينه هنا ؟

_اريد ان اجيبك حقا و لكنني متعبة من الطريق هل يمكنني النوم الآن و غدا اشرح لك كل شيء .

استلقيت منهكة القوى بينما ظل ينظر إلي بتعجب ,قلت و أنا اغلق عيني لارتاح قليلا :هلا انزلت الفتى الثقيل ..بعد ذلك رتب له فراشا مريحا لينام عليه انه مصاب ..اه و لا تنسى بحر اربطه في الداخل و قدم له بعض الماء و التفاح إذا كنت تملك البعض منه .

لم اشعر كيف أخذني النعاس و نمت في تلك الليلة ,كنت متعبة جدا ,كان يوما طويلا لم يرد ان ينتهي بأي شكل .

***

في صباح اليوم التالي ,استيقظت على رائحة مرق الدجاج الشهية ,أعتقد اني سأتناول فطورا لذيذا اليوم لذا من الافضل ان انهض و اغسل وجهي ,لا شيء يجعل الانسان يترك النوم و يستيقظ اكثر من حماسه لتناول فطور جيد .

كنت داخل الكهف ,اظن انني لم أهن على العم لذا لم يتركني نائمة في الخارج ,حين خرجت وجدت الفتى أمام النار يعد الفطور , قلت متفاجئة :لقد استيقظت ..كيف هذا ..تبدو بخير الآن .

نظر نحوي قائلا :صباح الخير ..اجلسي لتأكل انها وصفة امي آمل ان تعجبك .

جلست و شاهدته و هو يسكب المرق في وعاء صغير و يقدمه لي بابتسامة غريبة ,هل هو سعيد الآن ؟ أمر غريب لو كنت مكانه و اعلم ان اخي يريد قتلي ,قبيلتي تعتقدني خائنا و والدي قد تخلى عني لما كنت سعيدة ابدا ,انه معتوه آخر قد ابتليت به .

سألت :أين ذهب العم ..انا لا اراه ؟

_قال أنه سيملأ جراره بماء من بئر قريب ثم يعود ..ربما يكون عائدا الآن فقد مضى زمن على ذهابه .

لم ارد الحديث اكثر بسبب منظر الطعام اللذيذ لذا شرعت في الاكل دون توقف ,حتى الاميرات يفقدن اداب الطعام حين يكن جائعات ,انا لم اتناول اي شيء البارحة فقد استمرت المرافقات بمنعي من الاكل قائلات ان علي ان اهتم بجسمي الآن فانا سأصبح امرأة متزوجة ,اكرهه منطقهن الذي يشبه منطق ابنة وزير المالية ,لقد كانت تقول الشيء نفسه عندما تراني اتناول الطعام دون ان أهتم بكمية ما اكلت ,في رأيي عليها الاهتمام بعقلها الفارغ ذاك أكثر من جسمها ,فحتى الآن هي لا تزال تظن ان الأرض مسطحة ,لا أظن انها قد فتحت كتابا في حياتها .

وجدت الأمر مضحكا حين تذكرته فجأة فضحكت دون ان انتبه ان ذلك الفتى موجود ,تأسفت بعد ان كدت ابصق الطعام على وجهه .

قال و هو يُمرر منديلا صغيرا :أمسكي و امسحي به وجهك ..كلي ببطء و إلا ستختنقين .

_شكرا لك و لكنني جائعة جدا لم استطع امساك نفسي ..آسفة مجددا .

وصل العم بينما كنا نتحدث و قال :لماذا تأسفين ..هل حصل امر ما ..اسمعي يا سمو الاميرة عليك العودة الى القصر حالا و إلا وقعت في مأزق كبير .

رمقت الفتى بنظرة جانبية ثم نهضت و امسكت العم و اخذته بعيدا لأكلمه على انفراد ,حين ابتعدنا قلت بانزعاج :لم اتوقع منك ان تقول هذا ..ظننت انك تريدني ان اعرف الحقيقة ..قلت ان أمي ستكون حزينة لزواجي بهذا الشكل لما تريدني ان اعود الآن .

_لكنك لم تفعل هذا فقط لأنك اردت الأخذ بكلامي أليس كذلك ؟

_ماذا تقول ؟

_البارحة سمعتك تتكلمين اثناء نومك ..حسب ما فهمت انت واقعة في مشكلة بسبب ذلك الفتى ..هذا يفسر سبب احضاره معك .

_انه في خطر ..لقد وافقت على الزواج كي لا يقوم شقيقه بإيذائه و اتهامه بالخيانة و لكن بعدما علمت انه قرر قتله حتى مع زواجي منه أدركت ان الهرب كان الخيار الصحيح منذ البداية .

تفاجأنا انا و العم حين خرج الفتى من الصخور و تقدم نحونا ,هل سمع كلامنا يا ترى ,يبدو غاضبا .

سألت باندهاش :ماذا تفعل ..هل كنت تسترق السمع علينا هذا امر غير مقبول حتى بالنسبة لك .

_لقد احضرتني الى هنا و لم تشرح لي اي شيء حتى عندما سمحت لك الفرصة ..متى تظنين انه من المناسب اخباري ..لقد استيقظت لأجد نفسي في كهف مع رجل عجوز يقوم بإطعامي حساء سيء المذاق ..لم يرد اخباري حتى مما يتكون و اكتفى بقول انه يستحسن ألا اعرف .

لم انتبه انه في حيرة من امره لهذه الدرجة لكنني لم اعرف ما اقوله ,انا ايضا في حيرة من امري .

لم اقل اي شيء لأرد عليه تكلم العم كأنه سئِم منا :اسمع يا ابني ..عليك الهرب و ترك الاميرة ..لقد حضرت لك دواء من عشبة نادرة كنت احتفظ بها لوقت الحاجة عليك ان تكون شاكرا بدل ان تتذمر من طعمها الغريب ..على كل حال انا قد اخبرتكما برأيي لذا سأذهب الآن و انتِ فكري في كلامي جيدا .

ذهب العم و تركنا في جو غريب ,لكنني كنت لا ازال حائرة لم اعرف ما الخطوة القادمة مهما فكرت , تقدم الفتى نحوي و صرخ قائلا :هل جننت ..كيف تهربين من القصر ؟

صرخت بدوري بسبب غباء هذا الفتى :كان اخوك سيقتلك ايها الغبي .

_لماذا تهتمين انت ..كان عليك ان تتزوجيه و تنهي الأمر و فقط .

_لكنني لا أريد الزواج منه .

_اذا كان عليك اخبار والدك سبب عرضنا لهذا الزواج السياسي ..كان عليك اخباره بالحرب التي نحن نواجهها .

_كيف اخبره ايها الغبي هل تريد ان تعد خائنا في قبيلتك و تعدم شنقا ..هل تعلم ان شقيقك ذاك هددني انه سيخبر والدك كل شيء و حينها لن يمكنني انقاذك وسوف تموت لا محالة .

_كان عليك انقاذ نفسك ايتها الحمقاء لماذا تفكرين بمصيري فانا قد اخبرتك بمحض ارادتي لذا علي ان اتحمل مسؤولية افعالي ..ماذا عنك لقد خنت والدك بسببي .

_انا ايضا علي ان اتحمل بعضا من المسؤولية ..حتى لو عاد بي الزمن كنت سأهرب فانا اكره ذلك المكان و لطالما رغبت في الهرب منه .

لقد اعترفت بما كنت افكر به منذ وقت طويل ,احسست ان حملا ثقيلا ازيح من صدري ,لا اهتم بما يظنه حولي الآن فانا لا اخجل من ان اقول انني مهما فعلت فلم استطع جعل القصر منزلي او اعتبار اي فرد هناك كعائلتي .

أصبحت الآن شخصية فارغة لا تملك هوية ,كورقة خريف سقطت من الشجرة و اختلطت بملايين الأوراق فلم تعد تعلم إلى أين تنتمي أو إلى أين تتجه .

سأل الفتى :اذن ..ماذا الآن ؟

أجبته دون تفكير :إلى الساق .

_الساق ؟

_اجل اذا كنا سنبقى هنا مختبئين فعلينا ألا نكون مصدر ازعاج للعم و نذهب لشراء بعض الامور التي تلزمنا عوضا عن طلبها منه باستمرار .

_حسنا اذن ..هل ستأخذين بحر معك ؟

_بالطبع لا ..جميع الحراس سيتعرفون علينا ان رأوه سوف نذهب من دونه .

_كيف هذا ؟

_هناك عربات تسير باتجاه الساق باستمرار سنطلب منهم ايصالنا في طريقهم .

_لكن اين سنجدهم ؟

_علينا السير بعيدا عن هنا حتى نقابل احداها .

_لنذهب اذن ماذا ننتظر .

اخذت حقيبتي و ارتديت عباءتي و ودعت بحر و العم ,آمل يكون كل شيء بخير حتى عودتنا .

بعد سيرنا لساعتين من الزمن وجدنا عربة أخيرا تُقلنا إلى الساق ,كان السائق رجلا طيبا فبينما كان عين مستلقيا فوق القش ليرتاح قليلا ,جلست بجانبه و قد استرسل في الحديث معي دون مقدمات ,لقد اخبرني عن أيام شبابه و انه كان يوصل القش الى القصر في الماضي و هو لا يزال يتذكر تلك الأيام الصعبة التي مرت بها قرطبة ,اغتنمت الفرصة و سألته عن والدتي ,اخبرته اني لم اجد الكثير عن الاميرة جنة مهما بحثت في تاريخ قرطبة ,فأجابني ان لا احد من الشعب يعلم شيئا عن ذلك ,قال ان خبر وفاتها نزل كالصاعقة عليهم و البعض لم يصدق حتى الان انها ماتت رغم مرور كل هذه السنوات ,لكن في نظره ان الأميرة كانت افضل شيء حل على قرطبة منذ وقت طويل.

حين وصلنا الى الساق رفض الرجل اخذ اي اجر لقاء ايصالنا و بدل ذلك اخبرنا بمكان منزله كي نبحث عنه في وقت الحاجة .

بعدما ودعناه اتجهنا الى بعض المحلات كي نشتري الطعام و القليل من الامور التي تلزمنا ,لكن الأمر الذي لم نتوقع حدوثه هو وجود رسم لوجه عين معلق في كل مكان ,كانت صورته موجودة اينما نظرنا , أخرجت منديلا من حقيبتي و ربطت نصف وجهه به كي لا يتعرف عليه احد ,سرنا نحو احدى المناشير و قرأنا ما كُتب .

كُتب انه متهم بخطف الاميرة من حفل زفافها و قد وضعت جائزة مالية كبيرة لمن يمسك به و يقدمه للعدالة ,لا اصدق انه اصبح مجرما بين ليلة و ضحاها .كان الحراس يتجولون في الساق بكثافة مثل النمل ,يسيرون حاملين المناشير و يطرقون ابواب المنازل و يدخلون المتاجر للسؤال عنا .

فجأة رأيت أحد الحراس يتجه نحونا فأمسكت بعين و اتجهت في الاتجاه المعاكس لأتفاداه ,لكنه نادى علينا مشيرا لنا بالتوقف لذا رحنا نركض بسرعة كي لا ينتهي بنا الأمر بين يديه .

لكنه لم يبق الوحيد الذي يطاردنا فكل حارس كان في الساق حينها اصبح يركض وراءنا ليمسكنا ,كنت اعرف الساق جيدا و حاولت دخول ممرات و اماكن ضيقة لنختبئ فيها لكنهم استمروا في اللحاق بنا ,لم نستطع الإفلات منهم مهما فعلنا .

فجأة ظهرت امرأة ما و اشارت لنا ان نتبعها ,لم نملك خيارا آخر رغم خوفنا من ان يكون فخا ,لكن حدسي اخبرني ان علي اللحاق بها ,جعلتنا ندخل محلها الخاص ثم قامت بإغلاقه و اسدلت كل ستائرها .

بقيت و عين واقفين نحاول التقاط انفاسنا التي كادت تنقطع ,تقدمت المرأة نحوي ببطء و نظرت في عيني جيدا ثم قالت :انت تشبهينها كثيرا ..أجل أنت ابنتها دون أدنى شك .

سألت باندهاش :هل تعرفين امي ..اقصد ..هل تعرفين الأميرة جنة .

سألت و هي تحضر لنا مقاعد لنجلس عليها :ماذا تريدان أن تشربا ؟

اجابها عين و هو يجلس على الكرسي :أريد كأس ماء من فضلك .

نظرت إلي منتظرة طلبي لكنني لم اطلب شيئا و بدل ذلك قلت :لن اشرب اي شيء قبل ان تخبريني من اين تعرفين والدتي فانا لا اتذكرك ابدا .

انزلت رأسها و أبدت حزنا واضحا ,هل اخطأت في شيء يا ترى ؟

اتجهت إلى مكان ما و عندما عادت كانت تمسك كأسين من الماء و قدمتهما لنا .

لا أدري ما اقوله ,شكرتها و انا آخذ كأس الماء ثم جلست ,جلست هي أمامي مباشرة و هي تضع كلتا يديها فوق الطاولة ,بدت متوترة جدا .

بادرتُ بالحديث كي أزيل عنها توترها قائلة :لا بأس إن كنتُ لا أتذكرك فأنا كنت صغيرة في ذلك الوقت ..هل من الممكن أنك كنت مرافقة تعمل في القصر ؟

أجابت و هي تُحرك رأسها نافية الأمر :لم أكن إحدى مرافقاتها ..حتى انني لم ارك من قبل ابدا ..الحقيقة أنني ..قد اسأت لوالدتك في وقت ما .

قلت مندهشة :أسأتِ لوالدتي ..كيف ذلك ؟

بدى الحديث صعبا عليها ,لم تكن تملك الجرأة لتستمر في اخباري ما حدث .

لذا قلت ما كان يجول في عقلي وقتها :هل تملكين اطفالا ؟

أجل .. لدي ثلاثة اطفال .

_هل يعيشون معك الآن ؟

_اكبرهم تزوج و الاخيران لا يزالان يعيشان معي ..لقد عشنا أربعتنا بسعادة لسنوات .

_يال حظهم ..انا لم اعش مع والدتي بسعادة ..لم اعد استطيع تذكر شكل وجهها حتى .

حين قلت ذلك أشاحت نظراتها و اخذت تنظر بعيدا و تحاول تمالك نفسها ,لقد خَيَّبتْ أملي ,ظننت اني قد اعرف المزيد عن أمي بفضلها .

نهضت عن الطاولة و اشرت لعين بالذهاب ,نظرت الينا و سألت :إلى أين تذهبان ؟

أجبتها محاولة إخفاء خيبتي :شكرا لك لمساعدتنا لكن علينا الذهاب الآن .

نهضتْ عن الطاولة كأنها ارادت ايقافنا لكنها لم تفعل ,لكن فجأة ظهر فتى بدى في الخامسة عشر ,أوقفنا قائلا :انتظرا قليلا ..والدتي لم تكمل كلامها .

نظرت إلى المرأة علها تقول شيئا لكنها استمرت في المراقبة فقط لذا قلت له :لا باس ربما في المرة القادمة .

لكن الفتى لم يستسلم و امسك بيدِ و أعادني إلى الطاولة و طلب مني الجلوس ثم صرخ في وجه أمه :ألم تكوني تبكين كل ليلة بسبب هذا الذنب يا أمي ..كنتِ تريدين أن يمنحك الله فرصة لتكفري عنه .. و الآن اتتك هذه الفرصة و تريدين ان تضيعيها بسبب ترددك ..ارجوك يا امي اذا تركتها تذهب فلن تستطيعي ان تحصلي على فرصة اخرى و ستظلين نادمة طول حياتك .

كلام هذا الفتى جعل والدته تتأثر ,جلست و هي تحاول مسح تلك الدموع التي لم تكف عن النزول من عينيها الغارقتين ,حين هدأت استطاعت ان تلملم افكارها و مشاعرها لتقول كل ما تعرفه :انا اتذكر يوم تعرفت على والدتك كأنه الأمس ..و كيف لي ان انساه فقد كان اسوء يوم مر علي في حياتي كلها .. كانت قد مرت خمس سنوات على قدوم الأميرة و رغم المساعدات التي قدمتها عُرب إلا ان أحوال شعب قُرطبة لم تكن بأحسن حال فالطبقة الفقيرة كانت لا تزال تعاني من الجوع و المرض ..في أحد الأيام مرض زوجي كثيرا و لم يكن بوسعي شراء الدواء له و حتى لو امتلكت بعض القطع النقدية كنت اصرفها لشراء الطعام لأطفالنا الثلاثة ..لكن زوجي لم يستطع ان يتحمل كثيرا و توفي بعدما عانى طويلا ..في ذلك اليوم دفنت زوجي بكل حزن و اسى و شعرت ان ما يحصل معنا ما هو إلا ظلم كبير ..حينما خرجت للبحث عمن يقرضنا بعض المال لعشاء الاطفال في هذا اليوم المشؤوم ..رأيت موكب الأميرة يمر بجواري ..سرت وراءه الى ان توقف و نزلت منه الاميرة .. تلك كانت اول مرة أراها فيها ..كانت جميلة جدا و ترتدي ملابس جميلة ايضا و كل السكان التفوا حولها ليغرقوها بعبارات المدح و الثناء ..في تلك اللحظة شعرت ببغض اتجاهها ..فقد كانت تبتسم كأن شيئا لم يكن في حين يوجد اناس لا يملكون طعاما ليأكلوه أو مالا لشراء الدواء لذويهم ..سعادتها تلك اشعلت في كرها شديدا نحوها ..لذا ركضت باتجاهها و دخلت وسط الجمع و بسرعة اخذت العقد الذي كانت ترتديه فقد بدى غاليا و به سأضمن عشاء اولادي لأشهر من الزمن ..إلا انني لم استطع الهرب من الحراس الذين تجمعوا حولي و قيدوني وسط صراخي و رجائي ..نظرت الأميرة نحوي بخوف ..توسلتها قائلة اني فعلت ذلك لإطعام صغاري .. طلبت منها أن تعفو عني ..لكن رغم كل محاولاتي وجدت نفسي في سجون القصر ..كنت خائفة جدا .. ماذا سيحصل للأطفال ..تخيلت نفسي اعود لأجدهم قد ماتوا من شدة الجوع لم ارد دفنهم كما دفنت والدهم انا لن استطيع تحمل ذلك .

قال عين و قد بدا عليه التأثر الشديد :لقد مررت بالكثير نحن حقا آسفون .

أمسكتُ بيد المرأة و حاولتُ التخفيف عنها قائلة :لا بأس انا متأكدة ان أمي تكون قد سامحتك فأنت كانت لديك ظروفك التي جعلتك تقومين بذلك .

قالت و هي تنظر نحو ولدها :لا أعلم إن كانت سامحتني عما حدث و لكن لا أعتقد انك ستستطيعين مسامحتي .

بدى كلامها مربكا جدا ,لقد اعتصر قلبي و بدى الكلام الذي سيخرج من فمها ذو وقع سيء علي .

تابعتْ :حين كنت في السجن أتى رجل ما ليزورني ..كان يرتدي عباءة و يغطي وجهه فلم أستطع تمييزه ..و لم اتعرف على صوته حتى ..سألته بخوف ان يُعرِّف بنفسه لكنه اجاب ان الامر غير مهم .. اخبرني انه اتى ليعقد اتفاقا معي كي يساعدني على الخروج من السجن ..قال أن الطريقة الوحيدة لخروجي هي تغيير التهمة التي أدخلت بها السجن ..أوهمني أن سرقة شخص من الأسرة الحاكمة قد تصل عقوبتها إلى الموت ..لم أستطع التفكير عندها من شدة الخوف لذا قلت أني سأفعل أي شيء ..طلب مني قول بعض الجمل حين يأتي الحاكم ليُقابلني ..لم افهم اي شيء وقتها لكن مع ذلك وثقت بكلامه و حين قدِم حاكم قرطبة لزيارتي كما أخبرني من قبل ..سألني بعض الاسئلة قائلا هل تعرفين سمو الاميرة جنة ..هل كنت انت من التقت به قبل يومين ..كنت اجيب بنعم دون تفكير حتى سألني منذ متى اقوم بهذا العمل ..لم افهم اي عمل يقصد لكنني لم اجرؤ على سؤاله أجبته منذ وقت ليس ببعيد عندها تركني و ذهب دون أن يضيف شيئا ..في الغد تم الإفراج عني و المفاجئة أني سمعت من الحراس ان عقوبتي كانت دفع غرامة لِقاء مُحاولتي السرقة ..و الأكثر من ذلك ان الأميرة بنفسها دفعت ما علي ..خُدعت من قبل ذلك الرجل و قلت كلاما لا ينبغي علي قوله ..حين عدت إلى المنزل وجدت أطفالي بخير و بصحة جيدة ..أخبروني أنه في اليوم الذي غبت فيه اتت الأميرة بنفسها و قدمت لهم الطعام و الدواء ..كما اشترت لهم بعض الثياب و الحاجيات ..لا يزال ابني الكبير يتذكرها ..لطالما اخبرني عن علو اخلاقها و الحنان الذي نظرت به نحوهم حين اتت ..قال انه لن ينسى ابدا ما اخبرته به يومها .. اخبرته انها خائفة ان لا تكون اما جيدة لطفتها ..اخبرته ان يعتني بي و يقف بجانبي ..قالت أنني أم جيدة يمكنها فعل أي شيء لحماية اطفالها و هذا شيء تحترمه في ..كلامها هذا جعلني أخجل من نفسي ..لقد آذيتها وهي الوحيدة التي مدت يد المساعدة نحوي ..أنا آسفة جدا يا سمو الاميرة لقد آذيتها دون قصد مني ..أرجوك سامحيني .

استمرت المرأة في طلب العفو دون الكف عن البكاء ,ركض ابنها نحوها وعانقها بشدة ,لقد تمنيت ان اعانق امي بشدة مثلما يفعل الآن ,كانت الطريقة الوحيدة لمنحها القوة لمجابهة هذا العالم ,من يدري ما كانت تواجهه ,أنا آسفة يا أمي ,أنا آسفة لأني لم اعانقك كما يجب .

قال عين :لا اظن ان للحادثة علاقة بموت الاميرة ..نحن لا نعرف حتى ما الذي كان يرمي اليه الحاكم بأسئلته تلك ..لا تهلكي نفسك بسبب هذا الأمر بعد الآن .

كان كلامه منطقيا جدا و لكن لا اعلم لما أحس ان هذه الحادثة الغريبة لها دور في مقتل أمي ,لا يمكنني اتهام اي احد او حتى تخيل ما حصل و لما ,تذكرت فجأة الرجل الذي اخبرتنا عنه لذا سألت :ماذا عن ذلك الرجل ألم يظهر ثانية ليقابلك و يتأكد انك قلت ما اخبرك به .

_لا لم يفعل لقد انتظرته كما أنني ذهبت للقصر و طلبت أن يسمحوا لي بإخبار الحاكم الحقيقة لكن دون فائدة لقد طردت دون ان تتسنى لي الفرصة لقول ما اتيت لأجله ..كان الحراس عنيفين جدا وقتها .

قلت ما كنت اظنه :ربما يكون ذلك الرجل هو من امرهم ان يطردوك أظنه ذو سلطة في القصر .

قال عين :لو علمنا من يكون ذلك الرجل لحُلَّ اللغز و فهمنا كل شيء .

معه حق ان اردت معرفة سبب موت امي علي معرفة هوية ذلك الرجل .

سألتنا المرأة عن سبب هروبنا من القصر و ان كان خبر زواجي من أمير شيبة صحيحا فأخبرتها بكل شيء ,بداية من الحرب التي ستدخل فيها قرطبة قريبا إذا لم نفعل شيئا لإيقافها .

اخبرتني المرأة ان والدتي قد التقت قبلا بشعب البابالون , كان هذا تلبية لدعوة كانوا قد ارسلوها لها بعدما سمعوا بانجازاتها لمساعدة النساء في قُرطبة ,اخبرتني ان الامر أعلن عنه لأنه حدث مهم جدا حصل بعد قدوم الأميرة ,فلم يسبق لقُرطبة ان تعاملت مع الشعوب الأخرى من قبل ابدا ,لذا فكر الشعب وقتها أن الاميرة تسلك طريق أسلافها في عُرب الذين بنوا علاقات سياسية و اقتصادية مع شعب النيبو .

ما أخبرتني به شجعني كثيرا فإذا كانت أمي قد التقت بهم من قبل فهم ليسوا اشخاصا سيئين بل هدفهم الاول و الاخير هو حماية النساء من بطش الرجال.

نظرت إلى عين و قُلت :ما رأيك ان نجرب حظنا و نذهب للتفاوض مع شعب البابالون ربما يمكننا اقناعهم للعدول عن قرار الحرب .

لم يبدو عين سعيدا بالفكرة ربما فكرة التفاوض ستُظهر شيبة في موقف ضعف ,لكن لا خيار آخر امامهم أيضا ,فهم فعلا في موقف ضعف .

قالت المرأة معلقة على فكرتي :ليست فكرة سيئة يا سمو الاميرة ..هناك احتمال كبير انهم من الممكن ان يوقفوا الحرب ..يمكنني مساعدتك في الذهاب للقائهم فلدي خريطة قديمة كان يملكها زوجي فهو قد درس علوم الجغرافيا لفترة من الزمن قبل ان يتوفى والداه و يجبر على العمل .

ذهبت المرأة و اخرجت لنا تلك الخريطة ,كانت مليئة بالغبار ,حين فتحتها إندهشت و عين لكمية التفاصيل الموضحة فيها ,كانت تحوي حدود العَرب و حدود الشُعوب التي تحدها ,كانت كنزا بمعنى الكلمة إذا سمع امين مكتبة القصر بوجودها لدفع الكثير للحصول عليها .

قالت المرأة :كما ترون اذا تبعتم هذه الخريطة ستصلون الى بلادهم في غضون أيام ..توجد ممرات و مناطق موضحة ستساعدكم في رحلتكم .

قلت و انا اعيد الخريطة لصاحبتها :شكرا لك و لكن ..انا اعلم ان هذه الخريطة غالية جدا ..ربما دفع زوجك الكثير لقاءها انها تعتبر كنزا للعائلة ..و حسب ما رويتي حتى عندما اشتد بكم الحال ظللتم متمسكين بها ..انا لا يمكنني اخذها حقا .

قالت المرأة و هي تسحب يدي و تمنحني الخريطة و الابتسامة في وجهها :هذا أقل شيء يمكنني فعله لأرد جميل الاميرة جنة و اكفر عن ذنبي ..خذيها ارجوك ..ان اخذتها سأستطيع الموت مستقبلا في سلام .

كانت مصرة لتعطينا اياها لذا لم استطع الرفض ,حين خرجنا من عندها كانت الأجواء قد هدأت قليلا , كل ما فكرت فيه هو طريقة للعودة إلى الوادي دون ان يمسكوا بنا .

تذكرت العم الذي أوصلنا ,لا أعلم إن كان سيساعدنا بعدما علِم اننا هاربان و لكن ,إنه أملنا الوحيد فجميع العربات الآن ستشك فينا و تسلمنا في الحال إلى الحراس إما لكسب الجائزة أو لإنقاذ أنفسهم .

ذهبنا إلى المنزل الذي أخبرنا عنه ,اقتربنا و طرقنا بابه .سأل من نكون دون أن يفتح الباب ,همستُ قائلة :انهم نحن يا عمي ..نحن اللذين أوصلتهما صباحا إلى الساق أتذكر ..أخبرتنا أن نأتي اليك إن احتجنا أي شيء ..ارجوك نحن نحتاج توصيلة خارج الساق هل يمكنك مساعدتنا .

قال رافضا :اذهبا من هنا ..انتما محظوظان اني لم اخبر الحرس عنكما حين أتوا الى منزلي ..أنا آسف و لكن لا استطيع المساعدة .

ظهر على عين أنه خائب الأمل ,لكنه أكثر من سيضر إذا امسكَ بنا ,لقد اتهم انه قام باختطافِ الأميرة , لا اعلم ماذا فعل في حياته حتى اصبح مهددا بالقتل طوال الوقت .

همست مجددا محاولة اقناع هذا العم فانا اعلم كم هو رجل شهم و لن يتركنا :عمي ..انا الاميرة هيرانة ابنة الأميرة جنة التي اخبرتني عنها ..قلت انك تحترمها و تقدرها أليس كذلك ..الفتى الذي معي لم يختطفني بل هربنا معا ..سمعت من احد يعرف امي جيدا انها لن تكون سعيدة بزواجي بهذه الطريقة .. لذا قررت الهرب ..ارجوك ساعدنا من اجل والدتي يا عم ..انا علي كشف سبب وفاتها أيضا لقد اخبرتك من قبل ان لا احد في القصر يعلم بالأمر ألا تريد مساعدتي لكشف هذا اللغز ..أجبني ..عمي ارجوك .

لم يُصدر أي صوت من العم لذا اعتقدت أنه ذهب و تركنا ,و عندما كنا أنا و عين عائدين أدراجنا فتح الباب و توجه نحونا قائلا :ان اردتما ألا يمسك بكما الحراس عليكما الاختباء اسفل القش ..حسنا ؟

نظرنا انا و عين لبعضنا و ابتسمنا فقد قرر العم مساعدتنا اخيرا ,قمنا بشكره مرارا و تكرارا و ركضنا نحو العربة و استلقينا ليقوم بعدها بتغطيتنا بالقش فقط ريثما نعبر الساق و نبتعد عنهم .

اثناء مرورنا التزمت و عين الصمت التام ,حاولنا كبت انفاسنا كي لا يشعروا بأي شيء ,لم اتمنى ان اكون في مكان العم الآن لابد انه خائف جدا .

سمعنا صوت احدهم يأمر العم بالتوقف ,هل هو حارس يا ترى ؟

تسارعت دقات قلبي من خوف ان يُكشف أمرنا ,سأل الرجل العم عن الوجهة فأخبره أنه متجه إلى القصر ليزودهم بالقش .

لم يكتفي بذلك فسأله عن هويته ,فأجاب العم انه اعتاد ان يفعل هذا مذ كان شابا و هو لا يريد التأخر كي يصل في موعد العشاء ليتناول الطعام مع عائلته ,أحد الحراس طلب من زميله التوقف عن طرح الاسئلة و امر العم بمتابعة طريقه .

لقد نجونا ,الآن يمكننا الخروج من كومة القش هذه و استنشاق بعض الهواء النقي .

طلبنا من العم ايصالنا الى وادي الدماء و بعد إلحاح كبير وافق ,هو لم يذهب إلى ذلك المكان من قبل لذا كان خائفا ,لكنني اخبرته اننا نمنا فيه حتى و لم نرى أي اشباح او سمعنا أي صوت فكلها تبقى اساطير و اشاعات .

حين وصلنا ودعنا العم و تمنين له ليلة سعيدة ,كان المكان هادئا جدا هذه المرة ,اسرعنا الى الكهف للقاء العم فقد رغبنا في اخباره بما حصل معنا لكننا لم نجده و لم نجد أغراضه أيضا ,رحل و تركنا ,لا اصدق ذلك ,وجدت بحر مربوطا داخل الكهف و قد أنهى كل التفاح الذي كنا نملكه ,بجانب بحر وجدت سيفا مرميا مع رسالة معه .

فتحت الرسالة لأقرئها فاتضح أنها من العم و يقول فيها :

عزيزتي الأميرة هيرانة

أعلم ان رحيلي هكذا لن يعجبك لكن ارجوك ان تتفهمي موقفي ,انا واثق ان الحرس يبحثون عنكما حاليا و ليست سوى مسألة وقت حتى يأتوا الى الوادي لإيجادكما ,كان علي العودة الى عرب بشكل عاجل لذا آسف لم أبقى لأودعكما ,أيضا هذا السيف الذي بين يديك هو سيف والدتك الثمين ,أرجو انك تتذكرينه فقد كانت امك تحبه كثيرا ,أخذته معي كي لا يستولي الحاكم عليه كما فعل بباقي أغراضها ,إنه ملكك الآن ,هو من حقك انت ,تدربي جيدا عليه و عندها لن تقهري أبدا ,إلى اللقاء يا سمو الاميرة .

تحيات العم المخلص

لا يهم ,الآن أنا لدي مهمة أولى علي الاهتمام بها ,امسكت السيف و نظرت اليه جيدا انا اتذكره ,انه سيف امي فعلا ,انه نفس السيف من الحادثة ,اتذكر كم كان ثقيلا وقتها ,الان انا كبيرة كفاية لحمله و القتال به ,السيف يحمل روح صاحبه و يتغذى على دماء اعدائه ,هذا ما اعتاد العم اخبارنا به أنا و شهاب قبل بدء درس المبارزة .

علي اخراج الخريطة و البحث عن طريق نسير فيه حيث لا يجدنا الحراس ,نظر عين جيدا للخريطة و قال مشيرا إلى الصحراء :ان عبور الصحراء سيكون آمن لنا كي لا يجدنا الحراس ..كما انها الطريق الاقرب الذي نسلكه للوصول اسرع إلى أراضي البابالون.

نظرت إلى الخريطة و حاولت البحث عن طريق آخر فانا لا اريد سلك هذا الطريق ,حين لم اقل شيئا و ربما بدى علي بعض القلق سألني عين :ما الأمر ..هل من خطب ما ؟

_الحقيقة ..إن الصحراء خطيرة جدا لنسلُكها بمفردنا ..ماذا لو اضعنا الطريق و لم نعرف كيف نعود .

_لا تقلقِ فمعنا الخريطة ..كما أنك تكونين قد عبرت الصحراء من قبل أنا اتذكر أني رأيتك في شيبة من قبل .

أجل كنت وقتها صغيرة و لا اتذكر الامر جيدا ..لكن في ذلك الوقت حتى شقيقي الاكبر و لم يستطع تولي امره دون مساعدة .

_لكننا لا نملك خيارا آخر ..اذا ذهبنا من الجبال ستكون مخاطرة أيضا كما أن الامر سيستغرق طويلا و نحن لا وقت لدينا لإضاعته .

_معك حق ولكن ..

_لا تقلقي سنكون بخير اعدك .

رغم انني لم اكن مرتاحة بالكامل و بقي شيء في قلبي يخبرني انه ليس علينا خوض هذه المخاطرة إلا أننا لا نملك خيارا آخر و لو بقينا في الوادي لأُمسك بنا لذا الاحسن ان نتحرك بأسرع وقت .

في صباح اليوم التالي انطلقت و عين إلى صحراء قرطبة ,اخذنا معنا كميات كبيرة من الماء و الطعام , سرنا طيلة يوم كامل و حاولنا الاقتصاد في الماء لأقصى حد فرحلتنا لا تزال طويلة .

سرنا لمدة ثلاثة أيام لكننا لم نصل الى أي مكان ,بدأنا نشعر بالقلق ان كنا قد أضعنا الطريق فعلا ام نحن على الطريق الصحيح .

بعدما جلسنا لنرتاح قليلا نظرت إلى ما تبقى لنا من الماء ,يكفي ليوم واحد اخر فقط ,ان استمررنا هكذا فسينفد منا و لن يمكننا مواصلة السير أو حتى العودة .

اخرجت الخريطة للمرة المائة في هذه الرحلة و رحت ابحث جيدا على المعالم التي مررنا بها من تلال أو نباتات او أي شيء مميز موضح في الخريطة ,لكنني لم استطع تمييز مكاننا .

نظرت الى عين الذي بدا متعبا جدا لكنه لا يزال يدعي القوة ,يال ارادته هذه ,حتى انه لم يشرب الكثير من الماء مقارنة بي ,انه يريد الحفاظ على وعده على ما اعتقد .

قلت و انا امرر له قِربة مليئة بالماء :خذ ..عليك شرب القليل تبدو مجهدا .

أبعدها قائلا :لا باس انا بخير لست عطشا .

عناده هذا سيقتله يوما ما ,ان كان عليه شرب الماء فعليه شربه ,قلت بغضب :الى متى ستظل عنيدا هكذا ..لقد كنت اراقبك طول الرحلة ..و لم ارك تشرب الكثير ..أنت لا تنوي الموت عطشا أليس كذلك ..لقد وعدتني ان نكون بخير و هذا يعني انك ستكون بخير انت ايضا .

نظر إلي نظرة جانبية ثم قال :حسنا ليس عليك ان تكوني مزعجة هكذا كل مرة رفضت مساعدتك .

_ماذا قلت ؟

أليس هذا صحيحا ..عندما كنا في الوادي ايضا .. غضبت لأنني قلت لك ان تكفي عن مساعدتي و تهتمي بشؤونك ..انت تريدين لعب دور البطلة لا تظني اني صدقت حين قلت ان الهروب من القصر كان رغبتك منذ البداية .

_هل تسمع اذناك ما تقوله يا عين ..انا لا افكر هكذا كل ما اردته هو ان لا اشعرك بالذنب يا لك من ناكر للجميل .

غضبت بشدة لما قاله هل هذا تأثير الحرارة و العطش أم ان ما قاله كان حقا ما يفكر به اتجاهي "اريد لعب دور البطلة "هراء ,انا اريد مساعدته حقا ,ربما كان من المفترض تركه ليموت كي يكون مرتاحا .

تركته و سرت بعيدا لأهدأ فإذا بقيت هناك لكنا دخلنا في شجار كبير .

جلست قليلا محاولة استجماع افكاري لقد جعلني انسى للحظة أننا ضائعان ,أخرجت الخريطة و دققت فيها جيدا ,رسمت دائرة حول حدود شيبة و البابالون و حاولت ايجاد طريق اخر مؤدية اليها .

فجأة سمعت صوتا غريبا ,التفتُ فرأيت افعى تزحف باتجاهي ,لا اصدق عيني كم هي كبيرة ,وقفت بروية و سرت ببطء لاتفاداها ,لكنها ضاعفت سرعتها ففقدت اعصابي و ركضت بسرعة لابتعد عنها , صرخت بكل قوتي لربما يسمعني عين فيأتي لمساعدتي ,نظرت خلفي فوجدت انها لا تزال تلاحقني ,و دون ان انتبه تعثرت بشيء ما فوقعت من على التلة الرملية و تدحرجت الى الاسفل لأسقط في مكان ما , كنت قد ابتلعت بعض الرمال لكن السيئ في الأمر انني قد احتجزت في الرمال المتحركة ,يال حظي السيئ ,لا يمكن ان يكون الامر اكثر سوءا .

صرخت بأعلى صوتي منادية عين كي يأتي لنجدتي لكن دون جدوى فهو لم يجب ندائي ,استمررت في الصراخ و طلب المساعدة ,تخيلت انني سأموت مدفونة هنا و لن يعلم احد حتى بمكان جثتي ,سأدخل التاريخ بصفتي الاميرة الوحيدة التي ماتت دون ان توجد جثتها و تدفن في الضريح الملكي مع اجدادها القدماء .

وصلت الرمال إلى صدري لا اعتقد انه سيمضي الكثير حتى تبتلعني بالكامل ,ما هذه الميتة ,إنها مثيرة للشفقة لمحاربةٍ لا تهاب شيئا مثلي .

عندما فقدت الأمل تماما ,مُنحت فرصة أخرى لأعيش ,سمعت صوتا غريبا كصوت أجنحة تحلق , رأيت ظلا غريبا متجسدا على الرمال فلم أعرف بالضبط ما يكون هذا الكائن ,رفعت رأسي بخوف لأرى ما يكون فشاهدت طائرا مجنحا ضخما يحلق فوقي أطلق صيحة مخيفة أكثر من كونها مطمئنة , حلق بعيدا فجأة ثم دون سابق انذار نزل بالقرب مني نزولا ملحميا إلى ابعد مستوى ,لكنه لم يكن لوحده , فقد نزل شخص كان يمتطيه و نزع قبعة غريبة المظهر كان يضعها على رأسه ,لم استطع رؤية وجهه جيدا بسبب اشعة الشمس لكن حين تقدم صدمت بالفعل فانا لم أرى مثل هذا من قبل .

انها امرأة ,نزعت العباءة التي تغطيها و قامت بلفها مثل الحبل و رمتها نحوي و طلبت مني أن أمسكها جيدا ,فعلت ما امرتني به ثم بعد قليل أخذتْ تسحبني من الرمال المتحركة ببطء حتى اصبحتُ حرة تماما ,وقفتُ امامها و علامات الدهشة تخيم على وجهي ,نظرتْ إلي و ضحكتْ قائلة :ما الأمر ألم تري شخصا أخضر البشرة من قبل .

أشارت إلى طائرها متابعة :ام انك لم تري واحدا من الهاتسغوبتريكس من قبل ..أنا لا ألومك فهم نادروا الوجود ..خاصتي حصلت عليه من مكان بعيد جدا بعدما حاربت جيشا من آكلي لحاء الشجر .

_هاتسغو ماذا ..و من هم آكلوا لحاء الشجر ..انا لم افهم اي شيء .

قالت غير مبالية بالأسئلة التي جعلني اشكلها من كلامها الغريب :انه يعتبر حيواني الاليف يمكنك ان تناديه تيرو فهو من عائلة التيروصورات .

_حسنا اتقولين ان هذا الطائر المجنح الضخم غريب الشكل و المرعب الى حد ما و الذي يبدو متوحشا و يستطيع طحن جمجمتي بأسنانه تلك يكون حيوانك الأليف ..تعتنين به كأن تُربين كلبا أو قطة.

_اجل بالضبط ..لا تنظري إلى شكله انه فعلا يملك قلبا طيبا جدا و هو أوفى من الكلاب و ألطف من القطط حتى .

_حقا ..انه لا يبدو كذلك .

_لا تقلق يمكنك الاقتراب منه لن يعضك .

_لا شكرا انا بخير .

_حسنا ما الذي تفعلينه وحدك في الصحراء ؟

لقد نسيت للحظة امر عين ربما يكون يبحث عني الآن ,ركضت بسرعة لأصعد التل و ابحث عنه بدوري لكنني لم اجده ,استمرت المرأة الخضراء في اللحاق بي هي و طائرها الغريب و بعدما أنهكتُ من البحث جلست لأستريح قليلا ,تقدمت نحوي و قالت :انت تبحثين عن شخص ما ..ما رأيك ان نساعدك انا و تيرو لتجديه سريعا .

لو طار بنا ذلك الشيء لوجدنا عين و بحر بسهولة و لكن كيف لي ان اثق بها و اركب هذا الشيء ربما ستقوم بخطفي أو تقديمي كعشاء له .

لكنني سأموت اذا لم اجده ايضا لذا لا خيار لدي ,نهضت و نفضت الرمل عن ثيابي و توجهت إلى المرأة ,مددت يدي لأصافحها ,بالنسبة لي سأعتبر هذه بداية جيدة ,قلت :أنا أدعى ..

فكرت انه ليس علي اعطاءها اسمي الحقيقي لذا قلت مجددا :اسمي هيرا ..سررت بالتعرف اليك .

اجابت و هي ترفع يدها لمصافحتي :اما انا فادعى ڤرين ..اعظم صائدة جوائز عرفها العالم .

_حقا ..لكنني لم اسمع بك من قبل .

_هذا لاني لا احب الشهرة يا عزيزتي ..الشهرة تعني أعداءً إن كنت تفهمين قصدي .

_اجل فهمت ..هل يمكنك مساعدتي في ايجاد صديقي لكني لا املك اي مال لأدفع لك .

_لا عليك يا ذات العيون الملونة لقد احببتك لسبب ما لذا لن اطلب منك اي شيء .

ركبت معها فوق طائرها الغريب و طار بنا عاليا ,لم يسبق لي ان ابتعدت عن الأرض بهذا القدر من العلو ,انه شعور رائع حقا ,اعتقد انه شعور الحرية لدرجة ما .

من بعيد انتبهت لوجود شخص ما فطلبت من قرين ان تهبط بنا ,و حين فعلت رأيت عين مستلقيا على الرمال دون حركة ,أصبت بالخوف الشديد ,هل اصابه مكروه يا ترى ؟

ركضت نحوه بسرعة و انا اصرخ باسمه ,نظرت اليه فوجدته فاقد الوعي ,ربما تكون قد اصابته ضربة شمس ,لمست وجهه فوجدت ان حرارته مرتفعة .

تقدمت قرين نحوي و قالت :يحصل هذا عادة في الصحراء ..علينا وضعه بعيدا عن الشمس .

نادت على طائرها ليتقدم و اشارت له ليفتح جناحيه ,أصبح طائرها فجأة مثل الشمسية و صنع ظلا واسعا .

نقلنا عين إلى أسفل جناحي ذلك الطائر ثم أخذت ما تبقى لنا من ماء و سقيته اياه كما مسحت وجهه و ذراعيه بالقليل منه فعلينا إنزال حرارته بسرعة و إلا لن يستفيق .

قالت قرين :ما الذي جعلكما تقطعان الصحراء لوحدكما تبدوان صغيرين جدا لتكونا من الرحالة .

_لسنا من الرحالة نحن كنا متجهين الى مكان ما .

_أين يقع هذا المكان ؟

اخرجت الخريطة و اريتها اين وضعت الدائرة ,قالت و هي تنظر إلى عين :لا أظن انكما تملكان المزيد من المياه لتكملوا السير الى هناك كما ان هذا الفتى لن يستطيع التحمل اكثر ..من الأفضل لكما ان تعودا .

امسكت بها قبل ان تغادر و قلت :اعلم اننا سنسبب لك مشكلة و لكن رغم ذلك اعذري وقاحتي لكنني آمرك ان تأخذينا الى هذا المكان .

لم أكن في موضع ذي سلطة ابدا لكنني استمررت في المحافظة على رباطة جأشي ,تابعت :اسمعي .. الحقيقة انني لست مجردة فتاة صغيرة تسير في الصحراء ..انا اكون الاميرة هيرانة القرطبية ابنة حاكم قرطبة و إذا ساعدتنا اعدك ان اغدقك بمال وفير لن تضطر حينها للتفكير حيال أي أمر مستقبلا عدى كيف ستنفقين ذلك المال .

ضحكت المرأة باستهزاء قائلة :هل تمزحين ..اميرة ماذا ..اعترف انني كدت اصدقك ..ان تمثيلك متقن فعلا .

_انا لا امزح ..الحقيقة انني في مهمة سرية لهذا ابدو بهذا الشكل ..صدقيني انت لن تخسري اي شيء ان ساعدتنا .

استمرت في الضحك فأضفت :و هذا المستلقي هناك ليس شخصا عاديا أيضا ..انه امير شيبة و ولي العهد .

انفجرت من الضحك قائلة :توقفي ستقتلينني ..انظري اليه لم يستطع تحمل ضربة شمس و اغمي عليه كالفتيات الصغيرات فكيف يكون ابن حاكم شيبة العظيم ..لقد سمعت ان جل اولاده من كبار القامة و كلهم اقوياء ذو بنية ضخمة فكيف يكون هو ولي العهد .

فجأة استفاق عين من غيبوبته و فتح عينيه ببطء فتجمعنا حوله لنرى ان كان بخير ,نظر نحونا بفراغ ثم اتسعت عيناه حين قابلتا ڤرين التي تقف امامه مباشرة ,صرخ قائلا :هيرانة .. هل ترين ما أرى ..هذا الوحش الاخضر بجانبك ..انه ..انها المرأة الزومبي .

الفصل الخامس

البابالون

المرأة الزومبي ,انه اسم ينطبق عليها تماما ,لكنه بدا وقحا قليلا , هل ستساعدنا المرأة الزومبي , بالنظر إلى وجهها حين سمعت لقبها الجديد فانا لا اعتقد ذلك .

ركضتُ نحو عين و أمسكت فمه بكلتا يدي ,و قلت علني أصلح الوضع :ما الذي تقوله يا عين ..التي أمامك الآن تكون أعظم صائدة جوائز في المنطقة ..كما أنها ساعدتني لأجدك إنها منقذتنا و صديقتنا الجديدة .

قالت ڤرين بينما تركب طائرها :لا تقلقي ..لقد تعودت على هذه المسميات ..ليست أول مرة يسخر فيها احد من لون بشرتي .

نظرت إلى عين الذي بدا عليه الندم ,وقف على قدميه فجأة و توجه نحو ڤرين ثم قال و هو يربت على طائرها برفق :أنا اعتذر لم اقصد جرحك ..أتعلمين ..معك حق الإنسان يتعود على هذه المسميات فانا أيضا ليست أول مرة يشبهني احد بالفتاة الضعيفة .

بدا على عين الحزن الشديد لقد سمعنا و نحن نتحدث ,تقدمت نحوهما وقلت :صدقي أو لا تصدقي إنني فعلا أميرة قرطبة و هو يكون أمير شيبة ..إنها الحقيقة .

نزلت ڤرين من طائرها و قالت موجهة الحديث إلي :اسمعي ..لا يهمن بمقدار ذرة من تكونين طالما تستطيعين الدفع لقاء أتعابي ..ما الذي بإمكانك أن تقدميه لي لتدفعي أجرة الرحلة .

نظرت نحو أغراضنا المحمولة على بحر و لم أفكر انه يوجد أي شيء ثمين يمكنني منحها إياه ,كل ما املكه هو سيف والدتي و قلادتها ,لم أكن أريد منحها أيا منهما و لكن حياتنا جميعا متوقف على هذه الرحلة و على الوصول إلى البابالون.

قلت و أنا انزع قلادة والدتي من عنقي و أقدمها لها :خذي ..إنها قلادة والدتي الأميرة جنة و هي تساوي الكثير على حد علمي ..لكن ..

أمسكت يدها قبل أن تلمس القلادة و قلت :إنني ارهنها عندك ليس إلا ..حين يتوفر لدي المال سوف ادفع لك ..لذا إياك و بيعها ..مفهوم .

تركتُ يدها بعدما تعهدت أنها ستعيدها ,أخرجنا بعض الحبال و ربطنا بحر بالطائر جيدا ثم ركبتُ و عين مع ڤرين ,لقد سبق و امتطيت هذا الطائر لذا المرة الثانية لم تكن مخيفة ,أما بالنسبة لعين فمرته الأولى كانت مرعبة ,انه لم يكفَّ عن الصراخ حتى عندما استقرينا في الجو ,يا له من جبان .

في صباح اليوم التالي استيقظت و عين لنجد أنفسنا نحلق فوق أراضٍ زهرية اللون ,هل هذا هو لون العشب هنا ,بدأنا نحلق بالقرب من الأرض فلاحظنا أن أوراق الأشجار أيضا لونها زهري ,ليست الأشجار فقط حتى الحشرات و مياه الأنهار ,بعض الطيور التي رأيناها كانت زهرية أيضا ,نمنا و

استيقظنا فوجدنا أنفسنا في نسخة غريبة من الحياة التي نعرفها ,إنها الحياة باللون الزهري فقط ,ليست الحياة الملونة التي عهدناها .

ظهرت بعض المباني الغريبة من بعيد ,و شاهدنا بعض الأشياء الطائرة ,حقا انه مكان عجيب .

هبطنا في مكان قريب من تلك المباني ,لم ترد قرين دخول القرية بل فضلت الجلوس بجانب الأشجار و انتظارنا مع بحر و تيرو ,ربما تكون متعبة من الرحلة أو هي فقط لا تهتم .

مشيت أنا وعين باتجاه القرية آملين أن يكون شعب البابالون طيبا مثلما وصفتهم تلك المرأة .

كنا خائفين بالفعل فالاختلاف أصبح حقا امرا مخيفا و لا يمكن تقبله بسهولة ,حين تقدمنا و دخلنا القرية رأينا نساء بأجنحة تشبه أجنحة الفراشات لكن بحجم أكبر ,كن تطِرن يمينا و يسارا دون توقف ,بدين مشغولات و لديهن أعمال كثيرة ليقمن بها ,ظهر المشهد كأننا داخل خلية نحل .

نسير و ننظر في كل اتجاه كي لا يفوتنا أي شيء ,و لم نكن نكف عن إظهار دهشتنا بكل ما نراه ,لم تنتبه لنا أي منهن بسبب انشغالهن .

دخلنا مكانا بدا مفتوحا على عكس بعض المباني المغلقة ,كانت توجد فيه امرأة منهم تُخرج كتباً من بعض الصناديق و تطير عاليا لتضعهم في رفوف مكتبة ضخمة ,لقد سببت لي دهشة كبيرة فانا لم يسبق لي في حياتي أن رأيت مكتبة كبيرة و مملوءة بكل هذه الأعداد من الكتب ,عليك رفع راسك لترى نهايتها .

حين انتبهت المرأة لوجودنا هبطت إلينا و علامات الاستفهام بادية على وجهها ,توقعت أنها ستسألنا حين تفتح فمها لتتكلم .

سألت :مرحبا ..كيف يمكنني مساعدتكما ..هل جئتما من مكان بعيدا بحثا عن كتاب ما ..لا تقلقا معظم الكتب النادرة ستجدون نسخة منها في مكتبتنا فشعارنا هو ..معا لأجل معرفة مكتملة .

بعد التفكير أجبتها :الحقيقة نحن لم نأتي من اجل كتاب ما ..نحن فقط ..زائران ..نعم نحن زائران .

فرحت المرأة فجأة و أمسكت يدِ قائلة :زائران ..تقصدين أنكما من السياح ..أهلا بكما ..لقد مضت فترة مذ رأيت أناسا أجانب ..ها اخبريني ..من أي مكان أنت ؟

أجبتها :من قرطبة ..كلانا من قرطبة .

لم أكن واثقة من ردة فعلها إن أخبرتها أن عين من شيبة لذا من الأفضل إخفاء الأمر .

قال عين :بما أننا من السياح ..هل يمكنك إرشادنا إلى بعض المعالم السياحية التي لديكم .

أجابت الآنسة و الابتسامة لم تغب عن وجهها :بكل سرور ..لقد أتيتم إلى الشخص المناسب .

طارت فجأة و توجهت إلى رفوف الكتب تبحث عن كتاب ما على الأرجح ,و حين عثرت عليه نزلت إلينا و قالت :تفضلا هذا كتاب مفيد جدا للسياح ..تجدون فيه جميع معالم شعب البابالون و موقعها على الخريطة .

سألتُ مستغربة :هل تعطيننا إياه مجانا أم علينا أن ندفع مقابله .

ضحكت الآنسة و أجابت :أنتما حقا لا تعرفان شيئا عن البابالون .. نحن لا نعتمد على أسلوب الدفع بالنقود ..نحن نقوم بالمقايضة هنا ..إذا امتلك شخص ما أمرا أردنا الحصول عليه أعطيناه في المقابل أمرا هو يريد الحصول عليه .

سألت باستغراب مجددا :هل تعنين أن علينا إعطاءك أمرا مقابل منحنا الكتاب عدا النقود ؟

أجابت :اجل ..هكذا الحياة هنا .

سأل عين :إذن ما الذي تحتاجينه ربما يمكننا توفيره لك فنحن في الحقيقة لا نملك أي شيء ذي قيمة لمنحك إياه .

فكرت الآنسة و فكرت ,فجأة تكلمت :وجدتها ..الحقيقة أنني أحتاج بعض المساعدة .

نظرت و عين باستغراب فتابعتْ :لا تقلقا ليس أمرا صعبا ..غدا يكون زفاف إحدى صديقاتي ..و علي تجهيز هدية الزواج ..المشكلة هي أنني لا اعرف ما أقدمه لهما ..إنها صديقة مقربة و أريد منحها و زوجها شيئا مميزا .

سأل عين :كيف تتوقعين منا معرفة الهدية المناسبة و أنت نفسك لم تستطيع اختيارها ..غريب قلتي إنها صديقتك المقربة .

قالت الآنسة بانفعال :الأمر ليس كذلك ..نحن بالفعل مقربتان و لكن المشكلة تكمن في زوجها ..انه من العَرب ..و أنتما كذلك من العَرب لذا فكرت أنكما ستنصحانني كي لا أحضر الهدية الخطأ .

تفاجأت و عين بما سمعناه ,كيف يعقل أن يتزوج رجل من العَرب بامرأة من البابالون , نحن سمعنا بزواج بين القبائل و لكن زواج بين الشعوب كان الأمر فريدا من نوعه .

سأل عين :هل هذا متعارف عندكم ..أعني الزواج من الشعوب الأخرى ؟

أجابت :كيف يكون متعارفا إذا كان الزواج نفسه غير متعارف لدينا .

قلت و عين في نفس الوقت :الزواج ليس متعارفا ؟

أجل .. فشعب البابالون ليس من محبي فكرة الزواج ..فتاريخ ظلم الرجال للمرأة معروف ..إذا لما يجب علينا إدخال كائن لسنا بحاجته إلى حياتنا .

قلت :ماذا عن الأطفال ..كيف تتكاثرون إذا ؟

_نحن لا ننجب الأطفال حتى إذا تزوجنا ..توجد شجرة مقدسة لدى شعب البابالون تدعى شجرة الميلاد ..تنمو منها شرانق و تتطور بمرور الأسابيع لتتمزق بعدها و تخرج منها فتاة صغيرة بجناحين صغيرين و حين تكبر تصبح سيدة بابالون كاملة ..هكذا يتكاثر شعبنا نحن لسنا في حاجة الرجال لفعل ذلك ..لكن بعضنا من تتأثر بالقصص و الروايات الخاصة بالشعوب الأخرى ..تلك التي تمجد الرجال و

تروي عن الحب المستحيل و إلى ما هنالك ..هذه الروايات جعلت بعضا منا تشعر بالفضول حول هذا الكائن و هذا ما جعلنا نُدرِجُ مادة جديدة في قوانين مملكتنا تتيح للبابالون الزواج وفق شروط طبعا .. أهمها أن يتعهد الرجل برهن حياته إن حصلت مشكلة و تأذت البابالون بأي شكل كان من هذا الزواج .

قال عين :إذا تعاقبون الرجل إذا أخطا معكم .

أجل إنها القواعد ..و إلا لن نسمح بفكرة الزواج أبدا فهدفنا الأساسي هو حماية شعبنا .

_تحمون شعبكم على حساب حياة الرجال و كرامتهم .

قاطعت عين فقد بدا غاضبا لطريقة تفكيرهم و لم أرد أن يُفسد علينا الأمر ,قلتُ :حسنا بإمكاننا مساعدتك في اختيار الهدية ..اخبريني من أي قبيلة يكون العريس ..إنها معلومة مهمة .

_اعتقد انه من عُرب ..هذا ما أخبرتني به صديقتي ..لقد التقت به عندما ذهبت إليهم كمبعوث لتسليم بعض الكتب و الوثائق لحاكمهم .

فكرت قليلا ثم قلت :حسنا إذا ..سنعود إذا وجدنا الهدية المناسبة .

ودعنا الآنسة و خرجنا من المكتبة للبحث عن هدية الزفاف ,كنت قد فكرت ما هو المناسب للعريس كونه فردا عربيا هاجر من موطنه ليعيش مع زوجته هنا ,لا بد انه سيشعر بالحنين لموطنه لذا من الأفضل إيجاد هدية تذكره بالمكان الذي ولد فيه .

جلست و عين نتبادل الأفكار ,لكن لا احد منا قدم اقتراحا مميزا ,كلها أفكار عادية .

كنا نجلس في حديقة تحيطها العديد من الأشجار و أحواض الزهور وردية اللون ,بجانبنا كان يوجد حوض تزرع فيه الخزامى ,كانت زهرية ايضا و قد نَمَتْ بشكل جيد حتى أن رائحتها قوية جدا و عطرة .

تذكرت فجأة أين شممت هذه الرائحة من قبل ,في إحدى المرات حين كانت أمي توضب غرفتها ,كنت اجلس بجانبها أساعدها في ترتيب بعض مجوهراتها ,فلمحت انه يوجد شيء في الصندوق عدى مجوهراتها ,كانت زجاجة صغيرة من العطر .

سألت أمي عنها فأجابت :انه عطري المفضل يا هيرانة .. أتعلمين لما ..هذا لأنه يحمل رائحة موطني عُرب ..في عرب تنمو أزهار الخزامى بكثرة و هي مشهورة جدا ..حين استنشق هذا العطر أحس أني في قبيلتي و يزول شعور الشوق للحظات .

كانت أمي تشتاق إلى عُرب كثيرا لكن هذا العطر ساعدها ,إنه الهدية المثالية التي نقدمها لإسعاد العريس .

نهضت بسرعة و بدأت اجمع بعضا من الأزهار ,وضعتها في منديل صغير ثم ركضت عائدة إلى المكتبة ,ركض عين خلفي دون أن يفهم ما أصابني ,لكن في الحقيقة أنا أيضا لم افهم ما أصابني .

عندما وصلنا إلى المكتبة طلبت من الآنسة إحضار المستلزمات التي احتاجها لتحضير عطر الخزامى , سوف نصنعه عن طريق التقطير و ذلك بجمع بخار الزهور في زجاجة صغيرة لنحصل على عطر نقي و مركز .

حين جهزنا الهدية قدمت لنا الآنسة الكتاب في المقابل ,كما قامت بدعوتنا أيضا لحضور الزفاف قائلة : عليكم المجيء قطعا ..ستكون هنالك وليمة على شرف العريس لذا سيكون أكلا عربيا ..كما أنكما ستستمتعان .

شكرناها على الدعوة و غادرنا بسرعة ,كانت لدينا مهمة علينا انجازها و لا وقت لإضاعته ,بحثنا في الكتاب عن مكان قصر حاكمة البابالون , وجدنا صفحة في الكتاب عليها صورة للقصر حينها عدنا إلى المرأة الزومبي لتطير بنا إليه فقد كان يقع في أعلى جبل زهري اللون .

تمنيت لو كان رسام القصر معنا الآن حتى يرسم القصر لتكون لي صورة لهذا المبنى المميز فهو يشبه قصور الروايات بحق ,كان أسطوريا لا بل خرافيا مثل الخيال .

أدخلتنا الحارسات بعد أن طلبنا مقابلة الحاكمة ,أما ڤرين فظلت في انتظارنا في حديقة القصر.

عين لم يعجبه شكل القصر كثيرا ,ماذا أقول ؟ حين تكون رجلا تكون معميا عن الجمال .

لا ألومه فهو ليس النمط الذي يحبه الرجال فقد كانت تدرجات اللون الزهري تغطي كل شيء ليس فقط الجدران أو الأرضية حتى الأثاث كان زهريا و كذلك لباس العاملات .

دخلنا إلى قاعة كبيرة ,لو رآها معماريو القصر لخجلوا من أنفسهم ,إنها أجمل بمائة مرة من قاعة اجتماعاتنا .

رأينا امرأة كبيرة في السن تجلس على عرش كبير ذهبي ,عندما وقفت و فردت جناحيها ذهلت و عين لمدى جمالهما و اتساعهما ,لا شك أنها الملكة ,تقدمت نحونا ببطء و قالت :إذا أنت تكونين أميرة قرطبة ابنة حاكم قرطبة جلال الدين ..أليس كذلك ؟

_اجل جلالتك ..ادعى هيرانة.

_و من هو الذي معك ؟

نظرت إلى عين و أشرت له أن يعبر عن احترامه لكنه أبى و قال :أنا الأمير عين ..آخر أولاد حاكم شيبة الحالي .

نظرت الملكة نحوي ثم ابتسمت ,قالت و هي تعود إلى عرشها لتجلس عليه :و ما الذي جعل أميرة قرطبية و أميرا شيبيا يطلبون لقائي ؟

قلت بارتباك واضح :الحقيقة ..جلالتك ..لقد سمعنا أن ..أنت تنوين الهجوم على قبيلة شيبة ..هل هذا صحيح ؟

_أجل ..و ماذا في ذلك ؟

غضب عين و لم يتمالك أعصابه فقال :كيف تجرئين ..شيبة لم تؤذكم أبدا حتى عندما قمتم باختطاف إحدى نسائنا فقد صمتنا تجنبا لاندلاع الحرب .

ضحكت الملكة ثم نظرت إلينا نظرة حادة و قالت :أولا أيها الشاب المنفعل ..اسم المرأة هو ياسمين و نحن لم نختطفها بل هي من أتت إلينا بملء إرادتها هربا من بطش قوانينكم التي تذل المرأة و تسلبها حقوقها ..ثانيا انتم لم تصمتوا تجنبا للحرب بل لأنكم جبناء و تعلمون أنكم لستم ندا لنا ..و أخيرا ..كل ما طلبناه من والدك الحاكم كان منح النساء حقوقهن لكن ماذا فعل هو ..لقد تجاهلنا ..لذا حين تندلع الحرب و يموت رجالكم الأعزاء سيتعلم ألا يتجاهل أي امرأة مجددا في المستقبل .

أمسكت بعين الذي كان غاضبا جدا من كلامها ,ماذا سنفعل ؟ قدِمنا لعقد جلسة صلح و لكن الأمر تعقد أكثر ,قلت محاولة تهدئة الطرفين :جلالتك ..لا يجب الحكم على الكتاب من غلافه لما لا توقفين الحرب مؤقتا و تجلسين على طاولة للتفاوض مع حاكم شيبة أنا واثقة أنكم ستجدون حلا وسطا ..و أيضا نحن لم نأت إلى هنا لأننا في موقف ضعف بل نحن هنا حقا لتجنب هذه الحرب لأنها إن بدأت ستتدخل جميع قبائل العرب و لن نكون الطرف الوحيد الذي ستسفك دماؤه ..عليك أن تفكري بشعبك أيضا جلالتك ..و الحل الأمثل لحمايته هو تجنب الحرب .

أجابت الحاكمة و قد بدت سعيدة لسبب ما :أنت متحدثة جيدة ..سعيدة انك لا تشبهين والدتك في الشكل فقط فالعالم حقا بحاجة لامرأة بمثل أخلاق و رجاحة عقل الأميرة جنة ..إنها امرأة مميزة .

_سمعت انك قابلت والدتي من قبل ..إذا كان هذا صحيحا .

_اجل فقط كانت مثلك ..حريصة على حياة شعبها ..خاصة النساء منهم ..لكن اعذريني أنني لا استطيع المساعدة الآن .

بدا أنها تعرف شيئا و لكنها لم ترد إخباري ,امسكني عين و اخذ يجرني لنغادر القصر ,لم يبدو في عقله بتاتا ,ماذا أصابه يا ترى ؟

ظل صامتا طول رحلة عودتنا إلى القرية , حين نزلنا على الأرض قال و كأن غضبه لن يزول البتة : إسمعي ..شيبة لن تنسحب من الحرب سوف نقاتلهم حتى آخر قطرة من دمنا ..اقتراح الذهاب و التفاوض معهم كان فكرة سيئة منذ البداية و أنا لم أوافق عليها لكنني فكرت أنها ربما تكون فرصتنا الأخيرة أما الآن فأنا لا آبه إن مت على ارض المعركة حتى ..أنا لن استسلم لهم ..ليست هذه مبادئ رجال شيبة ..التوسل لامرأة كي تتركنا و شأننا ..هكذا سنبدو إن جلسنا للتشاور معهم ..سيفقد شعبنا كل ثقته بنا .

_لكنني لا أريد أن يموت الرجال و ترمل النساء ..كما لا أريد أن يعيش الأطفال الم فقدان عائلاتهم ..إن الأمر لا يتعلق بك و بتلك المرأة فقط ..إنه مصير شعب ..ألا تعي عما نتحدث الآن ..إنها الحرب .. ربما أنت لا تعرف معناها الحقيقي لأنك لم تعشها و لكن شعب قرطبة عانى منها لقرون مضت و ما لبثوا أن أحسوا بشعور الأمان و الاستقرار حتى تريد أن تنزعه عنهم ..لماذا سيموت أناس بسبب كبريائك

الذي يرفض الجلوس و التفاوض ..برأيي إن التاريخ سيكتب أنكم كنت حكماء جدا حين رفضتم بدأ الحرب و قبلتم بشروط البابالون ..على الأقل سيعيش من سيقرأ تاريخكم .

_أنت لا تفهمين ..ربما أنت تدعمينهم لأنك امرأة أيضا و لكن بالنسبة لنا شروطهم هي طعن لقوانين مضت عليها قرون من الزمن ..تلك القوانين هي هوية شيبة و إن تغيرت بسبب تهديدهن فسنصبح عار على الأسرة الحاكمة و سنمنح المتمردين فرصة لإنزالنا عن العرش .

_لا تخبرني بكلام لا وجود له ..كيف يكون إعطاء النساء حقوقهن يعتبر عارا على تاريخ شيبة و الأسرة الحاكمة ..هل تسمع أذناك ما تقوله ؟

أجل إنها عار ..شيبة قبيلة الرجال و ستظل كذلك إلى الآبد ..لا احد سيغير هذه الحقيقة و لا حتى أنت .

لقد ذهلت بكلامه لا اصدق انه يفكر بهذا الشكل ظننته مختلفا عن أشقائه حين قرر إعادة بحر إلي ,الآن هو يتحدث مثل طهران تماما ,لا أتحمل هذا .

قررنا ألا نتحدث مع بعضنا مجددا ,حتى انه لم يتناول العشاء معنا ,خلدنا إلى النوم باكرا فغدا أمامنا يوم طويل .

حين أخبرت ڤرين عن وليمة الزفاف التي دعين إليها أرادت حضورها بشدة لذا قررنا الذهاب و من هناك سنعود أدراجنا إلى قرطبة .

كنا فاقدي الأمل تماما ,لقد جازفنا بكل شيء للا شيء ,أمر محبط ,لكن مع هذا أنا لم أحس بأي ندم ,بل كنت سأندم لو أنني لم أحاول من الأساس إصلاح الوضع ,انه واجبي اتجاه شعبي ,فإن حصل و اندلعت الحرب ,لن يلومني أحد ,أليس كذلك يا أمي ؟

في صباح اليوم التالي ,نظرنا في الكتاب عن موقع الحفل ,كانت ڤرين متحمسة جدا فلم يسبق لها أن حضرت حفل زفاف من قبل و هذا أمر وجدتُه محزنا ,اعتقد أن حياة صائدي الجوائز صعبة إلى حد ما .

لازلت لا أتحدث مع عين ,انه عنيد جدا ,قال انه لا يريد الذهاب لكن ڤرين إستطاعت إقناعه ,ربما أخبرته أنها ستجعله طعاما لطائرها إذا لم يأتي ,إنها مخيفة نوعا ما لو كنت مكانه لما أغضبتها .

حين وصلنا إلى وجهتنا نزلنا لنرى مساحة شاسعة مملوءة بنساء البابالون اللواتي يرتدين بشكل موحد فستانا ابيض قصير و أحذية خضراء مصنوعة من أوراق النعناع ,لا يمكن التفريق بينهن سوى بألوان أجنحتهن المختلفة .

و من بعيد تعرفنا على الآنسة التي قامت بدعوتنا ,طارت باتجاهنا لتنزل بجانب بحر ,صاحت بسعادة : واو ..انظروا إلى هذا الخيل الوسيم ..أليس جميلا ..لم أرى شيئا بجماله من قبل ..هل هو خيلك يا آنسة ؟

أجبت :نعم و اسمه بحر ..انه خيل عربي و قد قدم كهدية لي من عُرب .

_بالفعل ..يا لها من مصادفة ..العريس يكون إحدى العاملين في الإسطبل الملكي .

يالها من صدفة ؟

قلت متسائلة عن الهدية :ماذا عن صديقتك هل قدمتِ لها هديتك ..هل أعجبتها ؟

_أوه أجل كثيرا ..قالت أن رائحة العطر جميلة جدا حتى أن زوجها بكى حين قدمته له .

شعرت بالسعادة لأنني استطعت مساعدة هذا الشخص و لو بشيء بسيط مثل ذلك .

قالت الآنسة :حسنا شكرا لتلبية الدعوة ..لدي أمور علي الاعتناء بها أراكم في الحفلة استمتعوا بوقتكم .. و أيضا بخصوص الطعام ..سيقدم بعد عقد القران .

ذهبت و تركتنا نتأمل بعضنا البعض ببلاهة لم نعرف أين نتجه ,قالت ڤرين و هي تأخذ تيرو بعيدا : سوف اذهب لأربط تيرو في شجرة ما يمكنكما أن تسبقاني سألحق بكما فيما بعد .

بقيت و عين واقفين دون كلام و بعد لحظات ظهرت إحدى نساء البابالون محلقة في الهواء و بدت أنها ستقدم إعلانا مهما ,قالت بصوت عال :ليتوجه الجميع إلى طاولة الزوجين سيتم عقد القران بعد دقائق .. بسرعة ..تفضلوا جميعا .

لم نكن نعرف أين توجد هذه الطاولة التي تحدثت عنها لكننا سرنا أين سار الضيوف جميعهم ,فوجدنا أنفسنا نقف مقابل طاولة بيضاء مستطيلة طويلة جدا قد يجلس فيها عشرون شخصا لتناول الطعام أو أكثر .

كان يوجد رجل يجلس على جانب الطاولة بعيدا جدا عن الآنسة فراشة التي تجلس على الجانب المقابل .

هل يعقل أنهما الزوجان ,لكن لما يجلسان على مسافة بعيدة عن بعضهما البعض ,هذا الشعب له تقاليد و أفكار غريبة .

فجأة و نحن نحدق فيهما ظهرت ملكة البابالون ,لم أتوقع أبدا أنها ستكون هنا ,تقدمت نحو الطاولة و حلقت فوقها لتنزل على قدميها في منتصفها بالضبط .

صعد العريسان بدورهما فوق الطاولة ,سار العريس باتجاه الملكة في حين طارت العروس لتقف بجانبهما .

أحضرت صديقة العروس التي نعرفها كتابا كبير الحجم نوعا ما و قدمته بكل حذر للملكة التي أمسكته بروية بدورها ,ربما يكون كتابا مهما لدرجة كبيرة بالنسبة لهم .

فتحت الملكة الكتاب و قالت موجهة حديثها للعريس :هذا يكون كتاب البابالون الخاص بالزواج نحن نؤرخ فيه حالات الزواج التي تحصل لإحدى أفراد البابالون و بعد قليل ستدخلان التاريخ و سنسجل اسميكما بصفتكما الثنائي الخامس و الثلاثون لشعب البابالون .. ستسجلان في الصفحة الخامسة و

الثلاثون ..حسنا سأسألكما كما تفعل بعض الشعوب لتسجيل موافقة العريسين أمام عشرات الحاضرين .. كان هذا طلب العروس ..لنبدأ بكِ إذا ..آنسة سوليس ..هل تقبلين بالسيد علاء زوجا لك ؟

أجابت العروس :نعم أقبل .

صفق الحضور بحرارة لدى سماعه الإجابة ,بالنظر إلى عدد حالات الزواج لديهم لم اعتقد انهم سيؤيدون الفكرة بكل هذا الحماس .

توجهت الملكة لسؤال العريس :سيد علاء ..هل تقبل بالآنسة سوليس زوجة لك ..هل تتعهد أمام جميع البابالون الحاضرين هنا و أمامي انك ستقدم حياتك فداء لها إن تطلب الأمر ..ستكون معها في أوقات الحزن قبل أوقات الفرح و لن تحزنها أبدا ؟

أجاب العريس بنعم لكن بدا عليه التوتر و أنا لا ألومه فهو سيتعهد بالكثير و لن يعلم أبدا إن كان سيفي بذلك في المستقبل حقا أم لا .

صفق الحضور ,تقدمت صديقة العروس و هي تحمل وعاء فيه سائل احمر اللون ,رفعت الوعاء نحوهما فقاما بغطس راحة يدهما في السائل ثم قاما بالختم على إحدى صفحات الكتاب ,بعدما انتهوا من ذلك أخرج العريس علبة صغيرة ,كان خاتم الزفاف ,أخيرا شيء منطقي لنراه ,بعد وضع الخاتم و اخذ تهاني و مباركة الملكة و الأصدقاء نزلا من الطاولة و بدأت بعض البابالون توزعن الحلويات و الشوكولا ,ظهرت نفس الآنسة صاحبة الإعلانات و أخبرتنا أن ننزل إلى التل في الأسفل لتناول الطعام.

سمعنا ڤرين تصرخ من بعيد و هي تنادي باسمينا ,رفعت يدي لتجدني و حين لمحتني سارت بين الجمع لتصل إلينا أخبرناها أننا متجهان لتناول الطعام فرافقتنا .

كانت توجد طاولات كثيرة و الجميع يبدو مستمتعا بالطعام انه يشبه الطعام العربي بالفعل و لكن مذاقه بعيد كل البعد عن ما نحن متعودون عليه ربما يكونون استخدموا مكونات مختلفة أو شيء ما لم أجد تفسيرا منطقيا لأن ترى طعامك المفضل أمامك لكن ليس نفسه طعامك المفضل الذي تظن .

لم أكن جائعة على أية حال ,نظرت إلى الملكة التي تجلس في طاولة لا تبعد كثيرا عن طاولتنا ,بدت منزعجة من شيء ما ربما يكون الطعام السبب ,نهضت من مكاني و لم اجب حتى عن أسئلة ڤرين و عين حينا سألا إلى أين ,اكتفيت بقول أني سأعود بعد قليل .

ذهبت باتجاه طاولة الملكة ,حين وصلت قلت بابتسامة على الوجه :مرحبا سمو الملكة ..من الجميل رؤيتك هنا ..تبدين جميلة بهذا الفستان .

أجابت و قد رأيت أنها سرت لرؤيتي :أوه مرحبا يا أميرة هيرانة ..شعورنا متبادل ..لكن لأقل الحقيقة لقد تفاجئت لرؤيتك أكثر .

_معك حق ربما قد تظنين أننا نلحق بك لكنها صدفة تماما ..صديقة العروس كنا قد تعرفنا عليها حين تجولنا في القرية و ساعدناها في اختيار هدية للزفاف لذا قامت بدعوتنا .

_حقا هذا كرم منك عرفت انك تشبهين والدتك لم اشك في ذلك للحظة كلتاكما تحبان مساعدة الآخرين .

قلت منتهزة فرصة أنها تكلمت عن أمي :من كلامك يبدو انك تعرفين أمي جيدا مع أنني لم اسمعها تتحدث عنك أبدا من قبل .

_بالطبع لن تتحدث عني ..والدك ذاك كان يتحكم بكل شيء يخصها حتى الأمور التي تتحدث عنها أمام ابنتها ..ربما لم يرد أن تعرفي أنها التقت بي .

_لأصدقك القول ..حتى كتب التاريخ لا تتحدث عنها فكيف أعرف أنها قد أتت إلى هنا من قبل؟

_هذا يثبت كلامي إذا .

_إن كان كذلك ..هل يمكنك إخباري لما أراد إخفاء الأمر عني ..هل هناك شيء يجب أن اعلم بشأنه يخص أمي ؟

_أنا آسفة و لكن لو أرادت أمك أن تعلمي لكنت بالفعل تعلمين ليس الأمر بيدي كما يبدو .

لقد حطمت كل أمالي ,يا له من أمر محبط الآن أصبحت أكثر فضولا و أكثر خوفا عن ذي قبل .

فجأة أتى العريس ركضا نحو الملكة و دون أن ينتبه لوجودي سرب أمرا كنت محظوظة لسماعه .

صرخ قائلا :جلالتك لقد أتتنا أخبار سيئة ..الأميرة سيتا سيتم زواجها هذا الأسبوع .

نظرت الملكة نحو العريس بغضب ثم نظرت إلي نظرة جانبية كأنها تتفقد ردة فعلي ,نهضت الملكة عن الطاولة فجأة و قالت كأنها تهمس :اتبعني .

و بينما هي تسير منصرفة ركضت خلفها و صرخت :جلالتك ..

توقفت فجأة كأنها تريد الإنصات إلى ما سأقوله ,فتابعت :أرجوك امنحيني فرصة .

_عن ماذا تتحدثين ؟

_قالت الآنسة التي تعرفنا إليها من قبل أن شعب البابالون يتعامل بنظام المقايضة ..يبدو أن هناك ما يزعجك بخصوص زواج هذه الأميرة التي ذكرها ..إذا أمكن ..هل تعدين انك ستحققين لي مطلبي مقابل أن احل لك هذه المشكلة ؟

عم الصمت ,لم يبدو أنها ستتكلم لكن فجأة استدارت لتواجهني وجها لوجه و قالت و هي تنظر نحو عيني مباشرة :هل أنت متأكدة انك تستطيعين حل مشكلتي ..أنت لا تعرفين ما هي حتى ..أليس كذلك ؟

أجل و لكن ..

_كيف يمكنني أن أعدك و أنا لست متأكدة من مقدرتك ؟

بدا الأمر أنها رفضت و انتهى الأمر لقد شعرت بهزيمتي لأول مرة ,و في لحظة التفاتها معلنة انتصارها و مغادرتها صرخت بكل قوتي كأنني أقول أن الأمر لم ينتهي بعد ,كمحارب مصاب في المعركة و رغم كل آلامه و جروحه لا يزال مستعدا للمزيد كأن خيار الاستسلام لم يوجد بالنسبة له .

قلت :لحظة ظننت انك قلت انك تعرفين أمي ..قلت انك لا تملكين شكا أني أشبهها إن كنت تشككين بي فأنت تشككين بها أيضا ..أنت التي قلت أن موت أمي كان خسارة للعالم ..نحن في قرطبة لا نسحب كلاما خرج من فمنا بل نتحمل مسؤوليته كما تتحمل الأم مسؤولية أطفالها ..لذا عليك تحمل مسؤولية أطفالك يا سمو الملكة .

اعتقد انه لأول مرة في حياتي نجحت في إقناع شخص ما ,استدارت الملكة ببطء و نظرت إلي وقالت مع ابتسامة خفيفة تحاول إخفاءها بصعوبة :حسنا إذا ..اتبعيني .

سرت خلفها و السعادة تملأ فلبي الصغير ,بعدما ابتعدنا عن أجواء الزفاف و الضيوف ,توقفنا أسفل شجرة جميلة جدا ثلاثتنا ,أنا و الملكة و العريس غريب الأطوار .

سألت الملكة العريس :اخبرني ما هي التفاصيل التي أتتك يا علاء ؟

_اخبرنا جواسيسنا أن مناشيرا قد علقت اليوم تنص أن الأميرة سيتم زواجها من ابن عمها .

_ايهما تقصد .

_ابنه البكر جلالتك .

_لا اصدق مدى وقاحة ذلك العجوز الخرف ..كيف يظن أن له الحق في التصرف نيابة عن والدها بعدما فعله .

أنا لم أكن افهم أبدا عما يتحدثان و عن أي أميرة بالضبط ,لم اسمع بأميرة تدعى سيتا من قبل .

سألت :من تقصدون ..من تكون الأميرة ..و عن أي زواج تتحدثان ..هلا تشرحان لي ؟

أجابت الملكة نحن نتحدث عن الأميرة سيتا ابنة حاكم إنديان أباد السابق .

_السابق ..إذا من يكون حاكم انديان اباد الحالي ؟

_إنها قصة طويلة علينا الذهاب إلى القصر و سأشرح لك كل شيء من البداية .

لدينا قصة علينا سماعها ظننت أني الوحيدة التي تملك قصة لا بأس لنستمع إلى قصتها .

الفصل السادس

أميرة إنديان آباد

يقول المثل معظم البالغين ينتبهون لما يقوم به الشخص ,لكن الأطفال يرون ما وراء ذلك .

مذ كنت صغيرة كنت أضمر الكره الشديد لشقيق والدي الذي لا يسايرني لساني لدعوته بعمي ,رغم أني لم أرى منه أي تصرف خارج عن المألوف قبل ذلك اليوم المشئوم ,لكن عيناي رأتا فيه ما لم تره عينا والدي ,فكما يقول المثل ,العيون لا ترى ما لا يريده العقل ,أبي اعتبره أخا ,صديقا و جزءا لا يتجزأ من نفسه لكنه أخطأ النظر .

كلنا أخطأنا ,استقبله والدي بعدما كان منفيا لسنوات من قِبل جدي المتوفى ,عشنا سنوات جميلة جدا و لم نعلم أنه يوما ما سيسحب البساطة من تحت اقدامنا ,لم نفكر للحظة ان هذه السعادة سيأتي يوم تتلاشى فيه للأبد ,تمنيت لو كنت معهم الآن ,فالحياة لا معنى لها بدونهم .

شقيق والدي ,و بأسف أقولها ,خاننا .

كانت ليلة مرعبة ,دخل فيها آلاف الجنود إلى القصر ,حاول جنودنا التصدي لهم لكن بدون فائدة , كان يوم عيدٍ في المملكة لذا لم يكن معنا العدد الكافي منهم ,معظمهم ذهبوا للاحتفال و تأدية الزيارات .

دخل الجنود إلى جميع غرف و أجنحة القصر و قاموا بتقييد الكل ,و على رأسهم والدي المِهْراجا ديبان ساندار و والدتي الراني أديتيا برادها .

خرجت من غرفتي برداء النوم أسير حافية القدمين ,مقيدة اليدين ,لا أعلم إن كنت سأعيش لأرى الشمس تشرق من جديد أم لا .

مررت بعشرات الجثث المرمية على الأرض ,سرت فوق دمائهم و حملتها معي في قدمي ,ظهرتا ملطختين بالدماء كأنني أضع حِنّة العيد عليهما .

اجتمعتُ أخيرا بأسرتي ,عائلتي الوحيدة التي أمضيت معها خمسة عشر سنة ,أمي ,أبي و أختي التوأم , نيتا .

دُفِعنا لنجلس على رُكبِنا مذلولين و مهانين أمام الرجل الذي دمر حياتنا و خان شقيقه قبل أن يكون ملكه .

سحب سيفه وسط توسلات والدي ,لم يكن يتوسله ليتركه يعيش بل يتوسله أن يتركنا نحن نعيش ,فأبي كان مستعدا للموت مذ استلم العرش ,لكننا لم نكن مستعدين ,أمي لم تقل أي شيء ,كانت الدموع المنهمرة من عينيها وحدها كافية لتبوح بكل ما يجول في فكرها الآن ,نظرت إلينا نظرة أخيرة قبل أن يغرس سيفاه في أحشائها هي و أبي ,ماتا معا مثلما عاشا معا ,على الحلو و المر .

هذا ما يعنيه أن أكون معك حتى النهاية ,لم أكن معك في البداية لذا محوتها و بدأت من جديد معك ,هذا ما حَملتْه والدتي من حب اتجاه والدي .

لذا عِشتُ و أختي و نحن نعرف وصيتها الأخيرة ,إنها الشيء الوحيد الذي حاربت أمي الدنيا من أجله , الحب .

كان الخائن وحشا بمعنى الكلمة لذا قرر ألا يقتلنا بل يعذبنا بعَيْش حياة من دونهما و تحت رحمته هو و أسرته .

في الأيام القادمة ,جُردنا من كل شيء أنا و أختي ,ملابسنا و مجوهراتنا و كل شيء ذي قيمة مادية أو معنوية أصبح مجرد ذكرى من الماضي بين ليلة و ضحاها ,أصبح والداي فجأة من الماضي .

أمر غريب لم أكن لأصدقه لو سمعت عنه من شخص غريب ,لكن لأنني عشت هذا الواقع فأنا لم أصدقه فقط بل كرهته أيضا ,كرهت الحياة و الواقع الذي أعيش فيه و أصبحت أتمنى الموت كل يوم ,تمسكت بأختي بدل الحياة ,فلولاها لما تجاوزت هذه الفاجعة في عام واحد بل لكنت قتلت نفسي في اليوم الذي يلي موت والداي .

نُفيت و شقيقتي لنعيش في احدى القرى الريفية البعيدة عن مقر الحكم و تدعى ساني بهومي ,سكنا في منزل عجوز طاعنة في السن تُدعى ماجودرا ,إنها امرأة صالحة .

القرية جميلة ,الهواء نقي و السكان طيبون ,مسالمون و يكرهون المشاكل ,كل الظروف متوفرة لعيش حياة مسالمة و سعيدة .

دخلنا مدرسة القرية و درسنا وسط عشرات الأطفال ,لا مُدرسين يهتمون بنا فقط و لا معاملة خاصة ,لا حديث عن تاريخ الأسرة أو عن إنجازات والدي ,كل ما ندرسه كان القراءة و الكتابة لا غير ,هذه كانت أسمى مراتب التعليم هنا ,إنْ كنت تكتب و تقرأ فأنت متعلم .

سعيت و أختي جاهدتين ألا تَمحي هذه القرية و الأشخاص المحيطون بنا هويتنا الحقيقية و هي أننا من دماء سلالة ملكية و من واجبنا أنْ نُبقي رَأسينا مرفوعين دائما .

تأقلمنا بسرعة و أصبحنا معروفتين كأذكى ,أجمل و أطيب الفتيات في القرية ,ساعدنا الجميع و سعينا للحفاظ على ما تعلمناه من أبي و أمي ,عَمِلنا بجهد على مزرعة ماجودرا و حولناها إلى جنة لا مثيل لها ,كسبنا المال بعرق جبيننا و لم نتسول المال من أحدٍ أبدا .

لم نكتفي بما تُقدمه المَدرسة بل اشترينا كتبا و عَلّمنا أنفسنا بأنفسنا ,درسنا مختلف العلوم التي يجب أنْ يكون أبناء الأسرة الحاكمة على اطلاع بها ,كنا نملك زادا بالفعل لكن العلم لا حدود له .

كما كانت ماجودرا امرأة مثقفة و مطالعة دؤوبة لذا منحتنا كتبها و معرفتها الخاصة ,هكذا سنكبر و نقولُ أننا بنات ديبان ساندار و أديتيا برادها و نحن مرفوعتي الرأس .

مع مرور هذه السنوات الثلاث اعتقدت أن الحياة نسيتني و استمرت من دون أن تلتفت لي مجددا لكنها خيبت ظني للمرة الثانية و قررت إزعاجي مجددا كأنها لا تملك شخصا آخر لتعبث معه غيري و بقول شخصا آخر لم أكن أعني أختي نيتا .

في إحدى الأيام العادية في القرية ,كان الهدوء يسود المكان كعادته ,سمعنا عربة تجرها الخيول , تركض بأقصى سرعتها في طرقات القرية الفارغة ,كان صدى صوت ضرب حوافر الخيل و عجلات العربة بالأرض يُسمع من على بعد أميال ,حين توقف الصوت نظرت عبر النافذة فوجدت أن العربة توقفت أمام منزلنا .

نزل رجل في متوسط العمر و هو يحمل معه إعلانا ما ,تقدم نحو المنزل و طرق الباب برفق .

فتحت له ماجودرا و بوجه بارد استقبلته ,جلس معنا و هو ينظر في وجهينا كأنه يتفحص أمرا ما ,سأل : من منكما تكون سيتا ؟

رفعت يدي مجيبة على سُؤاله دون النطق ببنت شفى , نظر إلينا مجددا كأنه ظن أننا نكذب عليه أو شيء ما ,حتى لو كنا نكذب فهو لن يمكنه كشفنا ,فمن كانا يفرقان بيننا أصبحا تحت التراب .

قال و هو يمرر رسالة ما نحوي و أخرى نحوى نيتا :هذه لك ..و هذه لك ..افتحاها و اقرآ بتمعن ما كُتِب .

فتحتُ خاصتي و أنا أشعر بفضول حول محتواها ,لم تتجرأ نيتا على فتح رسالتها بل اكتفت بمراقبتي و أنا أقرأ خاصتي ,إنها على عكسي صبورة و حذرة مثل والدتي أما أنا فكنت متهورة و غير صبورة , تماما مثل والدي .

شرعتُ أقرأ المكتوب في الرسالة بصوت عالي :

ناماستي ميري باهاتيجي سيتا

أعلم أن ثلاثة سنوات وقت قصير لكنني اشتقت لكما بالفعل أنت و شقيقتك نيتا ,لازلت أذكر كيف كُنا نلعب لعبة الاختباء في حديقة القصر و كيف كنتما تجِداننني بسهولة بينما كنت أستغرق اليوم بطوله لأجد إحداكما ,لم يهدأ قلبي أبدا و ظل يؤنبني لأني أبعدتكما عني ,لابد أنكما قد كبرتما جيدا و اعتنيتما بصحتكما و تعليمكما ,هذا ما هو منتظر من بنات شقيقي العزيزات ,قويات و ذكيات مثل عمهما بالضبط ,لقد كانت اخباركما و أحوالكما تصل إلي دائما و أنتما لم تخيبا ظني أبدا بل مثل المتوقع كنتما بخير و بأحسن حال ,لكني فكرت و فكرت طويلا و قررت أمرا مهما بشأنكما يا صغيرتي .

بالنسبة لك يا صاحبة الضفيرة اليسرى ,قررت أن أزوجك بأكبر أولادي ,إبني البِكر فاخير ,و لقاء موافقتك سأمنحك و نيتا لقب الأميرة لتكون لكما مكانة في الأسرة الحاكمة .

ستأتيان للعيش في قصر سيراج دامبير و سأعين لكما خدما و حرسا و عددا كبيرا من الأفراد لخِدمتكما .

لا أريد اعتراضا من أي شكل يا فتيات ,تعلمان أني لا أحب الرفض ,و تعلمان جيدا ما جزاء من يرفض طلبا للحاكم ,غدا ستنطلق العربة لتعود إلى القصر و أحب أن أراكما تنزلان منها عندما تصل , لا أتوق صبرا لأراكما من جديد يا فتاتي .

تحيات حاكم إنديان آباد العظيم المِهْراجا

شارودبا شيدبيا ساندار

حينما انتهيت من رسالتي نظرت إلى نيتا بعينين بائستين ,لم أصدق ما قرأته ,كيف وصلت به الجرأة لإجباري على الزواج من ابنه ,يريدني أنْ أتزوج ابن قاتل والدي بكل برودة و أنسى الماضي ,أنا التي علمتني والدتي أن الزواج أمر مُقدس و هو رابطة نقية و صافية ,كيف لي أنْ أنْشِئ هذه الرابطة الملوثة بدماء والدي ,هل جن أم ماذا ؟

فتحتْ أختي رسالتها و يداها ترتعشان خوفا من الأخبار السيئة التي ستواجهها ,قرأت ما وُجد من كلام ثم نظرت نحوي بحزن شديد ,نهضت فجأة لتغادر المكان و تُغلق على نفسها في غرفتها .

قلتُ في نفسي ربما ما ذُكِر لها يكون أسوء من خاصتي .

توجه المرسول نحو الباب و قبل أن يُغادر قال :غدا سنُغادر في الرابعة فجرا كي نصل مساءً لذا تجهزا في الموعد كي لا نتأخر عن الحاكم .

فور مغادرته وقفت أمام باب الغرفة و طرقت الباب بهدوء آملة لأن تفتح لي و تُخْبرني بمضمون الرسالة ,بصوت تعمدت أن يكون خافتا و مطمئنا كأنني أكلم طفلا صغيرا قُلتْ :نيتا ..افتحي أرجوك .. لا بأس أخبريني ..مهما كان الأمر سيئا سنحل المشكلة معا ..أنا لن أتركك أبدا ..افتحي الباب ..حسنا ؟

بعد مدة من الإلحاح المطول فتحتْ الباب و عانقتني بقوة قائلة :لا تقلقي ..أنا فقط حزينة لأننا قد نفترق إذا تزوجتِ ..أنتِ تعلمين أليس كذلك ..ما تعنينه لي ..أنتِ عائلتي الوحيدة ..لا أريد خسارتك مهما حصل .

قلتُ بعدما حاولتُ استجماع أفكاري :ماذا تقصدين ..أتريدينني أن أذهب إليه ..هل تسمعُ أذناك ما تقولينه ..أنا لن أذهب أبدا ..إذا قرر قتلنا فعلى الأقل سنموت بشرفنا معا دون أن نجلب العار لوالدينا .. هل فكرت ماذا سيقول الشعب عني إنْ تزوجت ابن قاتل أبي ..ماذا سيُكتب في التاريخ برأيك ؟

نظرتْ إلي بحزن و أجابتْ :أنا لا أريد أن أموت ..و لا أريدك أن تموتِ أيضا ..إنْ كنا سنموت إذا لِما لم نمت منذ ثلاث سنوات ..لِما استمرينا في العيش بهذه الطريقة المُهينة ..لِما تعذبنا لإبقاء أنفسنا أحياء ..كان يجب أن نموت جوعا إن تطلب الأمر أو مرضا ..لِما تمسكنا بالحياة ؟

قلتُ محاولة تهدئتها فلأول مرة أراها منفعلة لهذه الدرجة :أنا تمسكت بكِ و ليس بالحياة ..حين أراك أرى والداي أمامي ..إن ذهبتُ قد أحرم من رؤيتك إلى الأبد هل تُدركين الأمر ..أيضا ماذا لو كانت مكيدة ليطيح بنا ..ماذا لو أراد استدراجنا بهذه الرسائل و قتلنا ؟

صمتنا فجأة كأن أعذارنا لبعضنا البعض انتهت ,نحن لم نختلف من قبل ,كنا دائما على وفاق حتى أذواقنا في الطعام كانت متشابهة ,نحن توأم بعد كل شيء ,لكن اليوم كان استثناء ,ما الذي كانت خائفة منه لهذه الدرجة ,لم يكن الموت , فنحن وصلنا الى حافة الموت مرات عديدة و هذه لن تكون المرة الأولى أو الأخيرة ,لِما نستسلم الآن ؟

قالت و هي تعود للغرفة لتغلق الباب :إفعلي ما تشائين فالخيار الأول و الأخير يعود لك فأنتِ من ستتزوجين و لستُ أنا ..لكن إعلمي شيئا واحدا ..مهما كان ما قررتِه فأنا سأدعمك بأي شكل كان .. حتى الموت لأجلك ..فهمتِ .

أصبحتُ في حيرة شديدة من أمري بعدما كنت حازمة جدا في قراري ,الآن لم أعد أعرف ما أفعله خاصة بعد أنْ سَلمتْني أختي مسؤولية اتخاذ القرار .

ذهبتُ إلى ماجودرا و سألتها مباشرة فأنا لا أعرف شخصا حكيما يمكن أن أستشيره غيرها ,قلتُ :ما هو رأيك ماجودرا ..هل علي الذهاب ؟

نظرت إلي بنظراتها الحنونة المعتادة و أخذت تمسح على رأسي مع ابتسامة رقيقة , قالت : أحضري مشطك الخشبي و دعيني أسرح لك شعرك البني الطويل .

أحضرتُ المشط و قدمته لها ,جلستُ على الأرض بين ساقيها و فككتُ ضفيرتي ,أخذتْ تسرح لي شعري كأنني فتاة صغيرة في العاشرة .

لا ألومها فهي عجوز عاشت الكثير في صباها ,إنها لم تكلمنا يوما عن ماضيها لكن بعض كبار السن من أهل القرية يعرف القليل عنها ,أخبرتني إحدى العجائز أنها لا تزال تذكر يوم قدِمَت ماجودرا إلى القرية لأول مرة .

كان يوما عاديا من أيام الصيف حين وصل موكب العروس الخامسة لأحد أغنى و أكبر التجار سِنا في القرية ,يُدعى السيد سونار تشاندر دات .

تقول العجوز :رأينا موكبا كبيرا يدخل القرية و يسير في اتجاه منزل السيد سونار فعلِم جميعُنا أنه سيتزوج مجددا ,هذا الرجل الذي يعتبر نحسا على كل امرأة تزوجت منه من قبل ,فامرأته الأولى توفيت غرقا و الثانية سقطت من الحصان فصدمت رأسها و ماتت , أما اثالثة فقد توفيت في حريق قد نشب في احدى متاجره و لسوء حظها كانت تبتاع الأقمشة منه ذلك اليوم ,أما الرابعة فقد شاع بيننا أنها انتحرت رغم أنه لا دليل على ذلك سوى كلام بعض النِساء التي عملن خادمات عندها و قُلن انها رمت نفسها من النافذة بينما كانوا في فندق ما في العاصمة ,اعتُبِرَت الآنسة الجديدة سيئة الحظ قبل أن تُعرف حتى , و قرر الجميع معاملتها جيدا كونها الأولى و الوحيدة التي تتزوجُ في القرية كتغيير من السيد السونار الذي اعتاد إقامة حفل زِفافه في العاصمة تجنبا لحسد و غيرة أهل القرية ,لماذا ؟ ربما لأنه لن يكون سهلا عليهم رؤية مظاهر البذخ التي يريد السيد إظهارها في الزفاف كيف يكون سهلا و هم الذين تمر عليهم أيام لا يجدون فيها ما يسدون به جوعهم .

قالت العجوز أنها رأت العروس بعدما تبعت الموكب هي و بعض الأهالي بسبب فضولهم الشديد ,و قد فوجئوا جميعا حين رأوها أول مرة ,كانت صغيرة السن مقارنة مع زوجات السيد سونار السابقات .

تزوجت ماجودرا في عمر صغير من رجل يكبرها بثلاثة أضعاف عُمرِها ,أمر محزن ,شعرتُ بالأسف من أجلها .

حين سمعتُ ذلك أدركت أنني لستُ و أختي سيئتا الحظ الوحيدتين في هذه القرية ,لكنني لم أحس بأي راحة لذلك فقد كانت ماجوردا -الطِيبة على هيئة إنسان -لم أتصور أن هذه المرأة المصنوعة من العسل و السكر قد عانت في حياتها .

قالت العجوز أنهما كانتا في نفس العمر لذا أصبحتا صديقتين بسرعة ,لم تكن ماجودرا تتحدث كثيرا مثل باقي الفتيات في سنها بل كانت ذات تفكير ناضج على عكس هيئتها الشابة ,هكذا وصفتها العجوز .

تقول أنه لم يَظُن أحد أن ماجودرا ستنجو لكنها فاجأتهم ,فقد انتظروا سماع خبر موتها عام بعد عام إلا انها عاشت مع السيد عشرين عاما حتى مات و أصبح تحت التراب لتظفر هي ببقايا ثروته التي أنفق معظمها قبل وفاته كأنه كان رافضا فكرة أن ترثه ماجودرا فلم يترك لها سوى المزرعة و البيت الذي نعيش فيه حاليا .

حمِلت ماجودرا مرات عديدة لكنها لم تستطع أن تنجب في أي من تلك المرات ,ذهبتْ إلى الكثير من الحكماء لكن لا أحد منهم فهِم سبب إجهاضها المستمر و بدل ذلك اكتفوا بإخبارها أنها تعاني من مرض ما و للأسف لن يكون بمقدورها إنجاب الأطفال .

بعد موت السيد لم تتزوج ماجودرا مجددا رغم أنها كانت شابة جميلة في الثلاثينات من عمرها ,تقدم لها البعض لكنها رفضتهم بحجة المرض و استمر الحال على هذا الوضع ,بقيت ماجودرا وحيدة طِوال سنوات حتى أتيتُ و نيتا إلى هذه القرية و شغلنا جزءً من حياتها الفارغة ,لا أعلم إن كنا نشغل جزئا في قلبها المغلق لكن ما نحن متأكدتان منه هو أننا نظرنا إليها كجدتنا الحقيقية .

أظن أنني و نيتا قد كنا هدية من السماء إليها كي تعيش شعور الأم و لو لفترة قصيرة قبل وفاتها و الآن يريدون أخذنا منها لابد أنها حزينة وتريد بقاءنا .

قالت لي فجأة لتُخرجني من شرودي بعدما سَرَحْتُ بعيدا عن هنا :يُقال أن الشخص الخائف من المجهول هو كالذي يسير مغمض العينين ..إن الظلام لا يُعجبه لكنه أهون عليه من فتح عينيه ..خوفا مما سيجده ..على الرغم أنني لا أريد قول ذلك و لكن ..لا تسيرا مغمضتي العينين يا صغيرتي ..و ثِقا بعدَ ما رأيتماه من ظلمٍ في الماضي سيكون كل شيء قادم مجرد غرزة شوكة لا أكثر .

نزلتْ دموعي دون أن أريد ,استدرتُ و دسستُ وجهي الباكي في حضنها الذي يعادل مساحة الدنيا .

لا أعلم إن كان هذا وداعا لأنني لم أعلم بعد ما سأفعله فمشهد والداي المقتولين أمامي لا يُغادر ذاكرتي أبدا ,لا أعتقد أنني سأنساه يوما حتى لو عِشتُ طويلا و شاهدت الأبشع منه ,إنه يشبه كابوسا قد رأيته في منامك و لفرط بشاعته و تأثيره تستيقظ ليلا و أنت تبكي فرحا كونه مجرد كابوس ,كابوس لا يُنسَ البتة .

بقيتُ الليلة كلها مستيقظة أفكر إن كان علي الذهاب أو البقاء ,كنتُ أتدحرج في السرير يمينا و يسارا مثل ستائر الحرير التي تحركها الرياح ذهابا و إيابا ,لم تسمح لها بالاستقرار عند وضع معين ,هكذا كانت الأفكار تفعل بي فعلة الرياح .

فكرتُ و فكرتُ و حين وصل وقت اتخاذ القرار ,قررتْ .

عند الرابعة فجرا كنتُ و نيتا داخل العربة متجهتين إلى العاصمة ,شعرنا بالخوف و البرد الذي أحسسنا به في الليلة التي تحولنا فيها من طفلتين إلى يتيمتين ,كنا ممسكتين بأيادي بعضنا ,كل منا تحاول أنْ تكون سندا للأخرى ,تحاول أن تكون قوية لكي لا تشعر الأخرى بالضعف ,نخفي دموعنا في عتمة الليل و نمنع نزولها بحلول الصباح ,هكذا كنا نخدع بعضنا البعض ,فوراء قناع الجرأة و الشجاعة توجد طفلتان تبكيان دما خوفا من المستقبل .

كانت أُمي تقول لنا دائما أن العالم يبدو مظلما بالنسبة لمن يغطي عينيه إنه مثل شائع ,إذا أردنا رؤية الجانب المشرق من العالم علينا فتح أعيننا .

ربما تبدو الأمور سيئة لكن إنْ فكرنا جيدا لوجدنا الجانب المشرق ,بالنسبة لي يكفي أننا معا أنا وشقيقتي ,إنها كل ما بقي لي في هذا العالم و أنا لن افقدها مهما حصل و ما دامت معي فأنا سأدوم للعالم .

***

بعد سفر دام يوما كاملا وصلنا أخيرا إلى العاصمة بوهادنتير ,لقد تغيرت كثيرا عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات أكاد لا اعرفها ,هُدمت مباني و شُيدت مباني مكانها ,مررنا بساحة الشهيد باهالا أو الشهيد الاول ,إنها معلم العاصمة الاكثر شهرة ففي هذه الساحة قُتل اول ثوري في إنديان آباد ,كان ذلك في عهد أحد الملوك الدكتاتوريين الذين حكموها ,و قد حصل انقلاب ضده بعد سنوات من الظلم و الاستبداد ,و ذلك بفضل الشهيد الاول الذي رفض الخضوع و وقف في منتصف الساحة داعيا الناس الى الثورة و الاطاحة بالملك ,و لم يكد ينهي كلامه حتى تجمع حوله بعض الجنود و قاموا بضربه باقدامهم و عصيهم حتى تاكدوا انه فارق الحياة ,كان المشهد قاسيا على الناس لكنه كان كفيلا لتولد في عقولهم أفكار ثورية و يضحوا بكل ما امتلكوه كي لا تكون روح ذلك الشاب قد سُلبت هباء .

هذه القصة جعلتني أفكر لو أنه كان بيننا من يمتلك شجاعة ذلك الرجل ,فكما يَقول المَثَل ,من لم يملك الجرأة فلا يشتكي سوء حظه ,إذا لمْ أمتلك الجرأة لمواجهة عمي و إعادة العرش لأصحابه الحقيقيين فلا يجب أن ألوم الحياة على مصيري .

وصلت عربتنا الى القصر و انتهت رحلة عودتنا التي تمنينا لو لم تنتهي ,رفعتُ الستائر للمرة المائة في هذه الرحلة لأتفقد المكان ,كانت الشمس قد شارفت على الغروب و نحن داخل أسوار القصر بالفعل كل الحراس يرتدون زيا موحدا أسودا مثل تلك الليلة تماما ,شعرت بالخوف يتسلل الى جسمي دفعة واحدة حتى أصبت بالقشعريرة ,شعرت بيد شقيقتي التي شدت على يدِ بقوة ,نظرت نحوها فوجدتها مغلقة عينيها بشدة ,أنا و هي لم نتكلم حول تلك الليلة و لا مرة حتى بعد مرور هذه السنوات ,كِلْتانا لم ترد فتح جُرْح الماضي و جعله ينزف من جديد لكننا كنا نحس ببعضنا البعض فنحن توأم بعد كل شيء .

عُدتُ لاتفقد الأجواء داخل القصر و احاول تمييز الفروقات و الأمور التي تغيرت منذ ذلك الوقت كأنني في لعبة ما ,أنظر إلى شجرة ما فاعلم انهم غيروا نوعها ,انظر الى الأعلام التي كانت تزين ممرات العربات تغيرت الوانها ,حتى تلك التماثيل الحجرية المميزة التي كانت تحبها أمي قاموا بإزالتها جميعها , كانت هدايا من بعض الفنانين الذين قامت امي بدعمهم في نشاطاتهم في المملكة فقد أحبت الفن كثيرا و اشرفت شخصيا على تزيين القصر بمختلف اللوحات و الاقمشة و الاواني الفخارية بل كانت تقيم معارض و مسابقات لدعم كل من امتلك حسا فنيا و لم تكن تعود منها إلا و هي مُحملة بالعديد من التحف التي اشترتها بمبلغ جيد .

لم يكن ابي يحب كيف تملأ امي القصر بتلك الاشياء التي في نظره كانت من دون فائدة ,لم يعلم اين تكمن المتعة أو الفائدة من النظر الى لوحة معلقة على الجدار و التمعن في تفاصيلها ,لقد كان تفكيره سطحيا جدا مقارنة بتفكير والدتي الذي يشبه المحيط العميق الذي لا حدود له ,كان موضوع شجار دائم لهما على طاولة العشاء و كنت و اختي ننهض مبكرا حين يبدآن في الشجار ,تجنبا لسؤال من تظنون هو على حق ,إنه سؤال خدعة و لا إجابة صحيحة عليه ,ففي النهاية كانت نظرتهما للأمور هي ما كانا يتشاجران حولها ,و برأيي لا توجد نظرة صحيحة و أخرى خاطئة كل له رأيه و أسبابه للنظر للأمور بالطريقة التي يُريد ,و هذا ما يسمى الاختلاف ,و لا اعتقد أنهما كانا يجهلان ذلك و لكن اعتقد ان الشجار بين الأزواج أمر يبعث على المتعة و هو ما كانا يفعلانه من فترة لاخرى لاضافة بعض الاثارة الى حياتهما الروتينية ليس اكثر ,كمْ اشتقت إلى تلك الشجارات يا إلهي .

توقفت العربة أخيرا و ترجل السائق ,قال و هو يفتح باب العربة :تفضلا بالنزول ..لقد وصلنا إلى القصر الملكي .

همست في أذن أختي التي كانت ستنزل اولا ,قلت :اسمعي ..مهما حصل ..مهما كان مخططه .. لنحرص أننا سنكون دائما معا ..حسنا ؟

نظرت إلي بعيون مرتبكة كأنها لا تثق في الأمر البتة ,مع أنني كنت مؤمنة اننا اتينا الى هنا و لا هدف لنا سوى البقاء معا و حماية انفسنا منهم .

تنفست عميقا لنصف دقيقة ثم نزلت من العربة ببطء و انا لا اعلم ما ينتظرني .

حين نزلت واجهت أمامي وجه ذلك الخائن مبتسما كأن شيئا لم يكن ,على يمينه تقف امرأة ذات وجه طويل و نظرات توحي مباشرة بجملة أنا أكرهك و لا أريدك هنا ,كانت ترتدي واحدا من اجود انواع الساري التي رأيتها في حياتي ,إنه فخم و مزين بالكثير من الألوان ,بالنظر إلى المجوهرات فهي ترتدي الكثير حتى انني لا استطيع إحصاء كم عدد أساور الذهب التي ترتديها لكنها ارتدت ما يكفي لتغطي جل ساعديها الايمن و الايسر ,يا لها من ملكة حقا ,انه مظهر زوجة الخائن بالفعل .

بجانبها كان يقف شاب طويل القامة و ينظر نحونا بلامبالاة ,وجهه يجعله يبدو كبيرا في السن بسبب اللحية على ما اعتقد ,لم استطع تخمين عمره الحقيقي ,أيضا كانت توجد معهم فتاة تبدو في الثلاثين , ترتدي بشكل فخم كذلك ,لا يهم كيف كانت تنظر الينا أنا فقط لم أحبها ,و أخيرا يظهر شاب في الثلاثين غريب الأطوار حقا ,ملابسه غالية و بجانبه امرأة كبيرة في السن تمسك به و هو يحاول الافلات منها ,

ينظرُ هنا وهناك مثل طفل صغير و وجهه تعلوه ابتسامة بلهاء تظهر فيها أسنانه جميعها بالإضافة إلى اللعاب الذي يسيل من فمه كطفل رضيع .

حسنا أعتقد أنه و بدون أي مقدمات هذه تكون الأسرة الحاكمة الحالية ,أمر ميؤوس منه ,لا أعلم كيف تسير المملكة لكنني كنت أسمع الأخبار من بعض الرحالة و المهاجرين الذين يمرون على القرية ,كلهم يُجمعون أن الأوضاع الاقصادية و السياسية ليست على ما يرام و الشعب يشتكي من سوء التسيير ,لكن لا أحد يجرؤ على المعارضة بسبب دكتاتورية الحاكم الجديد .

تقدمتُ نحوهم و أختي مع وجوه تخلو من أية تعابير ,كنت اكبح نفسي كي لا اشتم او اصرخ او اقفز على ذلك الخائن لأبرحه ضربا لربما يشفى غليلي قليلا ,إلا انه كان علي التريث فأنا في محيطه الآن .

قال الخائن مع ابتسامة عريضة لم تفارقه مذ نزلنا من العربة :نماستي ميرا بهتيجا سيتا ..نماستي ميرا بهتيجا نيتا ..كيف كانت الرحلة ..لم تتعبا أليس كذلك ؟

لم ارفع عيني عن الأرض و تجاهلت سؤاله تماما بل أشحت وجهي لينظر بعيدا عنه ,لكن ما فاجئني كان تصرف شقيقتي ,قالت بنبرة سعيدة :نماستي ..عمي ..الحقيقة لم نتعب كثيرا كانت رحلة جيدة .

نظرت نحوها باندهاش لكنها لم تهتم لي و واصلت حديثها الغريب مع ذلك الخائن ,تابعتْ :كيف حالك يا عمي ارجو انك بصحة جيدة ؟

اجابها ضاحكا :فعلا ..لن أكون باحسن حال من الآن ..ابنتا اخي العزيزتان تقفان امامي الآن أنا في قمة السعادة ..اه تذكرت ..نسيت أن اقدم لكم عائلتي ..هذه تكون زوجتي ماليني ..و الذي بجانبها يكون ابني الأصغر جاندار ..و تلك تكون ابنتي فينيت ..و أخيرا العريس و هو ابني الاكبر فاخير .

لم اصدق ما اسمعه الآن غريب الأطوار ذاك يكون العريس ,نظرت نحو أختي التي بدى عليها الاندهاش ايضا ,انزلتْ عينيها كأنها تحاول ابتلاع غضبها ,أنا اشتعل و لا أستطيع قول كلمة واحدة ,إن قلت شيئا الآن فلن يبدو مناسبا مهما فكرت و حاولت .

قالت نيتا :لا يزال هناك وقت على الزفاف أليس كذلك ..لأنه ن المفترض ان يتعرف العريسان على بعضهما و اذا حصل التفاهم تحصل الموافقة .

أجابتها زوجة الخائن مقاطعة زوجها :بالطبع سيجلس عزيزي فاخير و يتعرف على عروسه و إن لم تعجبه سوف نُحضر غيرها .

لا أصدق ما تقوله هذه الأفعى ,تقول أنني لن أعجب ابنها غريب الأطوار ,حسنا ليست فكرة سيئة , يُمكنني جعله يكرهني و تُحل المشكلة ,هذا إن كان القرار الأول و الأخير يعود له حسب قولها .

تكلم الخائن محاولا تهدئة الوضع :لا تقولي هذا عزيزتي ماليني ..أنا واثق أنه سيحبها و واثق كذلك أنه سيعجبُها ..عندها يحصل الزفاف و تضاف فرحة جديدة على القصر بعد خبر حمل ابنتنا فينيت .

قالت أختي موجهة الكلام نحو فينيت تلك :مبروك حملك يا أختاه آمل أن يولد بصحة و عافية و يكون سندا لك في حياتك أنت و عمي .

أجابتها بنفس نبرة والدتها المستفزة :حسنا و أنا آمل ذلك ..أتمنى أن يكون ولدا ليساعد والدي في أمور الحكم فالفتيات لا يمكن الاعتماد عليهن في هذا الشأن .

لدي حساسية من تلك النساء اللواتي ينْسُبن الغباء ,الضعف و الكثير من الصفات المهينة إلى جنس المرأة و يَنْسين أنهن بذلك يصفون أنفسهم كذلك ,تلك النساء اللواتي ترى في الرجل الكائن المثالي و الذي له الأحقية الكاملة على الحكم و اتخاذ القرارات حتى القارارت التي تخص النساء أنفسهن ,تلك النساء اللواتي تُفرّقن بين أبنائهن و بناتهن ,إنهن مقرفات و يُصِبنَني بالاشمئزاز لجهلهن و قِصَر بُعد تفكيرهن حول الحياة .

تكلم شقيقُها الأصغر و قد أعلنته المكروه رقم إثناء على قائمتي التي يتصدرها والده بعدما قال بعلو و غرور موجها الكلام نحو أختي :لم يعجبني كيف تنادين والدي الحاكم بعمي بدل سيدي المهراجا حتى أنك نادَيتِ ابنته بأختاه ..إنها الأميرة فينيت ..هكذا ستُلقبينها ..فهمتِ ؟

حسنا لقد طفح الكيل أنا سأنقض على هذا السافل حتى لو كان هذا آخر شيء أفعله ,و لكن قبل أن أتجه نحوه لألكمه أمسكتني نيتا و منعتني من ذلك ,نظرتُ إليها فرأيتها تطلب مني أن أتغاضى عن الأمر .

فتحت فمي لأتكلم أخيرا لأنه لو لم أقل شيئا لانفجرتُ حينها ,قلت له :ألا تعلم أن من عادات الأسرة الحاكمة نزع الألقاب بين أفرادها ..مثلما تنادي أنت أختك بأختي فنحن كذلك يحق لنا ذلك كوننا من نفس الأسرة و نحمل نفس الدماء ..ألم تكن تعلم بالأمر أم أنك تعمدت قول هذا الهراء ..أشكُّ في جهلك له إلا إنْ كنتَ لا تدرسُ كما يجب فلمْ تحفظ بعد كِتاب آداب الأسرة الحاكمة ..على عكسي و أختي كنا نحفظه حينا كنا لانزال في الخامسة من عمرنا فقط ..هاه ..أجبني ..هل تحفظه يا تُرى ؟

أغلق ذلك السافل فمه و نظر بعيدا متجنبا نظرات والدته الغاضبة ,بالطبع ستكون غاضبة فقد تعرض للاهانة ,إن لم تكن تحفظ آداب الأسرة الاساسية فكيف تعتبر منها اساسا ,إنه أمر ضروري حتى بالنسبة لأسرة خائن انقلب على الأسرة الحاكمة الشرعية .

دعانا الخائن إلى القصر كأنه ليس منزلنا الذي كنا نعيش فيه ,طلب من المرافقات أخذنا إلى غرفتنا التي جهزوها لاستقبالنا ,كنتُ أريد ان اسأل عن غرفتي القديمة لكنني وجدته سؤالا ساذجا خصوصا أني متأكدة انهم سيكونون قد استولوا عليها ,تخيل تلك العقربة فينيت تنام على سريري جعلني افقد اعصابي .

أخذتنا المرافقة إلى غرفة تحتوي على سريرين عاديين لا يُشبهان أسرتنا القديمة أبدا ,حسنا على الأقل هي أسِرّة ,إنها أفضل من السجاد الذي نفرشه فوق الأرض لننام عليه في تلك القرية .

غرفة عادية و كئيبة تشبه إلى حد كبير غُرَف المرافقات ,ربما تكون إحدى غرفهم فعلا ,لا نافذة فيها حتى ,كيف سأعلم أنه الصباح إن لم توجد نافذة .

أعتقد أن المرافقات يملكن منبها في عقولهن يوقظهن في الوقت المناسب ,تخيل ديك يصيح في عقولهن صباحا أمر مضحك فعلا .

نمتُ و أختي ليلتها دون قول كلمة واحدة عما حدث أمام مدخل القصر ,كنا متعبـتيـن و خائرتي القِوى , لم نتناول العشاء حتى بل استلقينا على تلك الأسِرة و نمنا حتى صباح الغد .

في صباح الغد طرقتْ مرافقة الباب قائلة أنه وقت الفطور و طلبتْ منا الإستيقاظ .

نهضت من السرير فوجدت أن أختي غير موجودة في الغرفة ,ماذا حصل هل أبعدوها عني .

خرجت من الغرفة و أنا أركض و أصرخ باسمها كالمجنونة ,فتحت أبوابا و طرقت أبوابا ,أصرخ غير مبالية بنظرات الحراس و المرافقات ,الجميع كان ينظر إلي كأنني مختلة عقليا .

في منتصف القصر توجد نافورة رخامية تتوسط الساحة ,مكان أختي المفضل ,توجهت نحوها مسرعة و لم يخب ظني ,وجدتها تجلس هناك تشاهد الأسماك الصغيرة التي تسبح وسط النافورة ,ركضت إليها و عانقتها بقوة .

قالت باندهاش :ما الأمر ..هل حصل امر ما ..هل شاهدتي كابوسا ؟

أجبتْ :اجل ..شاهدت كابوسا مروعا ..كنت ابحث فيه عنك ..لكنني لم أجدك في اي مكان ..صرخت عاليا لكنك لم تجيبي ..ظننت أنهم اخذوك .

قالت و هي تمسح على شعري المبعثر :كيف خرجت هكذا من الغرفة ..الأميرة عليها ان تكون مرتبة أمام الجميع ..أم انك نسيتي آداب الأسرة الحاكمة التي ضربتي بها وجه ذلك المتعجرف .

أجبتها بغضب :لا تقولي أنني أخطأت ..كان كلامه مستفزا و أردت لكم وجهه حتى يتعلم الدرس .

قالت مبتسمة :لا لن أقول ..الحقيقة ..كانت أول مرة تكونين فيها بهذا القدر من الصواب ..لقد أعجبتني ..لكن لا تكرريها ..حسنا ؟

عانقتها مجددا بسعادة أكبر و قلت :حسنا أعدك ..الحقيقة حين أراك متماسكة اشعر بالطمأنينة .. تجعلينني أتمالك نفسي .

سألتْ :هل تريدين أن تعرفِ ما هو السر ؟

أجبتُ بحماس :اجل ..اجل ..من فضلك قولي ما هو سرك ؟

نظرت نحوي و قالت :حين يقولون كلاما مستفزا أقول في نفسي ..لا بأس ..أنا لست أحسن منهم .

سألت باندهاش :تقولين "لا بأس لست أحسن منهم "كيف ذلك هل نسيتي انهم قتلوا والدينا من دون رحمة و خانوا المملكة بكاملها ..لا أبدا في نظري نحن أحسن منهم بمائة مرة لا بل بألف حتى أنهم لا يستحقون أن يقارنوا بنا .

أجابت بلا مبالاة كأنها لم تهتم لكلامي :أجل معك حق .

غريب أمرها ,أولا تُكلم قاتل والدَينا بلطف ثم تقول انها ليست أحسن من أسرته ,أعتقد أن الهواء هنا ضار أو شيء ما فقد فقدت عقلها تماما .

بعد تناولنا الفطور ,أخذتني المرافقات لأقابل غريب الأطوار .أخذنني إلى حديقة القصر أين وجدتهم قد جهزوا طاولة مستديرة ,ملأوها بأنواع مختلفة من الفاكهة ,إضافة إلى باقة كبيرة من الأزهار الملونة .

توجد الطاولة أسفل قوس خشبي مزين بأزهار الياسمين ,كانت رائحتها منتشرة في المكان ,و نسيم الهواء العليل يعبر أسفل القوس ليحرك بتلات تلك الأزهار و يُعيد إلينا نشاطنا حين يُلامس وجوهنا الناعسة .

جلستُ على تلك الطاولة لأقابل وجه غريب الأطوار ,كانت نفس السيدة التي رأيتها بالأمس تقف بجواره و تحدق .

قالتْ بعدما وجهتْ نظراتها نحوه :صغيري فاخير ..أي فاكهة تريد أن تأكل ؟

أجابها و هو يشير على صحن الفاكهة مرارا و تكرارا بينما ظل وجهه ينظر تارة نحوها و تارة نحو الطبق :أريد ..أريد ..أريد تناول تفاحة حمراء ..المفضلة لدي .

ابتسمت السيدة و تناولت أكبر تُفاحة حمراء وَجدتها في الطبق ثم تقدمت نحوي و منحتني إياها قائلة : تفضلي سموك ..إنه يحب أكلها من دون قشور .

نظرت إليها باندهاش محاولة استيعاب الموقف لكن قبل أن أنطق بأي كلمة تابعت :إنها طريقة جيدة لتتقربي منه ..فهو لا يثق في الآخرين بسهولة .

من دون تفكير أمسكت بالتفاحة و شرعت في تقشيرها أعتقد أن علي فعل ذلك كي أرى كيف سينتهي الأمر معي .

عندما انتهيت توجهت نحو غريب الأطوار و منحته صحنا من أبراج التفاح المقشر .

قالت له السيدة :هذه تكون الأميرة سيتا ابنة عمك الراحل .

أجابها و هو يركز على صحن التفاح كأنه يتفحص أمرا ما :الأميرة ..الأميرة سيتا ..إنها ..لا ..لا تجيد تقشير التفاح .

لم أصدق ما سمعته "لا تجيد تقشير ماذا "صرخت في وجهه غير مبالية بالسيدة :إن لم تعجبك طريقة تقشيري فلتفعل ذلك بنفسك إذا .

لم أتوقع أن يعطي ردة الفعل هذه لأنني صرخت عليه لكنه نهض عن الطاولة و بغضب سحب مفرش الطاولة من أسفل الأطباق ,و في لحظة أصبحت جميع الاطباق و الفواكه مرمية على الأرض ,كما أمسك بالكرسي الذي كان يجلس عليه ,رفعه عاليا ثم رماه بكل قوته بعيدا ليتحطم إلى قطع .

حاولت السيدة تهدئته ,حاولت ان تمسك به لتمنعه من أذيتنا و أذية نفسه لكنه ظل يقاوم بشدة ,لذا صرختْ طلبا للمساعدة فركضتْ مجموعة من المرافقات و التففن حوله ليقمن بامساكه بينما تقوم السيدة بتهدئته .

لا أصدق ما حصل ,كان مشهدا مخيفا حقا جعل دقات قلبي تتصاعد و تنفسي يصبح أسرع ,كل ذلك و أنا اقف متفرجة عليه و هو يقوم بتحطيم كل ما تقع عليه يداه و من غير المستبعد أنه إن أمسك بي سيقوم برميي مثل ذلك الكرسي .

عندما هدأ أخذته المرافقات إلى غرفته بطلب من السيدة ,أما بالنسبة لي فقد توجهتْ نحوي و أمسكتني بقوة و سحبتي إلى مكان خالٍ في الحديقة لتُكلمني.

قالت و هي تحاول تمالك نفسها :إسمعي سموك أنا لا ألومك على ما فعلته و لكن ما كان يجب أن ترفعي صوتك فهو حساس للأصوات ..أعلم أنه صعب المِراس لكنه طيب حقا و لن يؤذي أي أحد عن قصد ابدا .

قلت بقلق واضح فأنا لم استوعب ما حصل حقا :ما الذي تقصدينه ..اعني ..هل لديه مرض ما ..لماذا يتصرف على هذا النحو ..لقد ظننت في البداية أنها شخصيته أو شيء ما ..لكنني تأكدت بعد ما رأيته للتو ..إنه ليس طبيعيا .

اجابتْ بارتباك :لقد نبهتني الملكة ألا أقول الكثير و لكن يجب أن تعلمي ..أرجوك لا تخبريها أني اخبرتك .

قلت بقلق :بالطبع لن افعل ..سيبقى هذا بيننا .

_في الحقيقة ..إن صغيري فاخير لديه إعاقة ذهنية ..مع أن الملكة و الملك لا يصدقان ذلك ..لكن هذا كان تشخيص كل حكيم كشف عليه ..أحضروني لأعتني به مذ كان في العاشرة ..حين سمعت أنهم يريدون تزويجه لم يخطر ببالي أبدا أن تكون زوجته هي حضرتك سمو الاميرة .

_أنا آسفة أنا لم أكن أعلم ..حقا .

_سمو الأميرة ..لا أعلم ما أقوله لك و لكن ..سمو الأمير غير جاهز للزواج ..و لن يكون كذلك ايضا ..لقد أرادوا تزويجه فقط للحفاظ على سمعتهم بعدما انتشرت شائعات كثيرا عن سمو الأمير حين تأخر زواجه ..لقد قالوا عنه كلاما سيئا جدا .

شعرت بالصدمة لدى سماعي كلامها ,غادرت المكان دون اضافة كلمة اخرى و ركضت بأقصى سرعتي إلى الغرفة أين توجد شقيقتي .

ارتميت في حِجرها أبكي دون قول كلمة واحد ,ظلت تترجاني أن أخبرها ما الأمر ,لكنني اكتفيت بترديد عبارة واحدة :أنا لا اريد الزواج .

أعلم أن قلب أختي مكسور بالفعل و لكن إن لم أستطع اخبارها بما يجول في خاطري فمن سيسمعني اذا .

نهضتْ عن السرير و غادرت الغرفة ,سألتها إلى اين لكنها لم تجبْ ,لا أعلم الى أين ذهبت ,لكنني استمررت في البكاء ,أعتقدُ أن الأمر انتهى .

***

مر أسبوع على مجيئنا و بدأتُ أعتاد على أسامي المرافقات و على الغرفة الموحشة الخالية من النوافذ .

صرت ألتقي بفاخير كل يوم تقريبا و أظنه قد اعتاد علي أيضا ,على الأقل لم يعدْ يقوم بأي حركات مفاجئة كرمي الكؤوس حين أرفض له طلبا أو الصراخ رافضا أي طلب أسألُهُ إياه.

أعلنَ الخائن موعد الزفاف قائلاً أن مدة أسبوع كافية لنا و لا فائدة من الإطالة أكثر .

أختي لم تُعلِّق على الموضوع أبدا ,كنا نتحدث قليلا جدا كأننا متخاصمتان ,لم اعلم السبب و لكنها كانت تتفادى الحديث معي ,حتى اذا بادرتُ في الحديث معها منحتني اجابات قصيرة .

أجواء القصر كانت موحشة حقا ,رغم أنه لم يكن علي القلق حول المزرعة بعد الآن إلا أنني اشتقت الى القرية و قصص ماجودرا الطريفة ,مع اننا كنا نحفظها عن ظهر قلب إلا انها تنجح في إضحاكنا بشدة كل مرة تقصها علينا .

ارتديت الساري الذي منحتني اياه المرافقات ,كان احمر اللون و مطرزا بخيوط ذهبية ,قاموا بتجهيزي لساعات من الزمن بينما ظلت أختي تقف بقربي تذرف دموع الحزن لا دموع الفرح .

عندما خرجن ,انحت اختي و امسكت بيدي قائلة :عزيزتي سيتا ..هل تعدينني انك ستكونين بخير مهما حصل ؟

اجبت بقلق :و ما الذي سيحصل ..لا اعتقد ان الأمور ستسوء أكثر مما هي عليه .

نظرتْ الي و ابتسمتْ ثم أحضرت لي كأسا من الشاي ,قالتْ :انه شاي مع بعض الاعشاب الطبية .. مهدئ جيد للاعصاب ..اعلم انك تواجهين مشاكل في الحفاظ على هدوئك لذا إشربيه .

ابتسمتُ لمزاحها الغريب و احتسيت ذلك الكأس دفعة واحدة.

حاولت استطعام مذاقه فوجدت أن له طعما مختلفا عن أي شاي شربته من قبل و قبل ان اسأل اختي عن نوع تلك الأعشاب تثاقلت عيناي فجأة و أحسست بالدوار ,لم استطع مقاومة موجة النعاس التي هبطت علي ,لم اعرف حتى كيف غِبْتُ عن الوعي و نمت لمدة من الزمن .

عندما استيقظت وجدت نفسي مستلقية على السرير في الغرفة ,نهضت بسرعة محاولة استيعاب ما حصل ,لم افهم اي شيء ,كيف غبت عن الوعي ؟ و لما لا ازال نائمة هنا ؟ و ما الذي ارتديه ؟

أدركت انني ارتدي ملابسي العادية ,اين ذهب ذلك الساري الاحمر ؟ هل انا لا زلت احلم ام ماذا ؟

خرجت من الغرفة لأبحث عن أختي فهي آخر من كنت معه ,بالتأكيد لديها اجابة عن اسئلتي ان لم تكن هي الاجابة نفسها .

سرت في القصر بينما تقوم المرافقات بتحيتي بشكل عادي ,ما الذي يجري هنا بحق السماء ؟

أوقفت احدى المرافقات و سألتها :مهلا أخبريني ..هل تعلمين مكان اختي الآن ؟

أجابت :الأميرة سيتا ذهبت إلى القاعة الكبرى لتقابل الملك و الملكة ..عليها أن تأخذ مباركتهما لزواجها من الأمير .

أختي ذهبت لتأخذ مباركتهما ؟ لقد أصابها الجنون ,سألت مجددا :هل أنت واثقة من كلامك ؟

اجابت بثقة :أجل ..لقد رأيتها بعيني و هي ترتدي الساري الذي منحَتْها إياه الملكة و تذهب باتجاه قاعة الحفل حتى أن مرافقاتها كن يتبعنها .

لقد حصل خطأ ما الجميع يعتقد الأن ان اختي هي انا ,سوف تتزوج مكاني هل جنت أم اصابها سحر ما , اظن انها هي السبب في غيابي عن الوعي ,علي ايقاف هذا الجنون قبل ان يكتشفوا امرها .

ذهبت مسرعة الى القاعة اين يقام الاحتفال ,بحثت عن نيتا جيدا فأدركت أنها ليست هنا ,سألت احدى المرافقات فقالت أنها رأتها تغادر منذ قليل مع الخائن ,ربما ذهبا إلى الحديقة او ربما الى النافورة ,اه لم اعد أستطيع التفكير .

خرجت من القاعة و ركضت في ارجاء القصر بحثا عنهما ,كنت اسأل كل من صادفته في الطريق لكن لا أحد شاهدهما .ماذا لو اصابها مكروه بسببي انا لن استطيع تحمل الأمر .

دخلتُ احدى الغرف دون معرفة حتى من يكون صاحبها ,كانت مظلمة و هادئة ,يتسلل نور القمر بين ستائر شرفتها ,خرجت إليها لرمبا يفيدني استنشاق هواء هذه الليلة الغريبة ,لازلت أشعر بالوحشة , حتى هذه الاطلالة الجميلة توحي لي بالوحدة الأبدية ,فالقمر يرفض ان يكون رفيقي و سيودعني صباحا .

نظرت الى الاسفل فبدى المكان عاليا ,ربما سأحلق و ربما سأسقط ففي كلتا الحالتين سأرتاح من آلامي و اجتمع بسعادتي الأبدية ,لا يفصلني عنها سوى هذا القدر من العلو .

كنت على وشك القفز حين سمعت فجأة صوتها ,نظرت الى الاعلى فوجدتها تقف لوحدها في مواجهة ذلك الخائن ,قالتْ بصوت لا يشعر بكمية الخوف الذي فيه غيري :بما انني اخذت مباركتك اظن انه باستطاعتي الذهاب الآن .

اجابها بنبرة خبيثة كأنه يعلم شيئا :و لما العجلة لا زال هناك موضوع يجب ان نتحدث به .

سألتْ بقلق :موضوع ..ما هو ؟

أجابها :اختك ..الأميرة نيتا .

احسست ان قلبي كاد يخرجي من صدري لسرعة نبضه ,تحدث ايها السافل ما هو هدفك .

تابع حديثه :ما الامر ألستِ مهتمة بما ساقوله .. غريب ..هذا لا يعني سوى واحدا من امرين ..إما انك تعلمين بالامر مسبقا ..أو ..

سكتَ عن الكلام ,رأيته يقترب منها و يمسك بضفيرتها ,ما الذي يفعله هذا المختل .

صرخ فجأة بغضب كأن حية لدغته :أو انك لست الاميرة سيتا .

دفعها ذلك المختل لتسقط ارضا و تابع كلامه بغضب :هل ظننتما انكما ستخدعانني ..هل اعتقدتما انني مجرد رجل عجوز اخرق لن يكتشف خدعة كهذه ..لأخبرك شيئا يا عزيزتي ..لطالما كانت ضفيرة شقيقتك في الجانب الأيسر على عكسك أنت التي تضعينها في الجانب الأيمن ..عندما لاحظتك الليلة علمت انك لست هي لذا كفي عن الخداع و أخبريني ..أين تكون شقيقتك إذا ؟

صرخت نيتا بكل قوتها :انت لن ترى اختي مرة اخرى في حياتك أبدا .

جن جنون ذلك الوغد و صفعها بغضب ,لا اصدق كيف تعقدت الامور الآن ,هل أرادت منحي فرصة لأهرب ,انا ,انا لا اعرف ما الذي علي فعله .

صرخ الخائن مناديا على الحراس :حراس ..خذوا هذه و احبسوها في غرفتها و احضروا لي شقيقتها في الحال ..ان لم تجدوها فلا اريد أن أرى وجوهكم مجددا في قصري .

تراجعتُ الى الوراء و حاولت ضبط انفاسي ,علي استجماع افكاري ,اختي ستكون بخير ,انا علي الهرب ,اجل هذا ما سأفعله ,سأهرب و اذهب للحصول على المساعدة .

أخذت جميع الشراشف التي وجدتها في الغرفة و صنعت حبلا ,استخدمته للنزول إلى الأسفل ,في هذا الظلام لن يستطيع الحراس الامساك بي .

ركضت بأقصى سرعتي الى اقرب بوابة ,ففي القصر توجد خمس بوابات واحدة رئيسية تعتبر المدخل الرئيسي للقوافل أما الأربعة الآخرين ,مخصصون للحراس و العمال اضافة إلى مشتريات السوق .

انتظرت عند احدى تلك البوابات و لحسن حظي مرت عربة محملة ببقايا الطعام ,عندما توقفتْ ليُكلِمَ سائِقُها الحراس اغتنمت الفرصة و اختبئت تحت كومة الاكياس تلك ,هم لن يقوموا بتفتيش العربات التي تغادر القصر بل التي تدخله .

لكن فجأة قال الحارس شيئا :انتظر دعني اتفقدها فقد سمعت من حراس القصر أن الأميرة مختفية ..ربما تحاول الهروب من هنا .

لقد انتهى أمري لا أملك فرصة أخرى إن لم اهرب الآن فلن استطيع ذلك ابدا ,لكن السائق ضحك و اوقف الحارس قائلا :هذه عربة مخلفات و طعام فاسد ..هل تظن أن الأميرة ستصعد فيها ..دعك من هذا ..لا تقم بتلطيخ يديك و دعني اذهب أنت تؤخرني .

تراجع الحارس و ترك سائق العربة يمضي في حال سبيله ,لقد نجوت باعجوبة ,لكن الرائحة مريعة جدا ان لم اخرج من هنا لقامت هذه الرائحة بقتلي بدل الخائن .

عندما دخلنا الى الغابة ,قفزت من العربة دون ان يلحظني السائق .ركضت الى اقرب بحيرة لاغتسل فيها و قفزت في الماء مثل طفلة صغيرة فانا لم ارد ان تجلب رائحتي الكائنات المتوحشة التي تعيش في الغابة .

استلقيت اسفل شجرة و حاولت تقييم الوضع ,انا فعلا احتاج للمساعدة لا سبيل آخر ,

شعرت بالنعاس فاغلقت عيني لارتاح قليلا لكن فجأة امسك احدهم بفمي لمنعي من الصراخ و قام بتقييد يدي .

من هم هؤلاء ؟ هل هم من لصوص الغابة ؟ هل سيبيعونني كجارية الان ؟ انا الاميرة سيتا لا اريد ان ينتهي بي الحال هكذا .

نظرت جيدا إلى وجوههم فرأيت فتاة و فتى عربيين معهما حصان أبيض ,ماذا يريدون مني ,أنقذني يا الهي .

الفصل السابع

الثورة

أليست قصتها محزنة ,لقد آلمني سماعها حقا ,قُتِل والداها على يد عمها و نُفيت من قصرها هي وشقيقتها ثم بعد سنوات يأمر عمها بزواجها من ابنه ,حسب الاخبار التي تصل للملكة فإن فعلته هذه راجعة من تخوفه من معارضيه الذين لديهم امل في عودة الاميرتين الشرعيتين إلى رأس الحكم ,إن تزوجت الاميرة من ابنه فسيفقد الشعب املهم الوحيد لاصلاح الاوضاع الحالية .

كانت اول مهمة توكل لي في حياتي ,و لأن الملكة وعدت بتحقيق مطلبي إن استطعت إنقاذ الاميرة من هذا الزواج قررت توليها .

لكن عبور مملكة إنديان آباد ليس سهلا مثل مملكة البابالون ,إنها تمنع دخول أي أحد إلى أراضيها دون إذن منها ,لذا كان علي و عين الافتراق عن قرين عند الحدود و الدخول متسللين ,منحتنا الملكة هويات مزيفة لجواسيس قدماء كانوا يعملون لصالحها .

دخلنا الحدود بواسطة تلك الهويات ثم اشترينا خريطة و اتجهنا إلى العاصمة .

كل شيء كان مختلفا عما عهدناه في قرطبة ,الطعام و اللباس و أشكال المباني و حتى الأشخاص كانوا مختلفين كثيرا ,كنا نلفت الأنظار حين نسير بينهم في الأسواق .

بعد رحلة دامت أربعة أيام من التنقل عبر مدن و قرى إنديان آباد الكثيرة وصلنا أخيرا إلى العاصمة التي وجدناها أكثر تحضرا من القرى و المدن السابقة ,النتظيم فيها يبرز في الطرقات و توزيع المحلات , كما أن مظاهر الثراء موجودة لدى بعض المواطنين على عكس مظاهر الفقر المنتشرة في القُرى ,كأننا

شاهدنا عالمين من إنديان آباد ,العالم الفقير و العالم الغني أو لنقل الأحسن حالا فحتى عالمهم الغني لا يُقارن بأغنياء القبائل العربية ,رغم أن المملكة تحمل ثروات كثيرة حسب ما شاهدناه ,و سكان القرى يعملون بشكل جبار في الزراعة و الفلاحة ,لكن قوانينهم الظالمة للشعب هي السبب حسب أقوال بعضهم .

تحدثنا مع فلاحين و مزارعين و تجار من أماكن مختلفة و الكل يُجمِعُ أن الضرائب الكثيرة و المرتفعة هي السبب في صعوبة العيش ,حتى أنه تمر عليهم أيام يزورهم فيها قابضوا الضرائب يوميا لجمع النقود فأصبح الجميع دائنين ,و بعضهم زُجّ في السجن لعدم مقدرته على الدفع ,إنه الظلم بعينه .

لا يوجد عدل في الضرائب فالأغنياء يدفعون الضرائب بالتساوي مع الفقراء ,الأجدر كان جعل مقدار ما يجنيه الفرد هو المقياس الأساسي لقيمة ضريبته .

الكل كان يعيش ضمن القوانين المعتمدة قي أغلب الممالك حتى حصل الانقلاب و انقلبت الموازين معه , تغيرت القوانين بين ليلة و ضحاها دون استشارة للقائمين عليها من الأساس .

الكل يشتاق إلى عهد الملك السابق الذي لا يظلم عنده أحد ,و الجميع مصدوم من خبر زواج احدى ابنتيه .

في ليلة حفل الزفاف وضعت و عين خطة لمسعادتها على الهرب فأرسلنا رسالة عبر إحدى جواسيس ملكة البابالون الذي يعمل في القصر ليضعها في غرفتها .

كنا نظن أنها سترد عن الراسلة لكنها لم تفعل ,بقينا في الغابة يوما كاملا ننتظر منها جوابا و عندما حل الليل علمنا أنها لن تأتي ,فكرنا حتى أنها قد تكون قد كُشفت و قد يرسل الحاكم من يمسكنا نحن أيضا , لكن عين أصر أن نبقى و نختبئ في الغابة و ننتظر ,عندها رأيناها ,فتاة سمراء ذات ضفيرة بنية طويلة ,نائمة أسفل شجرة ,ترتدي ملابس غالية الثمن و مجوهرات كثيرة ,نظرت الى عين و قلت : هل تظن انها هي ..ماذا لو كان الأمر خدعة ..أنا لا أريدهم أن يمسكوا بنا .

أجاب عين :لن نعرف أبدا إن لم نذهب و نسألها ..لا تخافي لقد تفقدنا المكان عديد المرات و لم نشاهد حارسا أو جنديا واحدا يتجول في الغابة ..لو كان الأمر خدعة لكانوا أرسلوا معها من يمسكنا أليس كذلك ؟

قلت بعد تفكير معمق :حسنا إذا ما رأيك أن نذهب و نقوم بتقييدها ثم استجوابها .

هز عين رأسه موافقا لذا اعتبرت ذلك موافقة ,تسللنا بحذر من وراء الاشجار و انقضضنا عليها مثلما يفعل الاسد بفريسته ,قمنا بتقييد يديها و قدميها و ربطنا لها فمها ,أعلم أن هذا ليس سلوكا رائعا لمعاملة أميرة و لكن للضرورة أحكام و الحذر واجب .

أخذناها إلى مكان جيد للاختباء ثم حررنا فمها لنتحدث معها .

نظرتْ إلينا بغضب شديد بعينيها تلك ,قال عين محاولا تهدئتها :لا تخافي نحن لن نؤذيك ..انت الأميرة سيتا أليس كذلك ؟

نظرتْ إلي و سألتْ :و من تكونا أنتما ..من تجاري العبيد أو من خونة المملكة ؟

لا أصدق ما تنعتنا به هذه الفتاة ,خونة ؟ تجار العبيد ؟

سألتُ مجددا و بنبرة لنقل ليست لطيفة كثيرا :أخبرينا من تكونين ..إن لم تجيبي سنقيدك في إحدى هذه الاشجار و نترك وحوش الغابة تلتهمك .

حدقت في بغضب ,هل تظن انها تستطيع إخافتني بعينيها تلك ,قال عين بنبرته اللطيفة المعتادة لا أعلم لما يتكلم معها بلطف في حين أنها يمكن أن لا تكون الاميرة .

_اسمعي ..نحن اتينا لانقاذك لا بد أنك قرأتي رسالتنا لهذا اتيت إلى الغابة أليس كذلك ؟

_رسالة ..أية رسالة أنا لم أقرأ أية رسالة ..هل تحاولان خذاعي أو شيئا ما ؟

_لقد ارسلنا رسالة الى الاميرة سيتا و طلبنا منها ان تقابلنا في الغابة هذه الليلة كي نستطيع مساعدتها .. إن لم تكوني هي فمن تكونين ؟

_إسمعا كائنا من تكونا أنا لا أعرف شيئا عما تقولانه ..فكا قيدي و دعاني أرحل .

لقد مللت حقا منها همست لعين بعدما نفذ صبري :دعنا نأخذها إلى مجموعة المعارضة ربما سيتعرف عليها احدهم فنحن في كل الاحوال لم نقابل اية فتاة أخرى لنقول أنها الاميرة عدا هذه .

أجاب عين :حسنا .

ربطنا الفتاة ببحر وسط مقاومتها العنيفة و شتمها المتواصل لنا ,لقد أحسست أننا مختطفون لا أننا نحاول فعل أمر جيد للمملكة و الاميرة .

امتطيت و عين ظهر بحر بينما تركناها وراءنا تسير مقيدة اليدين ,لم أكن اهتم لامرها لكن عين ظل يتلفت للوراء و يزعجتي قائلا :لما لا نتوقف قليلا أظن أنها تعبت ..ما رأيك ان اسير أنا و تجلس هي على بحر ..أتعلمين نحن لم نقدم لها الماء ماذا لو كانت عطشة ..مهلا ماذا لو كانت جائعة ..هيرا .. هيرا ؟

لم يعد الأمر يحتمل ,إذا ماذا فعلتْ ؟

قمت بإنزاله عن بحر لأتخلص من ازعاجه .

حين وصلنا إلى المكان أين تختبئ المعارضة طرقنا الباب و قلنا الكلمة السرية :بوليوود في الساحة .

فتح أحد الأعضاء الباب و أدخلنا ,بمجرد أن دخلت الفتاة المقيدة و رآها الثوريون حتى قفزو ليتجمعوا حولها ,حتى أن احدهم قام بدفعي بعيدا ليقف بقربها ,لا أصدق هل هم سعيدون كل هذه السعادة لرؤية اميرة ,حسنا انا اميرة أيضا إذا لما لم احصل على هذه المعاملة الخاصة أيضا ,يالهم من قليلي الذوق .

قاموا بفك وثاقها و سألوا بحماس :أنت هي الاميرة سيتا اليس كذلك ؟

أجاب عين بتردد :حسنا لسنا متأكدين بعد لأنها لم تُرِد إخبارنا .

قال أحدهم :هراء انها الاميرة انا اشعر بذلك .

لا اصدق كيف يشعر بذلك هل هو ساحر قارئ للأفكار .

أضاف :أنا ساحر قارئ للافكار .

حسنا بدأت أشعر بالخوف .

قال رجل آخر :لا أعلم ..لا تبدو مثل أميرة بالنسبة لي .

أخيرا أحدهم يقول كلاما منطقيا .

أضاف و هو يصيح رافعا يده كأنه يجيب على سؤال طرحه المعلم :إنها الملكة يا رفاق .

لابد أن جميع الثوار هنا من المجانين هل خدعتنا ملكة البابالون يا ترى ؟

كان الجميع يتحدث و يعطي فرضيات عن هويتها و لم يسمحوا للفتاة أن تخبرنا بمن تكون .

عمت الفوضى في المكان و علت أصوات الشِجار و المناوشات الكلامية حتى صرخ رجل بدى أكبرهم و أعقلهم :سكوت ..ألن تكفوا عن التصرف كالأطفال ..دعوها تخبرنا بنفسها لما تتشاجرون حول هذا بحق ؟

صمت الجميع ,أخيرا تكلمت الفتاة :حسنا أنا لا أعرف من تكونون لذا لست واثقة إن كنت استطيع اخباركم من اكون .

قال الرجل الكبير :لا عليك يا ابنتي كلنا هنا من مؤيدي الملك السابق ..ندعوا أنفسنا بالثوار ..لابد أنك على اطلاع بالأوضاع السيئة التي يعيشها الشعب ..كنا نخطط للقاء الاميرتين و مساعدتهما على العودة للحكم ..ان لم تكوني تريدين اخبارنا من تكونين فلا بأس .

أجابت الفتاة بتردد واضح :انا ..انا ..أنا لا أريد المشاكل .

لا تريد المشاكل هاه ؟

الشعب في وضع يرثى له و هي تقول انها لا تريد المشاكل ,إن لم تكن الاميرة المنشودة فل تخبرنا فحسب لما كل هذا التردد ,يالها من جبانة .

صرخ الرجل قارئ الافكار فجأة :الأميرة القرطبية تقول انك جبانة .

لا اصدق هل يقرأ افكاري انا فقط ..لما لا يخبرنا بما تفكر به هي ؟

نظر الجميع نحوي بمن فيهم هي لذا احسست من واجبي أن اقول شيئا :حسنا لم اقصد ذلك حقا ..انا فقط لا افهم سبب ترددك ..إن كنت خائفة من أمر ما أخبرينا ..سوف نقوم بحمايتك .

قالتْ بغضب و تأثر كبيرين :و لما علي الوثوق بكم ..تحمونني ..كيف تفعلون ذلك و انتم لم تحموا الملك السابق حتى ..اين كنتم عندما دخل الجنود الى القصر و قتلوا جميع من فيه صغارا و كبارا ..اين كنتم عندما كنت و اختي خائفيتن و لا ندري إن كنا سنعيش ام نموت ..اين كنتم هاه ..اجيبوني اين كنتم ..لما لم تحموا الملك و بناته في ذلك الوقت ..لما ؟

خرجت الفتاة من المكان و هي تحاول كبت دموعها ,عم الصمت في هذا الكوخ المليء بالرجال الثرثارين ,نظرت الى عين الذي بدا غاضبا ,وضعت يدِ على كتفه لأهدئه لكنه أبعدها وخرج مسرعا للبحث عنها .

هل اصبحت انا الملامة الآن ,قبل اسبوع لم أكن اعلم حتى بان ملك إنديان آباد قد تغير كل ما عرفته عن المملكة هو قماشها الجيد و الفخم ,على كل حال الأمر هو على مسؤوليتي الآن لقد وعدت ملكة البابالون , و العَرب يوفون بوعودهم .

خرجتُ وراء عين للبحث عن الفتاة ,آمل انها لم تبتعد كثيرا ,في هذا الظلام ليس من الممتع لعب لعبة الاختباء .

بعد دقائق وجدها عين تجلس على غصن احدى الاشجار ,إنها متسلقة بارعة كيف وصلت الى هناك .

وقفت و عين لنكلمها أسفل الشجرة ,سألها أن تنزل لكنها رفضت ,قلت و انا اكبتُ غضبي بصعوبة : اسمعي جيدا ..لستِ الوحيدة التي عانت في حياتها ..لأصدقك القول نحن لم نكن لنأتي و نساعدك لولا أن لنا مصلحة في هذا ..لذا انزلي ودعينا نتحدث كأناس عاقلين فقد فرغت من الحديث الى المجانين داخل ذلك الكوخ .

أجابت بعناد :انا لن انزل ..إن كنتِ تريدين ذلك بشدة فتعالي لتنزليني إن استطعتِ .

لا اصدق ,انا اشتعل غضبا الآن ,اريد جلب فأس و قطع هذه الشجرة لأريها اني لست امزح .

قال عين ليهدئني :هيرا ..ارجوكي اهدئي ..لقد فقدتْ كِلا والديها في حادث مروع ..لا تقسي عليها حسنا ..حاولي تفهمها .

اكره عندما يكون على حق ,لا اعلم لما اصحبت عصبية لهذه الدرجة ,فقط عندما اقتربت خطوة من اصلاح كل شيء تظهر هذه الفتاة لتكون عائقا لي ,انا فقط لا اتقبل الوضع ,لكن لا احد قال ان الامر سيكون سهلا و انا وافقت ,علي القيام بأقصى ما أملك في محاولتي ,و إلا سأبقى نادمة طوال حياتي .

جلست أسفل الشجرة و ووضعت يدي اين اعتدت أن ألمس قلادة امي ,انها ليست معي الآن , امي انت لست غاضبة مني اليس كذلك ؟ قلتْ :أنا لا ألومك صدقيني ..ان كنت مكانك لما استطعت النهوض من السرير من فرط الحزن لذا ..لا تعتقدي انني استهين بك بل بالعكس ..في نظري ..اراك فتاة قوية و شجاعة يمكنها حماية نفسها بنفسها ..حين كنت لا ازال في الخامسة ..ألعب بالدُمى و المجوهرات في سرير امي الدافئ الواسع ..اركض في كل مكان و اجعل المرافقات يلاحقنني طوال اليوم ..حين كنت أظن ان الحياة جميلة جدا و اظن انني وصلت الى أقصى مستويات السعادة ..نظر الي الجميع بشفقة فجأة ..و آخرون بشماتة ..اختفى سرير امي الدافئ و اختفت معه امي ..لم اصدق ما اخبروني به في

البداية ..ظننتها سافرت و ستعود بالتأكيد ..استمررت في البكاء لاسابيع اطلب ان يحضروا لي امي ..و بعد فترة أدركت اني لن اراها مجددا ..كل مرافقاتها غادرن و أحد حراسها من القبيلة رحل ..تُركت وحيدة في ذلك القصر الكبير ..لم يخبروني بمكان قبرها حتى ..لم يسمحوا لي برؤيتها مرة أخيرة ولم يبقوا لي أيا من أشيائها ..ظننت احيانا انها تخلت عني ..و احيانا فكرت انها ربما تكون حية في مكان ما و تنتظرني ان اجدها ..لا أحد يعلم لأسأله و لا أحد أمكنه اعطائي اجابات لتساؤلاتي .. بقيت مثل ورقة شجر متدلية من الغصن ..لم تستطع النزول و التخلي عن الشجرة و لم لم تستطع ان تعود لتكون جزءا من الشجرة ثانية ..كانت الشكوك تراودني و صورتها تكاد تختفي من ذاكرتي ..تكاد امي تختفي و لا احد يذكرها او يتذكرها كانها لم توجد و هذا ما يؤلمني أكثر .

جلست و دسست رأسي بحزن بين ساقي ,لا أعلم إن كان كلامي سيؤثر و لو قليلا فيها و لكن أعلم أنه يؤثر فِي كلما تذكرت ذلك الشعور .

مسحت دموعي و وقفت لأنفض التراب من ثيابي ثم قلت لعين :دعنا نَعُد للكوخ لابد أن الثوار قلقين .. لنُطَمئِنهُم عليها .

لم نكد نخطو خطوتين بعيدا عن الشجرة حتى سمعنا صوت نزولها على الأرض ,التفتنا لنراها تقف بشموخ تنظر نحونا بكل ثقة ,قالت بخجل موجهة الكلام نحوي :لا يهم إن اختفت من عقلك لكن ما يهم فعلا هو أن يوجد حبها في قلبك دائما ..هكذا ستظل موجودة في العالم ..بقلوب محبيها .

سارت نحوي بخطوات سريعة و عانقتني ,لم اعتقد اننا سننسجم بهذه السرعة ,أظن أن الأشخاص الذين يشاركونك ألمك هم حقيقيون فعلا .

توجهنا ثلاثتنا إلى الكوخ و اخبرنا الثوار بالأخبار السارة ,الأميرة سيتا وافقت على إقامة الثورة باسمها , الآن كل ما علينا فعله هو وضع مخطط لدخول القصر و الإطاحة بالملك المستبد و بالطبع انقاذ شقيقتها التي تم سجنها .

ما هي الخطة إذا ؟ ماذا يجب ان نفعل ؟

أولا ,تم ارسال منشور الى اماكن التجمع الاساسية للشعب ,تتضمن دعوة الى المشاركة في الثورة ضد الملك و معه تهعد من الأميرة نفسها انها تشاركهم الرأي و تدعمهم في قرارهم .

حاولنا بجد ان نمنع وصول المنشور الى أيادي الجنود ,كما ارسلنا رسالة الى جاسوسنا في القصر ليخبرنا بأحوال شقيقة الاميرة لكن أخباره لم تكن سعيدة ,قفد قام الملك بسجنها و تعذيبها لتعترف بمكان شقيقتها ,حين سمعت سيتا ذلك اشتعلت غضبا و أرادت الذهاب فورا لانقاذها و بصعوبة استطعنا اقناعها أن تصبر قليلا ريثما نجمع جنودنا للهجوم على القصر على حين غرة .

كما تلقينا الدعم من ملكة البابالون التي ارسلت بعض الاسلحة التي هربها جنودنا عبر الحدود ,حين تصل سنكون جاهزين لمداهمة القصر و إسقاط الملك من عرشه .

بعد مرور اسبوعين من التحضيرات ,حددنا اليوم الموعود ,غدا فجرا سنقتحم القصر .

الكل ارتدى دروع الحرب و شحذ سيفه و سهامه ,أما أنا فأخرجت سيف والدتي ,أخيرا تسنت لي الفرصة للقتال به و تحقيق العدالة التي لطالما سعت هي لتحقيقها ,ربطت السيف بخاصرتي و أطعمت بحر فغدا أمامنا حدث مصيري سيحدد مستقبل الجميع .

طيلة اسبوعين كان القلق باديا على وجه الأميرة حتى أنها لم تكن تنام جيدا ليلا لكثرة التفكير في هذا اليوم ,لا اعلم حتى إن كانت ستستطيع إغلاق عينيها و الاستسلام للنوم بعدما اقتربنا الى هذه الدرجة .

في تلك الليلة استقلينا للنوم كعادتنا ,أطفأنا الشموع مبكرا كي ننال قسطا من الراحة ,في هذا الكوخ الصغير مكثت و عين و الاميرة طيلة هذه المدة بينما كان قائد الثوار يتردد علينا يوميا لجلب الحاجيات و الطعام .

وضعنا رؤوسنا على الوسادة آملين أن نغفو و نستيقظ لنجد ان كل مشاكلنا قد حُلت و الامور عادت الى طبيعتها من تلقاء نفسها .

أظننا كلنا نحلم بنفس الحلم ,هكذا كنا نتشارك مخاوفنا .كل لوحده يخاطب نفسه بينما يتبادل معنا النظرات و التنهيدات لا اكثر ,صحيح ان نفسك تفهمك اكثر من اي شخص و لكن ما المشكلة في مشاركة همومك لشخص تثق به و يفهمك .

هذا ما كان يجول في داخلي ,بالاضافة إلى ألم النوم على الأرض ,لا أصدق أن الاميرة مُنحت سريرا جيدا بينما ننام انا و عين على الأرض ,كم الحياة صعبة حينما لا تملك قدرا و لو قليلا من السلطة , سوف يقوم الآخرون بتجاهلك و المشي فوقك بمنتهى البساطة رغم انهم لا يتفوقون عليك في شيء عدى السلطة التي مُنِحت إليهم لا التي اكتسبوها بحكمتهم و رجاحة عقلهم .لم اكن لافكر بشعور شعبي الذي يتعرض يوميا للاهانة و الذل لولا تجربتي ان اتحول من اميرة موقرة الى لا شيء في مكان آخر ,لو كنت استحق سلطتي فعلا لما تغيرت من مكان إلى اخر ,اليس كذلك ؟

أردت سؤال عين عن رأيه لكنه غطى في نوم عميق ,الشيء الوحيد الذي أنا ممتنة له هو انه لا يشخر ليلا ,يال حظي السعيد ,انا ممتنة و شاكرة .

اصبح مستقبل شعب كامل مرهونا علينا الآن ,نحن فرصتهم الاخيرة و الوحيدة ,نريد حقا تحقيق المستحيل و اعادة المملكة الى سابق عهدها و لا يمكن أن أنسى الانتقام من الحاكم المستبد ,فبعد ما رأيتهُ من معاناة هذا الشعب أصبحت القضية تعنيني و لم تعد مجرد مهمة انجزها لاتلقى مقابلها خدمة ما .

***

في الخامسة فجرا ,حلت ساعة المواجهة ,تجمع آلاف الجنود حول القصر ,سل الجميع سيوفهم و صرخوا بصوت واحد :المجد لإنديان آباد ..المجد للأميرتين ..ليسقط الظالم ..

صرخ قائد الجند الجنرال دفكار :هجوم .

اندفع الجنود محاولين كسر بوابة القصر و آخرون حاولوا تسلق الجدران ,رأينا موجة من السهام تُرمى من فوقنا فاحتمينا بدروعنا لننجوا .

نجح جنودنا في فتح البوابة و الدخول الى القصر ,لتبدأ ملحمة شهدتها بعيني هاتين و شاركت فيها بيدي هاتين .

الدماء تتطاير هنا و هناك و جثث جندنا و اعدائنا مرمية في كل مكان ,أصوات ارتطام السيوف بعضها ببعض و صراخ المصابين كان كل ما تستطيع سماعه .

بينما كان الكل منشغلا بالدفاع عن مبادئه ,كنت و عين نركض مع الاميرة تحت حماية القائد دفكار محاولين الدخول إلى اجنحة القصر عبر ممر سري تعرف الاميرة بوجوده مسبقا .

كانت مهمتنا حماية الاميرة حتى نصل الى الحاكم و نقوم بأسره ,عندها سيمكننا الاعلان عن فوزنا ,لكن الأمر ليس سهلا كما يبدو عليه فجنوده كانوا موزعين داخل القصر في كل مكان ,لقد نظموا انفسهم كأنهم كانوا يعلمون مسبقا بهجومنا ,أظن أن كل حاكم في مكانه كان سيُقيم خطة لحالات الطوارئ فهو يعلم مسبقا انه ليس الحاكم الشرعي و يمكن أن يتمرد عليه الشعب في أية فرصة .

نجحنا في الدخول مع الاميرة و لسوء حظنا صادفنا بعض الجنود الذين دخلنا معهم في نزال ,حين انتهين منهم نظرنا حولنا لكننا لم نجدها ,الاميرة مفقودة .

هل اختطفها احدهم و نحن منشغلون ام ماذا ؟

شعر القائد بالغضب و صرخ في وجوهنا :لما لم تقوما بحمايتها جيدا ماذا سنفعل الآن ؟

قلت بعدما قيمت الوضع :لما لا نفترق ليذهب كل منا للبحث عنها و من يجدها أولا يعُد الى هنا ليُلاقي الباقين .

أجاب الجنرال :مستحيل علينا أن نبقى معا سيمسكون بنا إن افترقنا .

اجابه عين :اذا سأذهب انا لاحضار المزيد من الجنود اما أنتما فاذهبا للبحث عنها .

نظرت إلى الجنرال الذي بدا حائرا فقلت :سيدي سوف نتسلل و لن نسمح لهم بامساكنا لا تقلق ..أما أنت يا عين فلا تتماطل و احضر الدعم بسرعة انت تعرف الطريق .

انطلق عين بسرعة لاحضار الجنود بينما سرت مع القائد بحذر داخل هذا القصر الكبير ,بعض الممرات كانت فارغة و البعض الآخر كان مليئا بالحراس .

دخلنا عشرات الغرف لكنها كانت فارغة و لا أثر للأميرة ,فجأة تذكرت أمرا ما ,حينما كنا منشغلين بقتال الخونة لمحت شخصا يتسلل إلى رواق ما ,لم أفكر انها الاميرة بل فكرت انه احدهم قام بالهرب لينقذ حياته ,لكن ماذا لو كانت هي ؟

أخبرت الجنرال بما رأيته فقال :لماذا قد تهرب الاميرة ..لا أعتقد ذلك هي تعلم أن علينا الوصول إلى عمها .

أجبته بعد التفكير :أختها ..ربما ذهبت لتطمئن على أختها أولا .

فكر الجنرال ثم قال :إن كان كلامك صحيحا فهذا يعني انها ذهبت الى سجن القصر ..انه مكان خطير و يعِجّ بالحراس ..لا يمكننا المجازفة انا و انت بالذهاب الى هناك .

قلت محاولة اخفاء خوفي و قلقي :لكن ماذا لو أنها هناك بالفعل ..إن حياة شقيقتها مهمة أيضا و علينا إنقاذها هي الاخرى ..أنا ..أنا سأذهب إلى هناك لإنقاذهما اما انت فعليك العودة للقاء عين و الآخرين .. إن لم أعد خلال ساعة اذهبوا جميعا إلى الخائن و اقطعوا رأسه هذه أمنيتي الاخيرة .

نظر إلى القائد بحزن ثم قال :سمو الاميرة ..قبل لقائك كنت اعقد انك مجرد اميرة عربية مدللة لا تعرف ما تفعل لكنك اثبتي لي العكس ..شجاعتك و وفاؤك مثيران للاعجاب حقا ..انا احترمك يا سمو الاميرة ..أرجوك توخي الحذر .

أومأت برأسي موافقة ثم ركضت مبتعدة عن القائد .

في إحدى الممرات كان يوجد حارس واحد يسير ذهابا و إيابا ,كان يحرس بمفرده احدى الغرفة ,لذا استطعت تولي امره بسهولة .اخذت ملابسه و تنكرت بها ,ثم بعد أخذ نفس عميق فتحت باب تلك الغرفة ,سمعت صراخ نساء كثيرات كن خائفات و جميعهن يرتدين زيا موحدا ,أظنهن العاملات في هذا القصر ,قاموا بوضعهن في غرفة ضيقة مثل هذه ,و وضعوا حارسا واحد فقط لحراسة الباب ,لا أصدق كم أن هذا الحاكم مثير للشفقة .

نزعت غطاء الرأس و نظرت في وجوههن الخائفة ,قلت محاولة طمأنتهن :لا تخفن ..انا لن أؤذيكن .. اسمعن جيدا ما سأقوله ..أظن أن جميعكن يعرفن الأميرة سيتا جيدا ..و لا اشك في ولائكن لها ..هل يمكنكن اخباري بمكان السجن انا اظن انها ذهبت الى هناك من اجل شقيقتها ..ارجوكن ساعدنني على ايجادها .

لم تنطق أي منهن بكلمة بل اكتفين بالنظر لبعضهن البعض بارتباك و قلق ,لذا فكرت انهن لن يساعدنني و من الافضل الذهاب قبل ان يعثر علي الحرس الباقون ,لكن فجأة تحدثت فتاة ما :يمكنني أن أدلك على السجن لكن للذهاب الى هناك تحتاجين إلى سبب مقنع و الا سيمسك بك الحراس .

قلت مستفسرة :سبب ..و ما هو ؟

_تقديم الطعام للسجناء ..سأذهب بحجة خدمة الطعام و أنت بصفتك الحارس المرافق ..سيسمحون لنا بالدخول إن قلنا لهم ذلك .

لم أعرف إن كنت أستطيع الثقة بها و لكن لا خيار آخر .

أخرجتْ الفتاة صينية من الطعام و سارت أمامي ,كنت اتبعها مع إبقاء نظري على كل شيء ,علي الحذر من أن اسقط في فخها .

***

وصلنا إلى السجن أين أوقفنا الحارسان و سألا عن سبب قدومنا ,أجابتهم العاملة :اتيت لتقديم الطعام الى الاميرة نيتا ..و هذا الحارس يقوم بحمايتي لا بد انكم سمعتم بالهجوم الذي يتعرض له القصر حاليا لذا كونا حذرين من الدخلاء .

اجابها أحد الحارسين و قد ظهرت علامات الشك عليه :ماذا ..تقدمين الطعام الى الاميرة ..لقد اتت فتاة قبلك و قالت نفس الشيء ..هل تسخرين مني ؟

اجابت العاملة محاولة تدارك الأمر :اه ..اجل انا اعرفها ..الاميرة نيتا سجينة مهمة جدا لذا علينا اطعامها كثيرا حتى نُبقي على حياتها ..انت تفهم الأمر أليس كذلك ..ما احمله يكون وجبتها الثانية .

لم يبدو انه اقتنع بحجتها و لكنه سمح لنا بالدخول رغم ذلك .

سرنا عبر ممرات السجن المخيفة و المظلمة إلى أن وجدنا زنزانة الأميرة ,كانت موجودة عند نهاية احدى الممرات و بوابتها مفتوحة .ركضنا نحوها بسرعة لنتفقد الوضع فوجدنا الاميرتين تجلسان متكِئَتين على جدران الزنزانة المتقابلين .

تفاجأت الأميرة سيتا حينما رأتنا ,نهضت بسرعة و أخرجت سيفها لكنني سارعت في نزع غطاء الرأس كي تتعرف علي و لا تقوم بأي حركة متهورة قد تكلفنا حياتنا .عندما رأتني سألت باستغراب :هيرانة .. كيف دخلتي الى هنا ..ماذا عن الحراس ؟

_حسنا بنفس الطريقة التي دخلت بها انت ..خدمة السجناء .

وجهتُ نظري نحو شقيقتها التي كانت لاتزال متكِئة على الجدار و تغطُّ في نوم عميق ,إن علامات التعذيب بادية على جسدها ,من البقع الزرقاء على جسمها إلى الجروح التي تملؤ وجهها ,كان منظرها مؤلما حقا ,خاصة لشقيقتها .

قلت للأميرة محاولة تذكيرها بسبب قدومنا :سيتا ..أنا أيضا أشعر بالسوء لذا أرجوك ..دعينا نذهب قبل أن يُكشف امرنا .

ببطء عادت إلى وضعية جلوسها لتقابل اختها ثم قالت :انا لن اذهب الى أي مكان ..سأبقى معها ..إن تركتها ثانية فانا لن أسامح نفسي ابدا .

شعرت بالالم في كلامها و كدت اذرف الدموع لكنني ,لكنني أمسكت نفسي و قلت بقسوة شديدة :لا افهم لما يهتم عين لامرك انت انانية جدا ..ان مصير الشعب كله متوقف عليك الان ..لن تخذليه بسبب بضع كدمات على شقيقتك أليس كذلك .

اشتعلت الاميرة غضبا و قد رأيت النيران تتجسد من خلال عينيها ,نهضت بسرعة و قامت بامساكي و رميي على الحائط ,كادت تلكمني لولا ان شقيقتها استيقظتْ و همستْ باسمها :سيتا ..سيتا هل هذه انت حقا ؟

أرخت يدها فابتعدتُ عنها ,لكنها استمرتْ في الوقوف أمام الحائط الحجري بملامح لا توحي بأي شيء عدى البؤس الذي هي عليه .

مرت دقيقة و الأميرة لا تقوم بأي رد فعل على صوت شقيقتها ,لقد طفح الكيل بالنسبة لي ,توجهت نحوها بغضب و لم أتمالك نفسي فقمت بلكمها في وجهها لأسقطها أرضا .

قلت و أنا لا أزال أحس بالغضب كأن لا شيء يمكن ان يريحني الآن :انتِ لستِ وحدك في هذا ..شقيقتك ايضا تحتاجك ان تنتقمي لها ..هل ستدعين ذلك الوحش يفوز هذه المرة ايضا ..هل ستضعُفين بسبب خوفك منه ..نحن لا نخاف الجبناء ..صاحب الحق لا يجب عليه ان يخاف ابدا ..من عليه الخوف هم الاشخاص الذين اخطأوا في حقنا و ليس نحن ..لِما تلومين نفسك على بطشه و حقده ..متى ستبدأين في لومه ..هو الذي قتل عائلتك و حطم حياتك و ليس أنت .

هذه الكلمات لمست شيئا في داخلها ,دائما الكلمات التي لا نجرؤ على قولها أو الاعتراف بها تكون هي حقيقتنا ,و سماع الحقائق دائما ما يغير نظرتنا للأمور و يُحمّلنا على احداث تغيير فيما كنا نظن انه مجرد سوء فهم و ليس واقعنا فعلا .

نهضتْ سيتا عن الأرض و يبدو انها استيقظت اخيرا من صدمتها ,جلست بجانب اختها و قالت و هي تمسح على رأسها :نيتا ..عزيزتي .. انها انا ..لا تقلقي انا سأنقذك و آخذ بثأرنا من ذلك الخائن ..هل يمكنك انتظاري حتى أعود ..أعدك اني لن أتأخر عنك ..انتظريني حسنا ؟

أغلقت نيتا عينيها و قالت بعدما بدأت الدموع تنهمر من عينيها :اذهبي سيتا ..اذهبي و لا تنظري خلفك .

لم اشعر حتى ان وجهي قد ملأته الدموع لدى سماعي صوتها ,انا لا استطيع حتى تخيل شعور سيتا الآن .

امسكتُ بها و جعلتُها تنهض ,اخذتُ اسحبها بعيدا لأخرجها من هذا السجن المظلم عديم الرحمة .

وسط تلك الدموع و الألم الذي كنا نشعر به عميقا في قلوبنا خرجنا من ذلك السجن و عدنا إلى الآخرين , حين رآنا الجنرال نظر نحوي بفخر و سعادة ,هذا هو شعور الامتنان .

قال مبتسما :هيا بنا إذا ..علينا انهاء مهمتنا التي قدمنا لأجلها .

كان جندنا في المقدمة يُحيط بالاميرة من كل الجهات ,يقوم بحمايتها كي لا يصيبها أي أذى .كنا نركض في ارجاء القصر باتجاه الجناح الملكي الذي يحوي عرش الحكم و من المتوقع جدا ان نجد العدو هناك .

بعد خوض نزالات دموية مع الحراس في ارجاء القصر ,وصلنا اخيرا الى الجناح المنشود .

الكل بدا منهكا و متعبا من القتال ,دقات قلوبهم متسارعة و وتيرة تنفسهم سريعة جدا ,قطرات العرق بادية على جبين كل منهم و جروحهم الدامية لا تزال ساخنة تنزف دماء الحرية .

تقدم أحد جندنا لفتح الباب ,عدّ حتى الرقم ثلاثة ثم بدون سابق إنذار فتح الباب ليسقط اثر طعنة خنجر في منتصف قلبه .

لم يكن هناك وقت متوفر للحزن او الذعر فبمجرد سقوط الجندي انقض الجنود على القاتل و دخلوا الغرفة لنزال من كان في الداخل ,و بعدما قتلنا الحراس الموجودين نظرنا في وجوه من كانوا يحمونهم .

ثلاث نساء و شابان ,اين هو العدو اذن ؟

بدى الخوف على النساء بينما نظرات الحِقد تغمر أحد الشابين ,أما الاخر فقد كان سعيدا و يبتسم ببلاهة كأن شيئا لم يكن .

تقدمت سيتا من بين الجنود و وقفت تنظر اليهم بغضب ,صرخت فجأة :اين هو ؟

عم الصمت و لم ينطق احدهم بكلمة ,تقدمتْ نحو احدى النساء و سألتها بنبرة اهدأ :اخبريني ..انا اعرف انك تعلمين ..انا فقط لا افهم لما تحمين مجرما مثله .

لم تنطق المرأة بكلمة بل اكتفت بهز رأسها رافضة قول أي شيء .

نظرت الأميرة الى الشاب السعيد ,توجهت اليه و قالت بمنتهى الرفق :فاخير ..هل تتذكرني ..انا سيتا ..صديقتك .

اجابها بسعادة و هو يهز رأسه :سيتا ..صديقتي سيتا .

_اجل هذه انا ..فاخير ..هل تعلم اين هو والدك ؟

_الرجل المضحك ؟

أجل .. اجل ..الرجل المضحك ..اين هو ..هل تعلم مكانه ؟

رفع الشاب اصبعه و أشار الى ما وراءنا ,حين التفتنا جميعنا رأينا ما لم نتوقعه .

كان رجلا خبيث الملامح يمسك بالأميرة نيتا و يضع سكينا حادا قرب عنقها ,ذُهلنا و لم نعرف ما نفعله حينها .

استدارت سيتا بحذر و نظرت نحو اختها المسكينة و لم تحرك ساكنا .

قال الرجل مهددا :ان تقدمتم خطوة سأقوم بعزل رأسها عن جسدها .

سألت سيتا بمنتهى الهدوء و الصبر :ماذا تريد ؟

أجاب مشيرا إلى الشرفة :أريدك أن تخرجي الى هناك و تعلني هزيمتكم ..قولي لجنودك ان يرموا بأسلحتهم أرضا) ..صرخ (بسرعة .

كان وحيدا و نستطيع قتله هنا و الآن لولا امساكه بشقيقتها ,نظرتُ إلى الاميرة التي بدت محتارة جدا و لم تعلم ما تفعله .

فجأة ركض عين نحو الشاب الحاقد و أمسك به ,وضع بدوره سكينا على عنقه و قال :إن لم تكن تريد ان يموت أحد أبنائك فلتترك الأميرة الآن .

وسط صراخ النساء و ترجيهن عين ليترك الفتى سمعنا ضحكات متعالية لذلك الرجل تبعها قوله :حسنا إن كنت تريد قتله فلتمضي في ذلك ..في الحروب لابد من التضحيات ..أليس كذلك يا سمو الاميرة .. هذا موجود في الكتب ..انها قاعدة نتعلمها قبل بلوغنا العاشرة .

صرخت احدى النساء -التي تكهنت أنها زوجته -بحزن شديد متوسلة الرجل :توقف ارجوك لقد هُزِمنا لا تدعْ ابنك يدفعُ ثمن جشعنا أنا و انت ..إنه لايزال صغيرا .

بقي الرجل ينظر للأميرة بابتسامة عريضة غير مبال بتوسلات زوجته او بالسكين الملتف حول عنق ابنه ,لقد كان يبث الرعب في قلب الاميرة و هو يعلم انها لن تستطيع ترك شقيقتها تموت على يده مهما حصل .

بخطوات بطيئة سارت الاميرة نحو الشرفة و حين اقتربت من الخروج لمقابلة جيشها الذي ينتظر سماع كلمة الحرية بفارغ الصبر تكلمت الاميرة نيتا فجأة :سيتا ..سيتا اتوس اليك بمعزة والدينا المرحومين ألا تفعلي ..أرجوكِ انتقمي لهما و لا تسمحي لدمائهما أن تسفك هدرا .

استدارت سيتا لترى وجه اختها البائس المليء بالالم و قالت :انت تعلمين انني لم اتمسك بالحياة بعد وفاتهما بل تمسكت بك فقط ..كيف سأعيش إن لم تكوني معي ..هل سيرضى والدانا بموتك برأيك ..هل سيسامحانني يوما انني تركتك ترحلين في هذا العمر الصغير و على يد هذا الخائن .

صرخ الرجل مشددا على السكين حتى جعل عنق الاميرة ينزف :كفى كلاما و نفذي ما أمرتك به و إلا لن أكون الخاسر الوحيد في هذه الحرب ..لا تمتحنيني يا سمو الاميرة ..انت تعرفين جيدا ما يمكنني فعله .

نظرت سيتا الى جيشها المقاتل في الأسفل و قبل ان تخطو خطوة إضافية صرخت نيتا :سيتا ..انا خنت والدينا .

سماع هذه الجملة لم يشعر الاميرة سيتا وحدها بالوهن بل كلنا فوجئنا و نظرنا نحوها و الصدمة تعلو وجوهنا ,لم نفهم اي شيء ,استدارت سيتا مجددا لتنظر في عيني اختها علها تكشفُ مقدار صدقها او كذبها ,في حين تابعت نيتا الكلام و الدموع تنهمر كشلال غزير من عينيها :هددني انه سيقتلك ..قال أن قتلك لن يكون صعبا عليه إن لم أحضر له ختم والدي الحاكم ..كنت اريد اخبارك لكن خِفت أن لا تصدقيني ..كان يتجول حولك دائما و لم يسمح لي بالنوم ليلا خوفا من ان ينفذ تهديده ..كنت صغيرة

غير واعية كفاية لمخططاته ..قبل ذلك اليوم ذهب معك الى الصيد قال انه سيقتلك يومها ان لم اقم بسرقة الختم ..لذا فعلتها ..لقد خنت والدي يا سيتا .

صرخت سيتا بغضب :ما الذي فعلته ..لما لم تخبري والدي ..كان عليك تحذيره قبل وقوع الكارثة .. انا حقا لا اصدقك يا نيتا ..لقد فكرتُ كثيرا ..لم أفهم كيف استطاع الخائن جعل الجيش الملكي ينقلب على والدي ..سمعت إشاعة عن مرسوم ملكي يقضي بقطع رأس قائدهم لكنني كنت متاكدة ان والدي لم يكتب ذلك المرسوم ..فأبي ما كان ليفعل ذلك ..لكن ذلك الخائن استعمل ختمه و اوقع بين الجيش و والدي .. انا لا اعرف ما اقوله يا نيتا لقد خيبت ظني فيكي .

_لقد أخطأتْ ..أخطأتْ ..انا اعلم ..لا اتوقع ان تغفري لي و لا اتوقع ان يغفر لي شعبي ..لكن ارجوك لا تكرري خطئي ..ارجوك لا تجعليه يفر هذه المرة ايضا ..لا بأس يا سيتا ..لا تشعري بالحزن من بعدي ..انا سأنال ما أستحق .

سأل الرجل بحزم شديد :ماذا قررتي إذا ايتها الاميرة ..هل ستدعين شقيقتكِ تموت ؟

اغلقت الاميرة عينيها و لم تقل أي كلمة .

لذا اعتبرها الرجل أجابتْ بنعم و قال :اذاً ودعي شقيقتك العزيزة ..إلى اللقاء يا سمو الاميرة ليس بيننا عداوة .

رفع السكين و كاد يشق رقبتها لولا أن عين قام برمي خنجره بسرعة نحو يده فأصابه و جعله يُسقط سكينه ,أما أنا فركضت بسرعة و أبعدت الأميرة نيتا عنه لآخذها إلي بر الأمان ,في حين تجمع جنودنا حوله مشهرين سيوفهم نحوه .

لقد وقع في موقف صعب الآن لا أظنه وضع في حسبانه وجودي انا و عين ,فبينما كانا يتناقشان في أمور عائلية اتفقت معه على انقاذ الاميرة ,اعرف انها كانت مجازفة و لكن لم نكن لنسمح له بايذائها او الفوز في الحرب .

حاول الرجل العودة الى الوراء طمعا في الهرب و لكن كتيبة من الجنود لحقوا بنا و سدُّوا الطريق مانعين اياه من الهرب و النجاة بأفعاله .

أمسك الجنرال بالرجل و جعله يركع على ركبتيه أمام الاميرة سيتا ,الأمر يعود لها الآن ,ماذا ستفعل يا ترى ؟

منحها الجنرال سيفه و ثبت رقبة الرجل ,فعقابه الأول و الاخير سيكون الموت لقاء خيانته و قتله للكثير من الأبرياء .

قالت الأميرة و هي تضع السيف قرب رقبته :أخرجوا عائلته من هنا ..أنا لن أنزل لمستواه و اقتله أمامهم .

أخرج الجنود عائلة ذلك الوحش رغم مقاومة زوجته و بكاء ابنته الصاخب .

قالت الاميرة موجهة كلامها نحوه :هل من كلمة اخيرة تريد أن تقولها ؟

لم يرد التخلي عن كلمته الاخيرة فقال :هل تعلمين يا سمو الاميرة لِما اخترتك انت كزوجة لابني بدل شقيقتك ..مع اني لو اخترتها هي لما كنت في هذا الموضع المثير للشفقة بل كنت سأزال جالسا على العرش الآن .

_هذا لأنك احمق و مغرور جدا ..قمت بالاستهانة بي و بما استطيع فعله لذا أعدتني إلى العاصمة .

_لا لا ..ليس هذا هو السبب ..في الحقيقة لطالما فكرت انك تشبهينني يا صاحبة الضفيرة اليسرى ..و على عكسِكِ كانت اختك تشبه والدكما ..ان لديك نفس الغرور الذي لدي ونفس النظرة الخالية من المشاعر و لن أنسى استعدادك المطلق للموت على ان تعيشي مُهانة في الحياة ..انت تشبهينني كثيرا يا سيتا ..لا اعتقد انه يحق لك محاسبتي فانت ايضا لست خالية من العيوب .

_كم تتكلم كثيرا ..هل تعتقد ان كلامك هذا سيغفر لك و لو القليل ..ماذا قلت ..اشبهك ..حسنا كنت اعلم انك شخص نرجسي معجب بنفسك و لكن كيف لك ان تكون بمثل هذه الوقاحة ..انا ابنة ساندار ..انا لا اشبه احدا عدى نفسي ..أنا لم أكن لأغدر بعائلتي مهما حصل و لو من اجل السلطة كما فعلت انت بشقيقك ..الذي على الرغم من الشكوك التي كات تخيم حولك الا انه لم يطردك يوما من القصر ..كُنتَ منفيا فأحضرك و منحك القوة ..لكن انت ماذا فعلت بها ..استخدمتها لقتله ..لذا لا تقل ابدا ..ابدا .. انني اشبهك .

فور ان انهت الاميرة كلامها غرزت سيفها في قلب ذلك الوحش و اجهزت عليه ,بعد سقوطه ميتا خرج الجنرال ليعلن فوزنا بالحرب ,سمعنا هتافات الجيش تعلو و تعلو تمجيدا للاميرة و الانتصار الذي حققته .

اما انا و عين فكنا في قمة السعادة لانجازنا المهمة بنجاح ,الأن يُمكننا العودة إلى ملكة البابالون و منحها الأخبار السارة .

عادت الامور الى طبيعتها في إنديان آباد ,وصلت المساعدات من البابالون كي تغطي على خسائر الحرب ,في حين جلست الاميرتان على العرش في يوم التتويج ليمنحها شعب إنديان آباد جل ولائه , عمت الافراح في أرجاء البلاد كما قامت الاميرة بدعوة السيدة التي عاشا عندها الى القصر ,لتصبح بعدها مستشارتهما الاولى و عُيّن الجنرال كافكار قائدا عسكريا على الجيش الإنديانى .

بقيتُ و عين أسبوعا كاملا نحتفل معهم بالانتصار و قد منحتنا سيتا العديد من الهدايا و صناديقا مملوءة بقطع الذهب تكريما لنا على شجاعتنا كما وعدت بأن تشرع في بناء علاقات مع قبيلتينا .اخيرا استطيع شراء حرير إنديان آباد بثمن معقول ,ليس ذلك فقط ,كل بضائع إنديان آباد ستكون متوفرة في سوق قرطبة في المستقبل .

عند وصول ڤرين و تيرو إلى القصر ,كنا قد انتهينا من حزم أمتعتنا للرحيل ,وقفت الأميرتان أمام الطائر لتوديعنا .

قالت الأميرة سيتا :تعاليا لزيارتي حسنا ؟

أجاب عين و هو يصعد الطائر :من ناحيتي سوف آتي بالتأكيد فالطعام هنا لذيذ جدا لا يمكنني الانتظار حتى اعود لاتناوله مجددا .

ضحكتْ الاميرتان ,انه عين هذا كل ما يفكر فيه ,الطعام .

أمسكتْ سيتا بيدي و قالتْ :أنا فعلا لا أدري كيف أشكرك يا سمو الاميرة ..لقد انقذتِ اختي من موت محتم ..مهما منحتكِ من هدايا سيبقى جميلك أمرا لا يمكن أن أرده .

نظرتُ الى الاميرة نيتا التي بدت سعيدة جدا ,تداعب تيرو و تتحدث مع عين حول الطعام .

قلتُ بعد التفكير :حين ارى كيف استطاعت شقيقتك ان تتخطى الأمر و ارى أنك استطعت مُسامحتها .. يتبادر الى ذهني شيء ما .

_ما هو ؟

_هل يمكنني ان اطلب من جلالتك طلبا ستكونين قد رددت الجميل حقا ان حققته لي .

_ان كان بمقدوري فعله فبالطبع ..اطلبي ما تشائين .

تقدّمتُ نحوها و همست في أذنها بمطلبي ,فقالت بمنتهى السعادة :هذا فقط ..حسنا لا مشكلة اعتبري الأمر قد تم .

ابتسمت لها ثم قمت بتوديعها و شقيقتها ,ركبتْ ڤرين و طلبتْ منا التمسك جيدا لأن أمامنا وقتا لنصل إلى قصر الملكة .

كانت هذه مغامرة لن أنساها أبدا ,استطعتُ إحداث تغيير في مملكة بأسرها لذا أرجو ان استطيع تكرار الأمر مع شعبي و مساعدة عين ايضا على اعادة ثقة شعبه و والده به .

الفصل الثامن

مفاجأة

توقفت الكلمات فجأة عن التدفق في عقلي ,لقد حللت مشكلة كانت تؤرقني مؤخرا و الآن سآعود للقلق بشأن مشكلتي الاساسية ,السؤال الأول و الأخير الذي شغل بالي طويلا .

حين وجدنا انفسنا امام ملكة البابالون ,شعرت انني هنا للمرة الاولى ,كانت الأجواء تعمها السعادة و المحبة .

حتى عين بدا مختلفا ,كيف لا و هم لم يعودوا اعداءه بعد الآن بل بالأحرى سيصبحون متعاملين اقتصاديين دائمين معنا ,سندخل التاريخ كوننا ساعدنا في الشركات المستقبلية بين العرب و الشعوب الاخرى ,اليس هذا ما تمنيناه دائما ,الدخول في التاريخ .

أليس حلم كل انسان ولد على هذا الكوكب ,ابقاء اثر مهما كان ليتذكره الاخرون ,من يريد الحياة و الموت كأنه لم يكن هنا من الاساس ,كأنه اثر لحذاء شخص قرب الشاطئ اختفى بمجرد وصول الامواج اليه ,مُسِح عن الوجود تماما ,فمن عساه سيتذكره او يعي بوجوده حتى .

من كان يريد هذا فليرفع يده .

و ها انا اجد نفسي ارفع احدى يديّ عاليا غير مستوعبة للمكان الذي انا فيه .

التفتتْ الملكة نحوي كوني اجلس على يمينها ,على طاولة طويلة جدا تعج بنساء البابالون يحتفلن بنهاية حرب لم تبدأ حتى.

قالت ممازحة إياي :يمكنك الذهاب الى الحمام دون طلب الاذن يا سمو الاميرة لا عليك .

أنزلت يدي بسرعة و انا محرجة ان كان احد قد سمعها ,لكن لم يبدو ان اي احد كان منتبها لما يحصل هنا ,اعتقد ان الغضب و السعادة يجعلاننا معميين تماما و الاصح ,فاقدين لكل حواسنا .

الكل سعيد و لا يعير اهتماما لاي شيء أو أي شخص لقد كنت الشخص الوحيد الجالس بينهم الذي يُحس بكمية القلق هذه و التي لا يعلم ما سببها .

رؤية عين سعيدا كان الشيء الوحيد الذي يبث الطمأنينة في قلبي المثقل هذا .

اعتقد ان الملكة انتبهت ان هناك ما يشغلني فبادرت بالسؤال :لم تأكلي شيئا يا سمو الاميرة ألم يعجبك الطعام ..أم أن هناك ما يشغلك عنا ؟

لم اكن استطيع التحمل اكثر لذا بُحتُ بما كان يدور في فكري حينها :في الواقع ..هناك ما يشغلني فعلا ..إنه المطلب الذي وعدتِ بتلبيته لي إنْ انا انقذت الوضع في إنديان آباد .

_و ما الأمر الذي يشغلك فيه بالضبط ؟

_اعلم ان ايقافك للحرب يُعد مُقابلا كبيرا قد قدمتيه لاجل مجهوداتنا و لكن ..لا ازال اريد ان اعرف ما هو سبب وفاة والدتي سموك .

_حسنا يمكنني منحك الإجابة على هذا السؤال ..لكن كما قلتِ ايقاف الحرب من الأساس كان مقابلَ مساعدتك ..لذا ان اردت الاجابة فأنت تتخلين عن أجواء السلام التي ترينها الآن و التي برأيي انت تجدينها ممتعة جدا بقدر استمتاعك بكشف أسرار الماضي .

كانت اجابتها قاسية جدا حتى بالنسبة لي ,بالطبع أنا ممتنة لوقف الحرب و سعيدة ,لكنني لم احقق اي تقدم يذكر في قضية والدتي و هي يمكنها اعاطئي جميع الاجوبة لكنها تريد مقايضتها و وضعي في موقف الخاسر في كلتا الحالتين .

حسنا ان أرادت لعب هذه اللعبة فسأتقبل خسارتي بصدر رحب ,الأمر ليس بيدي من الاساس لا اعلم ان كانت تتوقع ان اخون قبيلتي أم انها تعلم انني لن افعل ,لم افهم هدفها من الاساس لذا فضلت الصمت و تركها تنسج اجابتها بنفسها ربما تتخيلني اجثو على قدمي اترجاها أو أخرج على عجلة من القاعة دون أن انطق بكلمة واحدة ,و هذا الذي فعلته بالفعل .

لحقني عين محاولا استفسار سبب غضبي المفاجئ لكنني لست مستعدة لتذكر ما حصل ,قلتُ محاولة تخفيف توتري :لا عليك أنا بخير ..انا متعبة من كل هذه الاحتفالات ليس الا ..احتفلنا في إنديان آباد فما ضرورة احتفالنا هنا أيضا .

_فقط ..انت تعلمين ..ان السبب مختلف ..هنا نحتفل باعلان السلام بين شعبين كانا على وشك القتال بعد كم من يوم .

مهما كان السبب ,في رأيي الأمر مبالغا فيه ,لا يهم لما علي التفكير باجابة قلتها لأتفادى طرح الأسئلة , فأجد نفسي وسط الأسئلة مجددا .

وضع عين يده على كتفي و قال و القلق بادٍ على وجهه :مازالتْ ترفض اخبارك أليس كذلك ؟

لم اكن اريده ان يشعر انه مسؤول باي شكل من الاشكال ,كما انني لا ألوم الملكة أيضا لابد أن لها اسبابها الخاصة ,قلتُ محاولة تلطيف الجو بعدما صار شائكا :لا بأس انا لن استسلم لابد ان اجد شخصا واحدا على الأقل في هذا الكوكب يعلم الحقيقة و يخبرني دون قيود ..أنا لست حزينة ابدا ..بل بالعكس اشعر انني اقتربت كثيرا لكشف اللغز .

ابتسم عين و هو يضع يده على رأسي قائلا :ما هذا هل قررت الاميرة القرطبية ان تصبح اكثر لطفا فجأة .

فاجأني ذلك حقا ماذا يعني أكثر لطفا ,صرخت غاضبة :هل تعني انني لم اكن لطيفة سابقا .

أجل .. لطالما بدوتِ خشنة و قوية مثل الجبل ..لا شيء يمكنه التأثير عليك ..لا أعلم حتى إنْ كنتِ تبكين مثل باقي الفتيات أم لا .

لا اصدق ما يقوله هذا المعتوه ,هل كان يظن انه يسافر مع شاب من سنه و فجأة تفطن أنني فتاة .

أجبته بنفس نبرة التهكم خاصته :حسنا أظن ان هذه الصفات هي ماجعلتك تحترمني فرجال شيبة ليست من عاداتهم احترام النساء خاصة اللواتي يبدين ضعفا .

_ماذا ..انا لم اقصد هذا ابدا ..لما تقومين بشرح كلامي كما يحلو لك .

_اذا كيف تريدني أن أشرحه ؟

_لما عليك أن تشرحيه ..فقط خذيه كما هو .

_كيف آخذه كما هو علي إدخاله إلى عقلي و التفكير بمعناه أليس هذا أمرا طبيعيا .

_و منذ متى تفكرين مثل الأشخاص الطبيعيين ؟

_أترى إنك تقوم باستفزازي عمدا و تطلب مني التغاضي عن الأمر بأسلوب البلهاوات .

_أنا لم أقل ذلك أبدا ..أخْ ..دعينا من هذا علي أن أكون سعيدا الليلة لما تريدين الشجار فجأة .

تابعتُ و عين الشجار طول الليل و قد نفعني ذلك حقا , اعقد ان الشجار يشبه الكتابة ,يُصفي الذهن و يُرتب الافكار ,من الآن فصاعدا إن كان ذهني مشوشا سأحاول افتعال المشاكل مع عين فهو ذو روح تنافسية لن يستسلم لافكاري بسهولة .

***

في اليوم التالي حزمتُ و عين امتعتنا فانا لم اعد استطيع تحمل المزيد من الاحتفالات ,احتفالٌ آخر و سأرمي بنفسي من أعلى جبل في المنطقة و أريحها .

ظل عين يسألني قلقا عن كيف سنواجه والدي و والده لكنني أخبرته أنني طلبت من الاميرة سيتا حينما كنا في إنديان آباد ان تُرسل رسالة الى شهاب تكتب له اننا كنا معها و قد استطعنا اقناع ملكة البابالون بالعدول عن قرار الحرب ,اخبرتْه فيها أن عليه إعلام والدي بالوضع كي لا يسيء الظن بنا أكثر من ذلك .

أنا واثقة أن الحاكمين الآن ينتظراننا بموكب احتفالي كبير للترحيب بعودة الأبطال المنقذين ,لكن مع ذلك لازلت اكتم عنه بعض الشك ,فقط آمل أن الرسالة قد وصلت سالمة الى يده .

اشعر اننا محظوظان للقائنا بقرين و طائرها تيرو فبدل قطع الصحراء و السير أياما للوصول الى قرطبة ,استطعنا الوصول في مدة وجيزة دون تعب أو إرهاق يُذكران .

لكن بالطبع هي لا تفعل ذلك بالمجان بل تطلب أجرتها منا قبل الانطلاق مقدما ,يالها من امرأة محبة للمال ,فهمت سبب كونها صائدة للجوائز ,لو لم نكن ندفع لها أكثر من الجائزة الموضوعة لقاء تسليمنا الى والدي لما كانت قد ترددت في وضعنا أمام باب القصر ,لحسن حظنا ,الاميرة سيتا لم تبخل علينا لقاء اتعابنا و منحتنا ما يكفينا لاشباع جشع المرأة الزومبي .

***

وصلنا الى حدود قرطبة ,لا يمكن لقرين الاقتراب أكثر ,علينا تولي الأمر من هنا ,نزلنا عن تيرو و اخذنا امتعتنا ,قال عين و هو يربت على الطائر الضخم :اظن ان علي احضار واحد لي ..انه مفيد حقا للتنقل بين القبائل .

أجابت قرين ضاحكة :هل انت واثق ..هل نسيت كيف كنت تصرخ في اول مرة ركبت فيها ..لقد كدتُ ارميك من على ظهره كي استريح من صخبك .

_كانت تلك اول مرة لي ..كما انني اعتدت عليه الآن و اجد ان التحليق في السماء يناسبني جدا

_هذا ما تظنه أنت ..هاي هيرا ماذا تظنين أنت ؟

نظرت إلى تيرو لبرهة ,انا سأشتاق اليه حقا و الى شعور الطيران في الهواء لكن مع ذلك يبقى ركوب بحر و الركض في الصحراء اكثر اثارة ,حتى انني لا يمكنني وصف مثل ذلك الشعور لأي شخص .

قلت مبتسمة بينما أربِّت على تيرو :آمل ان نلتقي مجددا يا صديقي ..سأشتاق اليك حقا ..و أنتِ يا ڤرين ..حينما تتحسن الاوضاع اريد دعوتك لأعرفك على أشقائي .

_هذا شرف لي يا سمو الاميرة سأكون في انتظار دعوتك .

ودعنا ڤرين و تيرو و سرنا باتجاه القصر الملكي ,لا اطيق صبرا لارى وجه والدي بعدما سمع بالاخبار السارة .

بينما نحن نسير لاحظنا من بعيد وجود مجموعة من الحراس يمتطون جيادهم ,كانوا ينظرون نحونا باندهاش لم نعلم حتى ما عينا فعله لذا تابعنا السير حتى وصلنا اليهم ,لم ينطق احدهم بكلمة بل ظلو ثابتين يراقبوننا بعيون حادة نزلت و عين عن بحر و تقدمنا نحو من كان يحمل شارة الحرس الملكي على صدره ,قلتُ :ما الأمر هل تنتظرورننا أم ماذا ..نحن في طريقنا الى القصر لذا دعونا نعبر .

لم يقل ذلك الحارس أي شيء ,قفز عن خيله و تقدم نحو عين ثم فجأة أخرج حبلا و قام بتقييده بسرعة , لم اشعر حتى كيف تجمع الحراس حولنا و امسكو بعين ,و بمجرد انني حاولت اخراج سيفي من غمده قام أحدهم بضربني من الخلف ففقدتُ الوعي .حين استيقظتْ وجدت نفسي مستلقية على سريري في جناحي الملكي ,تطلب مني الأمر بعض الوقت حتى استطعت استجماع طاقتي للنهوض من السرير , اعتقد انهم جعلوني اشرب مخدرا ما فانا لا اشعر بأطرافي جيدا ,لم أسِر سوى خطوتين نحو الباب حتى وجدت نفسي أسقط ارضا لأن قدمي لم تقدرا على حملي .

دخلت المرفقات بسرعة إثر سماع سقوطي ,أسرعن ليحملنني و يضعنني على السرير مجددا و قبل ان تبتعد احداهن امسكتها و سألت :اين عين ماذا حصل له ؟

_ارجوك ارتاحي قليلا سموك ..سوف استدعي الحكيمة لتكشف عليك .

شددت على ذراعها و تعمدت جعل صوتي أعلى عن ذي قبل ,و قلتُ :لا تجعليني اعيد كلامي ..سألتك اين يكون ابن حاكم شيبة ؟

_انا اعتذر سموك لكنهم وضعوه في السجن ..ليس عليك القلق أكثر ..سوف ينال جزاءه .

لا اصدق ما تقوله ,ألم تصل رسالتي الى شهاب ,ماذا حصل هنا ؟

فكرتُ مليا و لم اجد شخصا آخر اطلبُ مساعدته غيره ,قلت :لتذهب احداكن لاحضار الأمير شهاب .. قولي له انني اريد رؤيته الآن فليأتي بسرعة .

بمجرد تركي لذراع تلك المرافقة أحسست ان قواي كلها تلاشت لم ادرك حتى كيف اخذني النوم مجددا .

***

شخص ما ينادي باسمي ,انا اعرف هذا الصوت ,فتحتُ عيني المثقلتين ببطء لاراه ,انه شهاب فعلا , يبدو قلقا كعادته ,يبدو شاحبا أيضا ,ألم يكن يأكل جيدا في غيابي ,حاولت فتح فمي المتثاقل و الحديث مهما لزم الامر ,قلتُ :شهاب ..هل قرأت رسالتي ..لقد أرسلتها من إنديان آباد ..انا ..انا استطعت ايقاف الحرب يا شهاب ..لن يموت احد ..انا سعيدة .

امسك شهاب بيدي ,قال و الحزن بادٍ على ملامحه :هل كنت تحلمين يا هيرا ..ألهاذا لم تسمعيني حين ناديتك ..لا عليك لابُد انه كان حلما جميلا .

_شهاب ..انه ليس حلما لقد اقنعت ملكة البابالون .. انها تعرف والدتي ..صدقني .

_لا بأس استريحي الآن و سنتكلم حين تصبحين أحسن .

_انا بخير ..أنا فقط لا افهم لما أشعر بالنعاس و التعب الشديد ..

_انه الدواء على ما اعتقد ..لقد كانت حرارتك مرتفعة عندما احضرك الحراس .

_لا يهم ..علي الذهاب الى والدي و الحديث معه ..إن عين لم يفعل أي شيء .

_هل يُمكِنُكِ ان تنسي عين قليلا و تركزي على نفسك ..لقد ارتفعت حرارتك كثيرا و كِدنا نفقدك ..كِدْتُ افقدكِ يا هيرانة ..ارجوك لا تفعلي هذا بي مجددا .

كيف أصبت بالحمى فجأة ,اتذكر اني كنت بخير قبل ان يُلقي الحُراس القبض علينا .

لم يسمح لي شهاب بالنهوض من الفراش ,بقيت نائمة لفترة قصيرة حتى استعدت عافيتي و استطعت النهوض من السرير .

سِرْتُ في اروقة القصر بلباس النوم و جميع مرافقاتي يسرن خلفي ,كنَّ قلقات ان اسقط مجددا ,لكن حتى لو تعبت مجددا فشهاب موجود لمساعدتي .

وصلت إلى غرفة والدي ,دائما ما آخذ نفسا طويلا قبل الدخول لمقابلته ,ربما اكون خائفة او فقط قلقة مما سيحصل لكنني اذكر نفسي بسبب خوضي هذا الأمر فأشحنها بِالطاقة ,حتى والدي لن يمكنه مجابهة طاقتي هذه .

دخلتُ الغرفة بعد ان وافق والدي على مقابلتي ,تركتني ذراع شهاب ادخل بمفردي ,هكذا هو الامر , علي استلام الامر من هنا .

وجدتُ ابي يقف مقابلا لي و بجانبه حاكم شيبة و ابنه طهران ,لا تعبّر وجوههم عن أية مشاعر ,كلهم ينظرون ببرود جاف ,حتى انت يا والدي .

انا لست سريعة البكاء لكن منظرهم احزنني شعرت برغبة شديدة في البكاء ,أردت الركض بسرعة لأدس وجهي المُحْرَج في صدر والدي و ابكي دون اهتمام بمركزي او بصورته امام حاكم شيبة ,لكن الامور لا تسير بهذه الطريقة في عائلتي الكبيرة ,بل الاصح انها لا تسير من الاساس ,فانا لم اعش يوما ما يسمى بعلاقة الابنة بابيها ,قد يكون توفير التعليم ,المأكل و المشرب مهما ,لكن هذه الأمور يمكن لشخص غريب عنك ان يوفرها لك ,لذا الاحساس بمشاعر الابوة التي يُكِّنها لي هي الفارق الوحيد بينه و بين الشخص الغريب الذي يرعى الأيتام .

فتح ابي فمه متكلما بعدما انتهى من تفحصي بنظراته الباردة و وجهه الجامد ,قال :كيف تشعرين الان .. هل تحسنت قليلا ؟

أجل .. انا بخير .

_جيد ..اذا يمكنك ان تخبرينا ما حصل ..و من الافضل ان تختاري كلماتك بحكمة .

ملاحظته البسيطة هذه كانت كفيلة بجعلي اشعر بضيق في النفس ,انا لم اكن مستعدة لهذا هل ينوي محاسبتي على هروبي حقا ,ام انه يأمل ان ألقي باللوم على عين ,مهما كان الكلام الذي يتمنى ان اقوله , انا لن اقوله ابدا .

رفعت عيني عن الارض و وجهتهما نحو عينيه مباشرة و قلت :حاكم شيبة كذب عليك ..كان ينوي ادخال قرطبة في حرب ليست لنا مصلحة بها .

هُزَّت نفوس الجميع بعبارتي هذه ,لكنهم لم يقولوا شيئا ,اما ابي فاستمر في النظر الي بغضب , استجمعت كل ما تبقى لي من شجاعة لاتابع كلامي :حين علِمتُ بالامر لم يكن بمقدوري اخبارك ..لان الأمير طهران قام بتهديدي ان شيبة ستعتبرها خيانة للامير عين و سيدفع حياته ثمنا لها ..انها قصة طويلة و لكن ..كل ما استطعت التفكير فيه وقتها هو انقاذ قرطبة مع منع ازهاق روح الامير عين من قِبَل شقيقه الذي كان يُخطط لقتله .

قال ابي و شرارة الغضب تتطاير من عينيه :ما افهمه من كلامك هذا ..انك هربت من حفل زفافك الذي وعدتِ به كونك الاميرة هيرانة ابنة حاكم قرطبة ..هل هذا صحيح ؟

لم اتوقع ان كلامي كله لم يجدي ,قلتُ بغضب دون التفكير في شيء :اجل هربت ..انا لم اختَطفْ من قبل الامير ..بل في الحقيقة انا من اختطفته من بيمارستان القصر ..كنت خائفة ان يقومو بقتله ..ابي .. لا اصدق ما اقوله و لكن ..أليس عليك محاسبة حاكم شيبة ..كاد يوقع قرطبة للدخول في الحرب فقط كي ينتقم لرجولته المجروحة ..

قبل أن انهي جملتي حتى ,تقدم والدي نحوي و صفعني بقوة ليسقطني أرضا ,كانت تلك اول مرة ,ابي لم يرفع يده علي يوما ,حسنا الآن اصبح نطق كلمة ابي صعبا ,كأن تلك الصفعة سببت لي عاهة مستديمة في لساني ,لن يُمكنني نُطق كلمة ابي مجددا ,انا فقدت هذه الكلمة للأبد .

استجمعت ما تبقى لي من قوة و وقفت على قدمي ,جعلت وجهي أمام وجهه الغاضب و قلت :لقد ذهبتُ الى ملكة البابالون ..فاوضتها و انتهت المفاوضات بارسال مرسوم الى جيشها الذي يزحف باتجاه شيبة ..تأمره فيه بالرجوع ادراجه ..انا و الامير اوقفنا الحرب لذا اخرجه من السجن في الحال و مزق ورقة الزواج انا لست موافقة و لم أكن في أي وقت كان ..انتَ قطعت الوعد و ليس انا ..انا قطعت وعدا للامير عين ..وعدته أنه لن يصيبه أي مكروه و هو الوعد الوحيد الذي علي الايفاء به بصفتي الاميرة هيرانة ابنة حاكم قرطبة .

تجلت علامات الهدوء على والدي تدريجيا ثم نظر الى طهران و قال :لقد توقع الأمير طهران كلامك و اخبرنا انك ستحاولين اقناعنا بان الحرب قد انتهت فقط لابطال الزواج ..لكنه لم يظن انك ستحاولين التغطية على شقيقه الخائن أيضا ..لقد خطفك يا هيرانة و لاتزالين تدافعين عنه ..كل الحرس شاهدوه عندما قام بأخذك ..حتى انه قتل الحكيمة التي كانت مشرفة على علاجه ..ان عفوت انت عنه فانا لن اعفو عن جرائمه ابدا ..بل سأصدر حكما باعدامه في منتصف القصر و انت لن تكوني هنا لمشاهدة ذلك ..ستكونين مع زوجك في الطريق الى شيبة ..عليك الاستعداد للحرب انت ايضا ..فقرطبة من الان فصاعدا أصبحت معنية بها مثل شيبة بالضبط .

لا أصدق ما تسمعه اذناي ,الحاكم سيقوم حقا بتوريط قرطبة لكن لماذا ؟

اقترب طهران فجأة و قال :لا عليك يا سمو الاميرة انا اعدك ان النصر سيكون حليفنا .

لا اعلم ما اقول حقا ,إنه على مستوى من المكر لا يمكن تجاوزه بسهولة .

نظر والدي إلينا ثم أضاف :من الان فصاعدا لا تختلقي المزيد من المشكلات و قفي بجانب زوجك ..هذا ما على الاميرة ان تفعله .

كنت اريد الصراخ في تلك اللحظة بأعلى صوت "هذا ما فعلته أمي تماما و قد كلفها ذلك حياتها "

على الرغم من سهولة النُطق بهذه الجملة ,إلا أنه من الصعب علي سماعها باذني هاتين ,نُطق كلمة امي سهل جدا حتى الاطفال الصغار يلفظونها دون عناء يذكر ,لكن بعدما ماتت اصبح سماع امي من اي شخص يَلفتُ انتباهي و يُؤلمني احيانا ايضا ,الآن حان دور كلمة ابي ,ما هي الكلمة التالية في مجموعة كلماتي المؤلمة ,كلنا نملك واحدة .

دخل إخوتي فجأة الى الغرفة دون إذن من والدي ,و ظهر شهاب الذي حاول منعهم من ذلك .

غضِب والدي و صرخ على شهاب قائلا :شهاب ..ما الأمر ..ما انعدام الاحترام الذي دخلتم به ؟

أجابه شهاب مطأطئا الرأس كأنه المذنب الأول و الوحيد :أنا أعتذر لقد اخبرتهم أن ينتظروا و لكنهم دفعوني و دخلوا عنوة .

تكلم عمر دون أن يُوجّه له الكلام كعادته ,إنه ليس وقحا فقط بل هو فخر والدي أيضا ,والدي وحده , قال :سامحنا يا ابي و لكننا كنا قلقين كثيرا على الاميرة ..لم يخبرنا أحد انها استيقظت و فور معرفتنا ركضنا للاطمئنان عليها .

نظر ابي نحوي كأنه يفهم شعور اخوتي و لو قليلا ,اشك ان كلمة اطمئنان قد خطرت مرة واحدة في عقله او فكر في قولها ,الاب القلق الذي يصفع ابنته المريضة ,قال بصفة المدح التي لا يُحَدِّثُ ابنائه دون أن يصرخَ بها :فهمت ..هذا امر طبيعي ..انتم اخوتها ..شعرتم بالقلق على اختكم فأتيتم لرؤيتها مندفعين ..لا بأس ..خذوها الى غرفتها و تحدثوا ..علي ان اناقش أمور الحرب ..حين تنتهو تعالو لتستمعوا الى التفاصيل ..عليكم ان تتعلموا اكثر عن الحروب و قد تسنت لكم الفرصة .

ان حديثه عن الحرب كفرصة جيدة لتعليم اولاده هو امر مقزز فعلا ,هل هذا ما يعنيه النظر الى الجزء المملوء من الكأس .

تقدم شهاب نحوي و ساعدني للسير خارج هذا الجنون و تبعه إخوتي ,لقد سألوا الكثير حتى وصلت إلى جناحي ,كل أسئلتهم تحتاج الجلوس لساعات للإجابة عليها ,اردت اختصار الأمر على نفسي و عليهم فقلت :قصة طويلة ..لكنني لم أختطف ..الحقيقة أنني هربت .

رؤية وجوههم المندهشة مضحك بعض الشيء ,أزال عني التوتر للحظة ,لكن سؤال شهاب أعاده مجددا :لكنهم سيقولون أنه اختطاف ..الأمير تبقت له أيام قليلة ليعيشها .

لا أعلم ما اقول حقا ,لا احد يصدق أننا أنهينا الحرب ,و لا رسائل تصل الى أيدي أصحابها ,لا أعرف ما علي فعله حقا ,أشعر اني مقيدة مجددا .

قلت لشهاب بنبرة توسل واضحة :شهاب ..ارجوك خذني إليه لأكلمه ..لا اعلم متى سيتسنى لي ذلك .. فأنا مجبورة للذهاب مع طهران إلى المعسكر أو شيء ما ..إنه لن يستسلم بسهولة ..يريد قتل شقيقه بأي ثمن ..حتى مع إقامة حرب لا وجود لها .

أجاب متثاقلا :حسنا ..لكن عديني انك ستعودين لترتاحي .

_أجل مهما يكن .

أمسك عمر بشهاب و قال بغضب :ماذا تفعل ..قال أبي أن عليك أخذها لغرفتها ..هل عليك الاستماع إليها حقا و أخذها الى ذلك الخائن .

نزع شهاب يد عمر و استدار ليواجهه وجها لوجه ,نظر إلى بقية الأمراء و قال :آسف أننا لا نستطيع الشرح ..لكن ما عليكم فهمه هو أنه مهما حصل ..لا تثقوا في طهران ذاك ..إنه الخائن الحقيقي .. مفهوم ؟

حين استدار شهاب نحوي أمسكه عمر مجددا و قال :هل تعني أنك ستعصي كلام والدي ..في رأيي .. أنت من تكون الخائن الحقيقي هنا .

فجأة استدار شهاب بغضب و لكم وجه عمر ليُسقِطهُ أرضا ,هرع إخوتي بسرعة ليمسكوا به فشهاب من النوع الهادئ الذي لا يغضب بسهولة ,لكن إن نجحتَ في اغضابه فثق أنه لن يرحمك و لن يهدأ حتى يجعلك تندم ,برأيه تلك اللكمة هي البداية فقط ,لقد رأيته مرة يلكم أحدهم حتى أغمي عليه لأنه قال كلاما مسيئا لوالدته .

كما لا يمكن أن أنسَ ابن وزير التجارة ,لو لم أدخل بينهما لكان شهاب قد اجهز عليه يومها ,مع انني تمنيت لو ارى ذلك الحقير يتلقى بعض الضربات على وجهه الثمين ,هو يستحق ذلك ,فكلما التقينا كان يحاول جرحي بكلماته ,قائلا ان الاميرات اللواتي رُبّين بدون والدتهن سيُلطخن سمعة الأسرة فحسب ,و لن يكنّ سوى فتيات مدللات لا يصْلحْن حتى للزواج ,كلام فارغ ,في رأيي إن ابناء الوزراء عليهم ان يعوا مسؤولية ان يكون والدهم ذو منصب مهم ,عليهم التصرف وفقا لذلك بدل ان يجعلوا من انفسهم عديمي الفائدة ,كأنهم لم يوجدوا سوى لاحراج آبائهم و عيش حياة لامبالية .بالطبع لم أبقي هذا الكلام لي وحدي لقد قلته في وجهه ذاك كي أوقفه عن حده ,لكنه تمادى و أراد ضربي و قد أتى شهاب في الوقت المناسب لإنقاذي .

صرخ عمر غاضبا و متفاجئا في نفس اللحظة :ماذا ..تجرؤ على لكمي ..هل جننت ..كيف تضرب ابن الحاكم من تظن نفسك ..انت ابن جندي عادي ..حتى أن والدتك لم تكن سوى ابنة جارية لعمي المرحوم ..دِماؤك ليست مميزة على الاطلاق ..اذا ..كيف تجرؤ على لكمي انا ولي العهد .

اصبح شهاب غاضبا جدا و من الصعب على إخوتي إمساكه أكثر من ذلك لذا تقدمتُ بخطوات بطيئة نحو عمر ,نظرت اليه و هو على الأرض ,مددت يدي نحوه لاساعده لينهض على قدميه ,ثم قبل ان يفتح فمه ذاك و يضيف أي شيء رفعت يدي و صفعته بقوة ,علّ تلك الصفعة ستريح شهاب قليلا ,أو تغير من تصرفات عمر الوقحة .

نظر عمر نحوي متفاجئا و لم يقل شيئا بل استمر في النظر نحوي محاولا كتم غضبه و عباراته الجارحة التي دائما ما تخرج في مواقف كهذه ,لكنني سبقته في الكلام و قلت :ماذا الآن ..الم تجد ما تقوله فانا ابنة حاكم و اميرة لا اعتقد ان حجة الدم المميز ستفيدك لتنكر تصرفي ..و ايضا ..كيف بحق السماء تستطيع قول ان والدته مجرد جارية ..هل نسيت ابن من أنت ..امك ليست حتى جارية من قرطبة اذا دمك ليس قرطبيا نقيا حتى ..كيف تقول انك ولي العهد بهذه السهولة و انت ابن جارية شيبية ..هل تغاضيت عن الأمر فقط لانك ابن الحاكم ..غريب ..حسب تصنيف الدماء الذي وضعت قواعده بنفسك سيكون سليم أكثر ملائمة ليكون ولي العهد ..أليس كذلك ..اخبرني ان كنت مخطأة .

التزم عمر الصمت ,اخيرا استطعت قول ما كان يخطر ببالي بعد سماع وقاحته طوال الوقت ,حقا أنا اشعر بالراحة الآن .

لمْ يُجب عن سؤالي لذا قلت :لقب ولي العهد لا يعين حسب الدماء ..لكن حتى لو كان كذلك فانت لن تحصل عليه ثق في كلامي .

عدتُ الى جانب شهاب و اخذت بيده ,سرنا بعيدا عن المكان فلدي أمور أهم علي توليها .

***

استطعت دخول السجن بعد حوار طويل مع الحارس ,فالحاكم منع الزيارات .

دخلت زنزانة عين و هرعت اليه بعدما رأيته مرميا على الارض فاقدا للوعي ,حاولت ايقاظه و صِحْتُ باسمه مرارا لكنني لم ألحظ أي استجابة ,ماذا فعلوه به يا ترى ؟

ناديت الحارس و طلبتُ ان يحضر الماء بسرعة ,فهرع لذلك ,بينما تقدم شهاب نحوي و رفعني لأقف قائلا :ما بك يا هيرانة ..تماسكي قليلا ..لا أحب رؤيتك هكذا .

لا أعلم ما أصابني أيضا لكنني خائفة هذا كل ما اشعر به الآن .

أحضر الحارس الماء و منحني اياه فجعلت عين يشربه ,سكبت البعض على يديْ و مسحت وجهه ,بدا متعبا حقا ,هل ضربوه أم ماذا ,إن كان طهران قد فعل به هذا فأنا سأجعله يدفع الثمن غاليا و لن يفلت بالسهولة التي يظنها .

أخذ عين يستيقظ تدريجيا حتى استقرت عيناه علي ,قال و هو يصارع الارهاق :هيرا ..أنا آسف ..لم أستطع حمايتك .

_ما الذي تقوله انا من علي الاسف ..ماذا حصل انا لا اتذكر اي شيء .

_انه طهران ..حاولتُ منعه لكن الحراس كانوا في صفه ..رأيته يجعلكِ تشربين السم يا هيرا ..كنت مقيدا فلم استطع فعل اي شيء ..ظننت انك لن تنجي ..لا اصدق انني اراكي امامي الآن .

تقدم شهاب نحونا و سأل عين بغضب :اتقصدُ ان شقيقك ذاك تجرأ على تسميم الاميرة ..الحراس الملكيون هم من أمسكوا بكما و لن يجرؤوا على لمس شعرة من الاميرة او ستكون نهايتهم .

_لا اعلم كيف فعلها و لكنني رأيته يفعلها يا هيرا .

قلت بعد التفكير :لا اعتقد انه كان ينوي قتلي فالسم لم يقتلني بل اصابني بحمى شديدة و على الرغم من انه وضع حياتي في خطر إلا أنني شفيت بشكل ما ..و هو خرج من جريمته كالشعرة من العجين .

أضاف شهاب :لقد اختار سما جيدا فحتى الأطباء الملكيون لم يكتشفوا انك مسممة بل قالوا انها حمى مفاجئة لا غير .

_لقد كان محظوظا انني شفيت إذا .

_اتذكر انه دخل غرفتك يا هيرانة ربما اعطاك الترياق حينها ..فلم يحرس غرفتك سوى المرافقات الساذجات .

_اذا فقد خطط لكل شيء ذلك الوغد .

نظرتُ الى عين و حاولت استجماع افكاري ثم قلت :عين ..اسمعني جيدا ..لقد فشلتْ ..انهم لم يصدقوني ..طهران نجح في اقناعهم بشكل ما انني اكذب ليس الا .

سأل مذعورا :ماذا تعنين بهذا ..لقد أرسلنا رسائل كثيرة ..ملكة البابالون بنفسها ارسلت رسائل الهدنة .

_انا اعلم ..لكنني لا افهم ..لم تصل أي منها الى يديْ الحاكم .

_انها فلعته ..فعلها مجددا ..انها فرصته الاخيرة لقتلي .

_لا تقل هذا ..لن يحدث لك أي شيء ..انا اعدك .. هل تثق بي .

_اذا لديك خطة .

_بالطبع .

طلبت من شهاب ان يقترب و اخبرتهم بخطتي بالتفصيل و شرحت دور كل منهما فيها ,علينا النجاح مهما يكن و الا ,لا استطيع حتى تخيل ما سيحدث ان فشلنا ,فقط ,نحن سننجح .

خرجنا من السجن تاركين عين ,غادرنا ذلك المكان الموحش على أمل ألا نعود إليه مجددا ,هذا ما ارجوه على الاقل لانني ان عدت سيكون وداعا حتما .

سِرت و شهاب باتجاه جناحي بينما كانت الافكار و الافكار و المزيد من الافكار تغلب علينا ,لم ننطق بكلمة حيال اي شيء لاننا نعلم بالضبط ما يجول داخل كل منا ,انه قلق علي كالعادة ,اما انا ,فانا قلقة على عين ,اذا من الافضل الا نفتح المسألة و الا سنصطدم ,فقلقنا ليس واحدا .

وصلت الى جناحي فقلت لألطِّف الاجواء بيننا :لا بأس ..كل شيء سيكون على ما يرام ..انا اعدك .

وضع شهاب يده عى كتفي ,كما نظر إلي بعينيه الحزينتين اللتان تليق بهما تلك النظرة حقا ,و قال معترضا :لا أريدكِ ان تعديني بهذا .

_اذا بماذا أعدك ؟

_عديني أنك من ستكونين على ما يرام ..بالنسبة لي ..ان كنتِ على ما يرام ..فكل شيء هو كذلك أيضا .

حسنا كلامه الذي يُذيب حتى ثلوجا تشكلت منذ ملايين السنين يجعلني بموقف الغبية حقا ,ينسيني كيف اتحدث و كيف اخطو خطواتي الأولى ,استدرت بسرعة دون قول أي شيء و اصطدمت في الباب كالخرقاء .

سأل :هل انت بخير ؟

لم اجرؤ حتى على اجابته ,فتحت الباب و دخلت بسرعة محاولة النجاة بآخر قطرة من ماء وجهي , تنهدت لأزيل توتري هذا ,دخلت الغرفة فعاد لي التوتر مجددا بسبب وجه عدوي الحالي .

وقف مقابلا لي و بابتسامة المرضى النفسيين خاصته قال :مفاجأة .

الفصل التاسع

سر طهران الصغير

ما الذي يفعله هذا هنا ,انا لم ابقي هذا السؤال لنفسي بل وجهته اليه فأجاب بسخرية :اتيت للعب يا سمو الاميرة ..فقد لاحظت انك تحبين اللعب كثيرا .

_حسنا ان كان هذا سببك فانا اطلب منك ان ترحل لانني متعبة و لا طاقة لي لذلك .

_ظننت انك تريدين ان تعلمي متى سنسافر للمخيم العسكري ؟

_برأيي هذا مجرد سبب اختلقته لنفسك كي تأتي و تسحب المعلومات مني .

_معلومات ..مثل ماذا ؟

_مثل كيف استطعت انهاء الحرب بهذه السهولة و العودة لالحاق الذل بك و بوالدك .

ابتسم مجددا كالمختل العقلي ,تلك الابتسامة المظِلّلَةُ دائما ,نظر نحوي و قال :الحقيقة ..ليس هذا ما اريد معرفته ..ربما لانني اعلم الاجابة مسبقا ..لكن ما انا محتار حوله أكثر هو ..

تقدم نحوي ببطء ,انه يحاول اخافتي ,بث الرعب في العدو هو اذكى سلاح قد تستعمله و اعتقد انه من المقاتلين البارعين في استعماله .

قال و هو يبتسم مجددا :هل كنت تظنين انك ستبقين من دون عقاب ..لقد اهنتني و سببت لي السخرية حتى اصبح اسمي موضع علك في افواه شعبك الوضيع ..و الآن تقولين انك متعبة و لا تريدين اللعب .. حسنا ..انا سألعب إذا ..فالكرة في معلبي على أية حال .

لم اجرؤ على قول أي شيء ,شعرت انه من الافضل الانصراف ,انا لم اخف في حياتي من احد عدا والدي و الآن لا اريد شخصا اخر ليوضع في قائمتي السوداء .

ابتعدت عنه و اتجهت الى الباب ,فتحته ثم اشرت اليه بالخروج قائلة :اريد ان ابقى بمفردي لفترة ..لا تأتي مجددا الى غرفتي مرة اخرى و اذا اردت لقائي فلتخبر المرافقات و سنلتقي في الحديقة .

ضحك باستهزاء لكنه لم يقل شيئا بل جعل عينيه تطوفان ارجاء الجناح ثم تقدم نحو الباب ,و قبل ان يغادر قال بصيغة الأمر :إحزمي حقائبك نحن سنغادر غدا صباحا .

تلك الكلمات كانت مثل الهجمة المرتدة ,شعرت انني قد ضُربت على رأسي الآن .لا يهم لقد كانت عجلتي في لقاء عين في محلها ,كل ما في الامر انني سأسرع في تنفيذ خطتي ,بقيت أواسي نفسي بهذه الكلمات كي اهدئ من روعي قليلا ,انا لم اتوقع اننا سنغادر بهذه السرعة فانا لم اذهب لرؤية حديقة القصر لألقي نظرة على نباتات والدتي كي أتأكد ان كانت المرافقات قد اعتنين بها جيدا ام لا ,و لم اجلس مع اخوتي لاقص عليهم مغامراتي كما كانوا يفعلون هم حين كنا لانزال صغارا .اردت حقا اخبارهم عن ڤرين و طائرها الغريب ,و عن إنديان آباد و البابالون , لكن لا وقت لذلك علي حزم أشيائي و ملابسي لانني لا اعلم كم ستدوم الرحلة و كم يبعد هذا المخيم عن هنا .

ناديت كل المرافقات و طلبت منهم مساعدتي لانني بدونهم لن استطيع ترتيب أي شيء .

***

في اليوم التالي ,لم يأتي والدي لتوديعي كما توقعت ,ابنته الوحيدة ستسافر و قد لا تعود لكنه لا يلقي بالا ابدا ,لا بأس فحضور اخوتي يكفي لكن ليتهم اتوا بمفردهم .

تقدمت زوجتا والدي و سلّمْتا علي ,مُلقيتين بخطاب الوداع ,كأنهما متأكدتان تماما اني لن اعود او هذا ما كانتا ترجوانه على الاقل .

اضافت الزوجة الثانية بعض عبارات الامومة لسبب ما ,قالت من دون ارتباك :حافظي على نفسك يا سمو الاميرة و ابقي قوية و عاملي زوجك جيدا فاهم امر لدى الانسان و المراة خاصة ..عائلتها ..فإن كانت العائلة سعيدة كانت هي ناجحة .

اجبتها بصوت خافت كي لا يسمعني اخوتي :برأيك هل أنت امرأة ناجحة ؟

نظرت الي بارتباك و لم تَرُدْ فانا و هي نعلم جيدا اي عائلة ننتمي اليها لذا لا داعي ان نخدع انفسنا , اقتربتُ منها و أضفت :المرأة تكون ناجحة ان كانت هي الشخص السعيد في حياتها و ليس عائلتها .. قابلت شعبا كاملا تملؤه السعادة العارمة و لم يكن اي منهم فردا في عائلة .

تراجعتُ الى الوراء و نظرت الى زوجة أبي الاولى ,تبدو سعيدة تماما الآن ,هي فعلا تشعر انها تخلصت مني ,قلت لأفسد عليها سعادتها :لا تشعري بالحزن يا سمو الملكة ..فانا قد اعود كأرملة الى هذا القصر و لن يدوم فراقنا طويلا .

اختفت ملامح السعادة من على وجهها و اجابت بسرعة :لا سمح الله لا تقولي كلاما كهذا يا سمو الاميرة ..سوف ادعو لاجل زوجك كل يوم حتى يعود منتصرا و معافا انشاء الله .

امر مضحك ,فكرة انها سوف تدعو لاحد غير اولادها أمر مستحيل ,لكنها قد تفعله لتتأكد من ألا اعود , إنها امراة مضحكة حقا .

عانقت اخوتي جميعهم حتى عمر ,على الرغم من أننا لا نتفاهم كثيرا و لكنه يظل اخي و إن لم اتشاجر معه احيانا فما معنى الاخوة إذا .

حين وصلتُ الى شهاب ذكّرتُه بما عليهِ فعله و أخبرته انني اعتمد عليه ,لم يكن من الضروري قول ذلك لأن ثقتي في شهاب عمياء لا بل صماء و قد تكون بكماء أيضا ,لكنني لم أجد ما أقوله له و هو الوحيد الذي يبدو حزينا فعلا برحيلي ,انا اكره لحظات الوداع التي أحس بها سوى معه .

ركبت العربة و نظرت اليهم نظرة اخيرة ,اتمنى ان يكونوا جميعهم بخير إلى حين عودتي ,أنا أعِدُ نفسي قبل أن أعدهم أني سوف أنهي هذه الحرب دون أن تنزل قطرة دم واحد من أي منهم .

سرنا لايام و توقفنا لساعات ,كان طهران مُصرا على الوصول للمخيم في أقصر وقت ممكن ,كان المخيم يبعد أسبوعا كاملا عن قرطبة إلا أنه أراد أن يصل في أربعة أيام ,فلم نكن نستريح كثيرا و كنا نسيرا ليلا و نهارا .

انا حقا اشفق على الاحصنة و الجِمال ,لحسن الحظ اني تركت بحر في قرطبة و إلا لكان سيكون مرهقا كثيرا من السفر .

يقع المخيم بين شيبة و البابالون و هو النقطة القريبة من جميع المخيمات التي أقامها جيش شيبة لحماية حدود شيبة و منع البابالون من التوغل أكثر في الاراضي الشيبية .

كانت متمركزة على شكل قوس كبير يفصل الشعبين ,هذا ما استطعت استيعابه من الخريطة حين نظرت اليها خلسة .

صحيح ان طهران هو سبب كل المشاكل التي اواجهها حاليا الا انني لا انكر قوته في التخطيط العسكري , لو استعمل ذكاءه في احلال السلام لكان بطلا بالفعل .

وصلنا الى المخيم في غضون أربعة أيام كما اراد طهران تماما ,هو فعلا إنْ أراد أمرا حصل عليه .

دخلت بسرعة الى خيمتي التي أرشدتني المرافقات هناك إليها ,كان علي ان احفظ اسم اثنيتن منهن على الأقل كي أناديهما إنْ احتجت لشيء في هذا المكان الذي لا اعرف احدا فيه ,انا حقا ابدو كالغريبة رغم انه فور وصولنا تجمع الحرس و الجنود و المرافقات و كل من كان هناك ليحيوني ,أعتقد أن الفضول قتلهم منذ سمعوا بزواجي من أميرهم و قائدهم العسكري .

أنا لم ألتقي يوما بهذا الكم من الشيبيين حتى في الاحتفالات المشتركة و حتى حين ذهبنا إلى شيبة فأنا لم أرى كل هذا العدد فقد أمضينا وقتنا كله في القصر مع الملك و الملكة و حاشيتهم لا أكثر .

حسنا انا احب لقاء وجوه جديدة فأنا في العادة ممنوعة من هذا كوني لا أخرج من القصر إلا نادرا .

على كل ,كلهم بدوا سعيدين برؤيتي لسبب ما سأتحرى عنه لاحقا ,أما الآن فعلي النوم كي أعيد الطاقة التي فقدتها طوال هذه الرحلة .

في صباح اليوم التالي ,خرجت لأستكشف المكان ,كانت توجد خِيم في كل مكان ,و ذات أحجام متفاوتة ,منهن من كانت صغيرة و منهن من كانت كبيرة الحجم ,أكبر الخيم في المعسكر كانت خيمة الأمير ,لما لم أندهش يا ترى ؟ رجل مغرور مثله لن يقبل بخيمة تضم فراشه و أغراضه فقط ,هو يحتاج مساحة اكبر .

جلست طوال اليوم أتفحص المكان و أتحدث مع احدى المرافقات التي بدت ودودة جدا و مسالمة ,سألتها عن نفسها قائلة :قلتِ أن اسمك حليمة أليس كذلك ؟

_أجل سموك .

_إذا يا حليمة ..كم تبلغين من العمر ؟

_أنا في السادسة عشر سموك .

_كم مضى على وجودكم هنا يا حليمة ؟

_نحن هنا منذ شهر على ما أعتقد .

_ألستِ متأكدة ؟

_ليس فعلا ..مضت فترة مذ توقفت عن العد لكن إن سألت الأخريات ستجدين الإجابة سموك .

_حسنا لا عليك ..اه صحيح ..أخبريني يا حليمة هل لديك إخوة ؟

تغيرت ملامحها فجأة حين سألتها ذلك ,لذا قلتُ محاولة تدارك الأمر :ما الأمر ..هل تشتاقين إليهم ؟

_إعذري جرأتي سموك لكنني أتمنى أنْ تنتهي هذه الحرب بسرعة كي أعود إلى الديار أنا و إخوتي .

_تعودون ؟

_أجل فأنا اخِذْتُ لأكون من المساعدات في هذا المخيم بينما شقيقتاي أخذتا إلى مخيمات أخرى ..كما أن إخوتي الذكور تم استدعاؤهم للالتحاق بالجيش و هم أيضا ذهبوا إلى مخيمات مختلفة ..فأصبحنا جميعا متفرقين و بعيدين جدا عن رؤية بعضنا البعض .

حقا إن هذه الفتاة تتألم ,لكن لا ملكهم و لا قائدهم يشعر بألمها هي و الآلاف من أمثالها ,إنه لا يسعَ سوى لمصلحته و مظهره القوي أمام شعبه ,دفعهم جميعا للمشاركة في الأمر مجبرين تحت مسمى حب الوطن و الدفاع عنه ,من قال أن القوة تؤخذ برفع السلاح في وجه الآخرين ,قرأتُ يوما عن احدى الشعوب البعيدة جدا عنا ,كانوا شعبا ضعيفا و قوتهم العسكرية لا تكفي لحماية أنفسهم حتى لكنهم مع الوقت تعلموا أن يملكوا القوة بطريقتهم متحَدِّين بذلك جميع الشعوب ,درسوا نقاط قوتهم و طوروها ,كانت الزراعة هي كل ما يستطعون فعله بأرضهم تلك لذا فعلوا ما بوسعهم ليصبحوا اكبر قوة زراعية في المنطقة حتى أجبروا الشعوب الاخرى على عقد اتفاقيات سلام معهم مقابل تمويلهم باحتياجاتهم من الغذاء ,و بمرور السنين استطاع ذلك الشعب الضعيف أنْ يُنشِئ مملكة قوية في جميع المجالات ,و أصبحوا يحكمون ما أبعد من حدودهم الجغرافية دون أن يشنوا حربا واحدة .

قلتُ للفتاة و أنا أربت على كتفها :لا عليك سوف تنتهي هذه الحرب ..فبصراحة أنا أيضا أريدها أن تنتهي بأسرع ما يمكن ..أنا لن أستطيع تحمل البقاء في هذا المخيم طويلا مثلما فعلتم .

نظرتْ نحوي باستغراب ,إنها لا تزال طفلة حقا .

بعد العشاء استلقيت على فراشي و أخذت أحد كتبي المفضلة لأقراها قبل النوم فأنا أشعر بالملل طوال الوقت و كلما جلست للحديث مع تلك المرافقات ظللن يسألنني عن القائد ظنا منهن أنني أعرف أكثر مما يعرفنه هن ,أنا واثقة أننا لو اقمنا مسابقة حول من تعرف الامير حق المعرفة لفازت إحداهن علي بسهولة .

انغمست في قراءة الكتاب لدرجة أنني لم ألحظ دخول أحدهم الخيمة ,وقف فوق رأسي فتكهنت أنها إحدى المرافقات قد تود سؤالي إن كنت أحتاج شيئا لتحضره لي قبل أن تذهب للنوم ,لذا قلت :إذهبن للنوم يا فتيات فأنا أيضا سأطفئ النور بعد قليل .

لم أسمع تلك الجملة المعتادة التي تقلنها باستمرار "حاضر سمو الاميرة "عندها اكتشفت أني اخطأت التخمين ,رفعت رأسي فوجدت طهران يقف مستغربا و ينظر ببلاهة نحوي ,وقفت بسرعة و صرخت لأتدارك خطئي :كيف دخلت دون إذن هكذا ..كان يجب أنْ تُخبر المرافقات أنْ يُعلمنني بمجيئك قبل أنْ تقتحم المكان ببساطة كأنها خيمتك الخاصة .

استمر في النظر ببلاهة و لم يُعِر أي اهتمام لصراخي ,أعتقد أن هذه النظرة هي ما سيعتمده بدل تلك الابتسامة المختلة ,لكنني لم أضِف أي شيء و استمريت في النظر بغضب منتظرة إجابتي فجعلته يقول : حسنا لقد قابلت المرافقات في الخارج لكنني لم أشعر أنه من الغريب الدخول إلى خيمة زوجتي دون استئذان ..بل الغريب هو ما قُلتِه قبل قليل يا سمو الاميرة .

ضحكتُ باستهزاء لجوابه و قلتْ :لو كنتَ تتزوج من خطيبتك التي تُحبها منذ وقت طويل فلك الحق أن تفعل ما تريد ..لكنك تزوجت زواجا سياسيا كما يعلم الجميع ..و كلانا نعلم أنك وقعت عقد الزواج من اجل مصلحة تخصك و لم أكن في مخططك سوى بيدق تستخدمه لدخول الحكم بأسهل الطرق ..لذا من فضلك لا اريد أنْ أسمعك تقول زوجتي ..لا هنا أمامي و لا هناك أمام الجميع حسنا ؟

_الحقيقة أنني أتيت لقول شيء ما لكن انتهى بي الأمر بسماع خطاب طويل لا طائل له و قد وصلنا إلى هذه المرحلة .

_ماذا ؟

_سمعت أنك لا تريدين أن تمكثي في هذا المخيم طويلا هل هذا صحيح ؟

لا اصدق ,هل تقوم المرافقات باخباره بما اقوله و افعله طوال الوقت أم ماذا ,كان علي الحذر و عدم الثقة بأي منهن ,لقد قمن بخيانتي ,قلت و قد اشتعلتُ غضبا مجددا :و ما الذي ستفعله حيال ذلك ..هل التذمر امر ممنوع على زوجتك أم أنك كنت تخشى على سمعتك كزوج أن تُخدشْ .

ابتسم ابتسامته السخيفة مجددا و قال :لقد حذرتني ألا أقول كلمة زوجتي في أي مكان لكنك استعملتها و استعملت معها كلمة زوجي أيضا ..هل حان دوري اخيرا لأوبخك .

لا اصدق كيف تسمع أذناه كلامي هل يقوم بتصفيته و أخذ ما يعجبه فقط ,أظن أن طريقة والدي أصبحت رائجة لدى جميع الرجال .

قلتُ :إنْ كنتَ تنوي أن تتابع الحديث في الترهات دون الدخول في صلب الموضوع فأنا اشعر بالنعاس و أريد النوم لذا تفضل و استمر من دوني .

عدت إلى فراشي و استلقيت ثم استدرت و أطفأت الشموع التي تنير الخيمة .

عم الصمت لدقيقة اعتقدتُ أنها لن تنتهي أبدا حتى قال :لقد أمرتُ بتجهيز موكب لك ليرافقك إلى شيبة أنت و المرافقات اللواتي ستخترينهن ..أعلم أن المكان لا يناسب أميرة مدللة مثلك لذا من الافضل أنْ تذهبي و تقطني مع امي في القصر فهي ايضا وحيدة و تحتاج الى مرافقة .

خرج دون ان يسمع رأيي حتى ياله من ..

لا بأس على الأقل لقد فكر في راحتي ,إنه ليس سيئا لتلك الدرجة ,لابُدّ ان التزاماته و مسؤولياته هي ماجعلته يتحول إلى هذا النوع من الأشخاص .

لقد كنت أخطط للخروج من هنا هربا و لكنه ساعدني من دون أن يدري ,علي أن أكون شاكرة .

***

في صباح اليوم التالي خرجت لمقابلة حليمة ,اعتقد انها تستحق سماع بعض الكلام قبل أن أرحل .

أخبرتني الاخريات أني سأجدها مع الخيول ,إنها تحب الاعتناء بها فكما أخبرتني سابقا ,تذكرها الخيول بموطنها أين اعتادت على امتطائها و التسابق مع اخوتها ,رغم كوننا بعيدتين كثيرا عن كوننا متشابهتين لكن يمكنني القول أن لنا العديد من القواسم المشتركة ,إنني ارى فيها نفسي ذات السادسة عشر ,هذا التفكير منعني من لومها أو الشعور بالغضب الذي كنت اكّنه لها سابقا ,لأنني اعتقدت ايضا في مثل عمرها ان الولاء للأشخاص أهم من ولائنا لقيمنا الشخصية ,وضعتُ الاخرين قبل كل شيء ففقدت أهم شيء ,فقدت نفسي ,احترامي لذاتي و أخيرا و ليس آخرا فقدت ولائي لراحتي الخاصة ,رغم كوني اميرة رغباتها تعتبر اوامر يجب تلبيتها الا انني منعت نفسي من الكثير كوني مسؤولة عن شعب يتوقع مني ان أكون مثالية ,ليس من السيء السير في هذا الطريق ,السيء حقا يكمن في فقد البعض منك أثناء هذا المسير .

وجدت حليمة أخيرا ,تجلس بين دلوين كبيرين لا أعتقد أن فتاة بمثل حجمها تقدر على حمل أحدهما , نهضتْ فجأة و حاولتْ رفع الدلو على يسارها ,اقتربتُ منها ببطء ثم أمسكتُ بالدلو ,نظرتْ نحوي باندهاش ثم قالت و هي تسلمني الدلو :شكرا لك سموك إنه ثقيل بعض الشيء .

و من دون أن يرف لي جفن رفعت ذلك الدول بكل قوتي و سكبته فوقها لتبتلت من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها ,أعلم أني لست غاضبة لكن هذا لا يعني أنها لا تستحق العقاب ,فكوني الاميرة يحملني مسؤولية فرض احترامي على الجميع لذا علي أنْ أبدو قاسية في الوقت المناسب ,حتى إنْ لم ارد ذلك .

لم تجرؤ على النظر نحو عيني مباشرة بل ثبتت نظرها على الارض ,هل الارض من تحتاج سماع اعتذارها ,اعتقد انها اخطأت في حقها هي ايضا .

قلت و انا ارمي الدلو بعيدا محدثة صوتا كاف لبث الرعب في قلبها كي لا تستخف بي ثانية :لقد قال سمو الامير انه سمع انني لا احب المكان هنا ..من اخبره بذلك يا ترى ..اه اعتقد انها الخيول الثرثارة .. كانت تستمع لحديثنا انا و انت و قالت كل شيء للامير ..لكن أنا لا ألومها فأنا المخطاة من هذه الناحية فقد وثقت بها .

جلست الفتاة على ركبتيها و هي ترتجف ثم قالت بمنتهى الندم :سامحيني سموك لقد زل لساني فجأة حين سألني إنْ كنتِ مرتاحة هنا او ينقصك شيء ما ..ظننت أنني إنْ أخبرته الحقيقة فسيكون الأمر لصالحك .

تقدمت نحوها و قلت :معك حق فقد كان لصالحي ...لكن مع ذلك اشعر ببعض الخيانة ماذا عنها ؟

صمتت الفتاة و فضلت تركي انفس عن غضبي ,لذا قلت :لقد فكرت كيف اعاقبك و قررت اني سآخذك معي الى شيبة و امنحك اجازة لتذهبي لزيارة اهلك ..انها الطريقة الوحيدة حتى يشفى غليلي لذا لا اريد سماع اي اعتراض حسنا ؟

رفعت الفتاة عينيها فجأة و نظرت نحوي بوجهها البريء ذاك ,بوجهها الذي لايزال امامه الكثير ليختبره ,تلك البراءة الساذجة التي فقدتها منذ زمن لدرجة كوني آمنت أني ولدت من دونها .

قالت بمنتهى السعادة و هي تحاول كتم ضحكتها :فهمت سموك انا استحق العقاب فلتعاقبيني ارجوك .

انفجرنا ضاحكتين فقد كان مظهرها المبتل و السعيد في نفس الوقت غريبا حقا ,أظنها سعيدة للقاء اسرتها اخيرا ام لاني لست غاضبة منها ,لن اعرف ابدا ,الولاء يُكتسب بمعرفة ما يريده شعبك بشدة و تمنحه اياه مع مراعاة مصلحته و مصلحة البلاد ككل ,لا اعلم ان كان تلبية رغبة هذه الفتاة الصغيرة سيفيد البلاد بأي طريقة لكنني واثقة أني كسبت ولاءها و هذا هو المهم فعلا .

***

بعد يومين كانت قافلتي قد جُهزت بالفعل و لم يظل سوى اعطاؤها الأمر بالانطلاق .قبل ركوبي العربة وقفتُ أودع الأمير أمام الحاضرين ,لم اعلم ما يجب قوله ,هل اقول ما يجول في داخلي و فقط ام علي التظاهر و ارضاء الشعب ,بقيت حائرة لذا لم افعل أي شيء .

قال كاسرا للصمت :سأعود عما قريب منتصرا لذا انتظريني ..حسنا ؟

كلامه هذا جعلني ادرك أن علي التظاهر لكن رغم ذلك فضلت إضفاء البعض من مشاعري الحقيقية ليكون نفاقا حقيقيا ,فقلت :لا أحتاجك ان تعود منتصرا ..بل اريدك ان تكون منصورا .

نظر باندهاش اما سمعه ,انها اول مرة ارى تعبيرا كهذا على وجهه لم اكن اعلم انه يستطيع فعل اكثر من الابتسام و النظر ببلاهة ,قال متسائلا بشكل غريب :ماذا تقصدين ؟

_ببساطة ..بالنسبة إلى النصر و الانتصار ليسا شيئا واحدا ..فكر في الأمر ..لا اعتقد انه صعب لشخص مثلك .

استدرتُ و ركبت العربة بحذر ,هذا ما كان يجب فعله رغم ان نفسي لم تطاوعني على كتم كل ما كان يجول بداخلي لكنني تعلمت الصمت حين يكون لدي الكثير لقوله ,انها مهارة لا يمتلكها الكثيرون فقط من عانوا من ثرثرتهم المتواصلة و جُرِحوا بسببها .

***

لم يكن المخيم يبعد كثيرا عن شيبة ,لذا لم نأخذ فترات راحة كثيرة , بل على العكس سرنا بشكل متواصل حتى نصل أبكر ,فالمنطقة على حسب قولهم خطرة و يمكن ان نتعرض لهجوم البابالون في أي وقت .

كرهت كوني داخل عربة لمدة طويلة من الزمن فانا لم اعتد على البقاء في مكان واحد لفترة طويلة و بقيت اتذمر و اطلب من الحراس منحي خيلا لأسير به لكنهم استمروا في الرفض بحجة حمايتي كأني لا اعلم أن طهران من امرهم بمراقبتي جيدا خشية ان اهرب .

تحدثتْ حليمة كي تهوّن عني قليلا :هل تعلمين يا سمو الاميرة بعض القصص المخيفة ؟

_قصص مخيفة ..اتقصدين تلك التي تروى لاخافة الجبناء ..اجل اعرف البعض منها .

_هذا رائع هل يمكنك ان تخبريني احداها .

_تريدين سماع قصة مخيفة ..هل انت جبانة يا حليمة ..لا تكوني طفولية فجأة .

_لستُ كذلك ..انها فقط وسيلة لتمضية الوقت ..فقد بدوتِ ضجرة الى حد الموت .

_معك حق انا كذلك و لكن ..كان بإمكانك ان تسأليني عن طفولتي او عن أي شيء .. لما تريدين سماع قصة .

_الحقيقة شقيقتي الصغرى تحب هذا النوع من القصص و اريد ان اخبرها شيئا جديدا لم تسمعه من قبل .

_شقيقتك الصغرى شجاعة حقا .

_ألم تقولي يا سمو الأميرة أن هذه القصص للجبناء .

_إنها للجبناء في مثل عمرك و للشجعان في مثل عمرها .

_حسنا فهمت سموك ..هل ستخبرينني الآن ؟

_اجل حسنا .

فكرت مليا بما اخبرها و لم يخطر ببالي سوى طائر ڤرين الغريب فقلتْ :هل سمعتِ من قبل بطائرٍ ضخم يُحلق في السماء ؟

_طائر ضخم ..هل تعنين النعامة ؟

_هل تطير النعامة يا ذكية ..الطائر الذي اقصده أكبر من النعامة بكثير .

_لا لم أسمع به ..كيف علمت بوجوده سموك ؟

_حسنا لقد التقيت به ..انه من الكائنات الأكبر حجما التي رأيتها في حياتي كلها .

_أكبر من الفيلة ؟

_أجل اكبر ..و له صوت صاخب جدا يمكن ان يبث الرعب في جيش بأكمله .

_حقا ..كيف ذلك ؟

لم اكد أقول شيئا حتى سمعنا ذلك الصوت , و قد كنت متأكدة أنه كان جوابا كافيا لحليمة .

توقفت العربة فجأة بسبب الأحصنة المسكينة ,سمعنا صرخات المرافقات تتعالى ,نزلت و حليمة بسرعة لنرى ما يحصل و قد وجدنا الجميع يحدقُ في السماء ,رفعت رأسي فرأيت ما توقعته تماما ,انها ڤرين و تيرو ,يبدو انها تبحث عني في الأرجاء ,أظنها اشتاقت إلي .

ركضت بسرعة نحو الأمام علها تراني فتهبط ,لكن الحراس أمسكوني قبل أن اتجاوزهم و طلبوا مني العودة الى العربة خشية ان اتأذى ,قلت بصيغة الأمر :آمركم ان تتركوني ..انا اعرف ذلك الشيء جيدا يمكنني التعامل معه و انقاذ الجميع .

نظروا نحوي بحيرة ثم تركوني ,لذا تابعت الركض حتى اختفيت بين أشجار الغابة ,صرخت بأعلى صوتي علها تسمعني :ڤرين ..ڤرين ..هذه انا الأميرة هيرانة .. ڤرين .

فجأة ,هبط تيرو فوق الاشجار فحطمها الى نصفين ,و ترجلت ڤرين من فوقه ,تقدمت نحوي و عانقتني بحزن قائلة :لقد انسحبت الملكة من الاتفاق يا هيرا ..انها تجمع جيشها لتعيد شن الحرب على القبيلتين .

نظرت الى وجهها الحزين و قلت :لا عليك أنا سأجد حلا ما ..كل ما يهم الآن هو سلامة الشعب .

_كيف حصل هذا ألم يكن من المفترض ان تسلمي رسالة السلام إلى الحاكمين ..لما استمر الجيش الشيبي بالزحف نحو البابالون .

_إنها قصة طويلة ..لكن باختصار لم يصدقنا أحد ..كنا مثل العازف في المقبرة نتوقع أن ينهضوا ليحتفلوا معنا .

_ما الذي تفعلينه هنا اذا ..و أين عين ..لما ليس معك ؟

_دعك مني انها قصة اطول ..بخصوص عين ..فانا لا اعلم ما حصل معه الآن ..انهم يريدون اعدامه لكنني طلبت من شهاب ان ينقذه و يخرجه من ذلك القصر ..آمل ان يكون قد استطاع تهريبه فلم يبقَ الكثير على اليوم الذي سينفذ فيه الحكم .

_كيف يمكنني المساعدة يا هيرا ..انا اشعر بالسوء ..فبعد كل ما فعلناه لانزال على مشارف الحرب.

_اعلم ..كأننا قتلنا الكثير من الجنود في لعبة الشطرنج لكن الملك لا يزال على قيد الحياة ..نحن نحتاج إلى أكثر مما فعناه ..نحتاج الى ايقاف الحرب بواسطة شخص موثوق .

_من يكون ؟

فكرت مليا لوهلة من الزمن ثم قلت :ڤرين ..اعلم ما ستفعلينه ..اخبريني كم يستغرق الوقت للذهاب الى قرطبة و احضار شهاب و عين ثم العودة الى شيبة لمقابلتي ؟

_حوالي يومين من الطيران المستمر .

_جيد سوف اصل الى شيبة قريبا و بعد يومين سألقاكم حسنا ..سأجد طريقة لا تقلقي .

_فهمت سانطلق الآن ..اعتني بنفسك يا سمو الاميرة فأنت أملنا الوحيد .

_سأفعل الوداع يا ڤرين .

عانقتها و تمنيت لها النجاح في مهمتها ,أما أنا فكانت أمامي مهمة أولا ألا و هي اقناع الجنود بتكملة الرحلة فبعضهم أراد العودة متحججا بأن المكان لم يعد آمن بعد الآن كأنني لا اعلم ان صوت تيرو ارعبهم لدرجة نسوا فيها الموقف الذي سيواجهونه عند ملاقاة طهران حين نعود .

بعد نقاش طويل استطعت اقناعهم للعدول عن قرارهم .

***

وصلنا الى شيبة بعد عناء طويل ,لم أكن أعلم أني سأكون سعيدة لهذه الدرجة اني ادخل قبيلة شيبة ,ربما فكرة التحرر من تلك العربة هو ما كان يسعدني حقا لا غير .

قبل وصولنا الى القصر سرنا بين الشعب الشيبي الذي بدى متشوقا لرؤيتي فقد تجمع حشد كبير منه حول العربة ,حين اتيت المرات السابقة لم يكن احد يلقي لي بالا ,ربما لانني كنت لا أزال صغيرة جدا حتى اشغل جزءا من تفكيرهم او لانني لم اكن زوجة ولي العهد في ذلك الوقت .

طلب مني الحراس ان انزل و احييهم ,رغم كوني اكره اتباع العادات الملكية الا انه لم يكن لدي خيار آخر لكسب ود هذا الشعب الفضولي .

نزلت من العربة و قد نزل معي توتري المعتاد ,التوتر الذي تشعر به حين تكون العشرات من العيون مسلطة عليك و تخشى ان ترتكب أي خطأ فتتحول نظراتهم الفضولية إلى نظرات ازدراء .

كان جميعهم يبدون بأحسن حال و يبتسمون ابتسامات عريضة رغبة منهم لاظهار الود نحوي ,لكن كل ذلك بدى مصطنعا ,فجأة سمعت شجارا يدور بين الحشد فتقدمت غير مكترثة لتلك العيون .

حين اقتربت رأيت امرأة كبيرة تحاول المرور لكن حارسين ضخمين يمنعانها من ذلك و حين شاهدوني توقفوا و قامو بتحيتي ,بدت المرأة مستاءة جدا على ان تقوم باظهار احترامها اتجاهي ,لذا فعلت انا .

قلت بعدما أومأتُ برأسي :مرحبا اظن انك تعلمين من اكون أليس كذلك ؟

أجل .. اعرف جيدا أي نوع من الاشخاص انت .

يال الهول ,كان ردها من بين أكثر عشر عبارات وقحة وُجّهت لي كوني الاميرة .

قلتُ محاولة تهدئتها كي لا يغلب استياؤها على سببه :أرى انك مستاءة من امر ما ..هل يمكنك اخباري ..لا تقلقي ان اقترفتُ خطأ فمن واجب الشعب ان ينبهني اليس كذلك ؟

ضحكتْ باستهزاء واضح و قالتْ :لم ارى اميرة وقحة مثلك طول حياتي ..تقولين انه من واجبنا تنبيهك و أنت تقومين بحرب جميعنا نرفض المشاركة فيها ..لكن هل تهتمين ..اعتقد أن كل مايهمك هو البقاء في القصر آمنة مطمئنة بينما اولادنا و بناتنا يعانون البرد و الجوع في مكان لا نعرف حتى كيفية الوصول اليه و من اجل ماذا ..من اجل لا شيء ..لا شيء .

حقا قلب هذهالمراة المحترق على اولادها اكبر سبب لايقاف الحرب ,لكن لو كان الامر بيدِ لما اضطررتُ لسماع ما افكر به يُضرب في وجهي كأنني السبب الرئيسي لعذابهم .

قلت دون ان أوضع في موضع الخائنة لدى أي من الطرفين :قبل ان آتي إلى هنا كنت قد سافرت الى العدو و حاولت التفاهم معه ..فعلت كل ما تطلب الأمر كي لا يجبر اولادك على التعرض للجوع و البرد ..ليس فقط اولادك بل شعبي ايضا ..حاولت ان احميه من الموت في حرب لا تعنيه اساسا و قد فشلت في ذلك مع الاسف ..لكنني لم استسلم لازلت اؤمن ان هناك حلا ما لهذه المشكلة ..لذا اتهامك لي باللامبالاة و التأييد للحرب دون ان تعلمي أي شيء هو الوقاحة بعينها ..لكن لا بأس ..أنا اعفو عنك فأنت أم قبل كل شيء و من واجبك الدفاع عن اولادك و هذا أمر أحترمه فيك ..آمل من اعماق قلبي ان يعود اولادك سالمين دون ان تتأذ شعرة واحدة منهم ..و الآن عن اذنك علي العودة الى الموكب .

فعلا وجه تلك المرأة و حزنها منحني دافعا اكبر ,فحتى لو لم يكن هنالك امل فهناك هذه المرأة لاستعملها كدافع لي لاحلال السلام ,هي و كل الامهات امثالها اللواتي سيسعدن بعودة اولادهن بعد طول انتظار .

عدت الى العربة و استكملنا المسير لنصل الى قصر حاكم شيبة ,انه ضخم كما اتذكره فحاكم يقيم حربا من اجل صورته أمام شعبه لن يغيب عن ذهنه ان يكون قصره بمثل هذه الفخامة .

حين نزلت من العربة رأيت الملكة تقف هي وحاشيتها لاستقبالي ,فعلا زوجة الحاكم جميلة جدا ,اشعر بالاسف انها لم تنجب فتاة لترث جمالها ,حتى قطع الحلي البسيطة التي ترتديها تصبح اجمل لانها من ارتدتها ,اظنها على عكس زوجها تحب البساطة و تكره المبالغة .

بشعرها المرتب و وقفتها الشامخة ذكرتني بوالدتي ,ذلك الود المرتسم على ملامحها حقيقي على عكس ما رأيته قبل قليل ,اعتقد اننا سننسجم جيدا فالانطباع الاول يبشر بالخير .

اعلم اني رأيتها سابقا و لكن رؤيتي للأمور أصبحت واضحة اكثر لانني انظر اليها كأملي الوحيد الآن .

قدمت احترامي لجلالتها و قلت :اشكر جلالتك على هذا الاستقبال لقد شعرت اني في قبيلتي قرطبة .. الكل هنا ودودون جدا .

قالت بعدما ابتسمت اوسع هذه المرة حتى ظهرت غمازتاها :عزيزتي لا داعي لكل هذه الرسمية يمكنكِ مناداتي بأمي فنحن عائلة الآن و لا يصح وضع المسافات بيننا ..كما انني لطامة رغبة في انجاب فتاة بمثل جمالك لذا لا تؤاخذيني ان اعتبرتك ابنتي يا سمو الاميرة .

حقا كلامها هذا اذاب الثلوج التي كنت انوي ان ازيلها بمرور الايام ,و قد فعلتْ ذلك في دقيقة واحدة , هل علي تصديقها إذا ؟

قلت و انا ارسم ابتسامة مماثلة :شكرا لقول هذا الكلام سموك ..لقد كنت أفكر بالفعل ان اطلب منك ان تعتبريني ابنة لك فهذا سيكون شرفا كبيرا تمنحينني اياه .

عانقتني فجأة دون سابق انذار ,اعتقد انها كانت تشعر بالوحدة بمفردها و تمنت فعلا لو امتلكت ابنة لتمضية الوقت معها فالجميع قد اختفى من حولها .

حتى لو كانت محاطة بكل هؤلاء العاملين في القصر ,عدد الذين يفهمونها يعد قليلا جدا بل يكاد ينعدم .

ذهبت برفقة مرشدتي التي اخبرتني بمكان اهم الغرف ,لكن مع ذلك قالت انها ستبقى معي حين اتجول في القصر كي لا اخطئ الطريق .

حين وصلت الى جناحي اخبروني انه جناح طهران ,هم لم يكونوا على دراية مسبقة بقدومي لذا لم يجهزوا لي جناحا يليق بمقامي فقاموا بمنحي جناحه ,امر غريب ان تمكث في جناح عدوك ,اعتقد ان هذه الحرب جعلتني اعيش الكثير حقا .

حين انتهيت من تنظيم اشيائي خرجت برفقة المرافقة لتناول العشاء في الحديقة مع الملكة ,لقد اعدت وليمة على شرفي ,فكرتْ اني اريد تناول طعام لذيذ بعد هذه الرحلة الطويلة ,هذا ما اخبرتني به المرشدة , أظن ان نقل الكلام هنا هو امر سهل لذا علي احكام فمي جيدا كي لا اصبح موضع علك في افواههم اكثر مما انا عليه .

ان جو الحديقة موحش ,حتى مع رائحة الزهور و سماء هذه الليلة المرصعة بالنجوم ,بدت الحديقة موحشة ,انا وحيدة هنا ,انا غريبة ,انا دخيلة يجب شطبي من اللائحة .

جلست بجوار الملكة على مائدة اقل ما يقال عنها انها شهية ,لم ادرك انه مرت فترة مذ تناولت مثل هذا الطعام حتى رأيته امامي .

انتظرت أن تشير لي الملكة لنشرع في الاكل ,الا انها قررت تعذيبي أولا فشرعت في الكلام ,حديث الثناء و الشكر و الترحيب الذي لا ينوي ان ينتهي .

لكن جملة واحدة قالتها استوقفتني و اغرتني كفاية للحديث عنها و نسيان أمر الطعام .

قالت و الحزن باد عليها :اعلم ان المكان بعيد عن موطنك و لابد انك تشتاقين الى اخوتك ..لكن الانسان يعتاد يا عزيزتي ..بمرور الوقت حتى شعور الاشتياق سيختفي و تحل محله اللامبالاة ..ليس عليك القلق حيال هذا .

إنْ كانت تنوي قول كلام كهذا فمن المفترض أنْ تقوله و هي ترسم ابتسامة تدل على ذلك على الاقل ,كي تضفي على كلامها صفة الصدق و كي استطيع تصديقه حتى لو لم يعجبني .

قلت لأرد على كلامها بما كان يجول داخلي حينها :آسفة و لكن لا اعتقد انه سيأتي يوم اشعر فيه باللامبالاة اتجاه افراد اسرتي حتى لو لم ارهم لسنوات ..بل على العكس سيصبح اشتياق لهم اعمق و اكثر تأثيرا على نفسيتي ..معك حق ..الانسان يعتاد ..لكنه يعتاد على الامور الجميلة اسرع من اعتياده على السيئة و هذا يُحسب لسوء حظه أليس كذلك ؟

ابتسمتْ بحزن ,ابتسمتْ و نظرت نحوي بحنان لم اعتد ان يُنظر لي به ,اعتبر نفسي محظوظة ان ابتسامة والدة طهران مختلفة عن خاصته .

اضفتُ لكسر الصمت الذي اشعرني بالضيق للحظة :هل تشتاقين إلى أولادك جلالتك ؟

أجابت بسعادة :بالطبع اشتاق لهم ..لا يهم كم عددهم و لكنني اشتاق لكل واحد منهم .

إجابتها هذه أشعرتني بالغضب فعلى الأقل والد عين لم يكن كاذبا بارعا و ادعى حبه اتجاه اولاده كما تفعل هي ,احدهم على حافة الموت لكنها لا تحرك ساكنا بل و تقول ان جميعهم مميزون بالنسبة لها ,و انا التي ظننت انها تعاملني بلطف لاني زوجة ابنها المفضل .

لم اتمالك نفسي فقلتُ معاتبة :حقا ..سعيدة لذلك ..انت لا تهتمين لعددهم ..إذا لن يضرك ان نقُص احدهم صحيح ؟

نظرتْ باستغراب كأنها لم تفهم حرفا من كلامي ,انا لا اتكلم لغة اخرى انا اتكلم معاني تفهمها.

سألتْ باستغراب :هل تعنين طهران ..انه محارب قوي لا تقلقي عليه سيعود سالما يا سمو الاميرة ..مع هذا جميل ان اراك تهتمين بسلامته ..كنت خائفة ان يكون زواجا سياسيا ..حتى اني شككت حين اخبرني الملك أن طهران يحبك .

اظن ان نظرات الدهشة قد قدمت اجابة وافية و إلا فانا لا ادري كيف اجيبها .

نظرت نحوي و ألقت مجموعة من الاسئلة :ماذا ..ما الأمر ..ألم تكون تعلمين بذلك أم ماذا ..اعني هذا ما كتبه الملك في رسالته ..انا لم أجرؤ على سؤال طهران بعد ..هل قال ذلك ليطمئنني اذن ..انا لا ادري ما اقول حقا ..ظننت الأمر بطريقة اخرى يبدو انها انانية مني ..كان علي ان اقلق اكثر و اسألك .

انتظرت قليلا ريثما استجمعت افكاري كي لا أخطئ في الكلام و أحرج أيا منا ,قلت بعد التفكير : جلالتك ..لا اعلم ما اخبرك به الملك و لكن كان زواجي من الأمير سياسيا تماما لقد فاز بطريقة ما في رهان بين اولادك و والدي لذا كان علينا تنفيذ وعدنا .

اجابت متفاجئة :رهان ..لا اعلم ان كنت ستصدقينني يا سمو الاميرة و لكن لم يكن لي علم بالموضوع البتة .

_لكن هل كنت تعلمين سبب عرضه الزواج ؟

أجل .. كما ترين نحن على مشارف حرب كبيرة تهدد القبيلة و زواجكما كان سيمنحنا الدعم اللازم لمجابهة العدو ..لكنني لم اعلم ان الاختيار تم عن طريق رهان ما .

_اذا هل اخبرك الملك ان الامير عين اتهم بالخيانة لمحاولته مساعدتي .

تسارعت وتيرة تنفسها و نظرت لي بوجه تعلوه الصدمة و عينين مندهشتين ,لا بد انها لم تتوقع ذلك ابدا ,من بين جميع الامور التي اخفاها الملك عنها اعتقد ان موت ابنها كان سيكون أحداها .

امسكت الملكة بيكلتا يدي و ضمتهم الى حجرها ,بدأت دموعها تسكب واحدة تلوى الاخرى من عينيها المرهقتين بينما تقول :هل هو بخير ..انه على قيد الحياة أليس كذلك يا سمو الاميرة ..سأكون هادئة لذا اخبريني الحقيقة ..أنا لم أكن اعلم ..انا لا اعلم اي شيء ..ارجوك ان تخبريني .

بدت محطمة حقا و صمتي هذا سيفقدها اعصابها اكثر لذا من الافضل لي ان اتحدث :جلالتك لا بأس انه بخير ..انا حاولت انقاذه في البداية لكن لدى عودتنا امسكوا به و وضعوه في السجن ..انه في الزنزانة حتى يقررو ما سيفعلون به لكن لن اخفي عنك ان حياته في خطر محدق .

تلاشى ذلك الحزن فجأة و تحول إلى نيران من الغضب تغزو جسدها ,بدت مشتعلة حقا ,اعتقد انها ملكة مسالمة الا إن تعلق الأمر بأولادها .

_ما الذي تعنينه بعودتكما ..اريد ان افهم كل شيء .

اعتقد انه لم يكتب لي تناول طعام لذيذ بعد ,فقد شرعت أشرح لها ما حصل منذ وصول موكب حاكم شيبة حتى وصولي الى قصرها هذا ,تحدثنا و تحدثنا لقد اختصرت إلى اقصى حد حتى لا اؤلم قلبها اكثر لافعال الامير طهران و زوجها ,فقد بدت خائبة الامل جدا و حائرة ,اعتقد ان ما اخبرني به عين صحيح فنساء شيبة ليس لهن الحق في الكثير من الامور ,حتى انهم لم يسمحوا للملكة ان تحضر عرس ابنها ,لم يخبروها ان حياة عين مهددة و لم يستشيروا رأيها حتى في حل الامور مع البابالون , اعتقد ان تقييد افكار و اراء البعض لا يختلف عن تقييدهم فعلا و وضعهم وراء القضبان ,ان استمرت شيبة على كبت حقوق النساء فسوف ينتهي بها الأمر مقسومة إلى نصفين ,نصف تشغله النساء و الآخر يشغله الرجال و انا على ايقان تام ان حياة النساء لن تتأثر بمقدار تأثر الرجال ,خاصة ان رجال شيبة لا يجيدون شيئا سوى إلقاء الاوامر و سحب سيوفهم عن غمدها اعلانا للقتال ,هذا ما تعلموه طوال سنين حياتهم الطويلة .

حين انتهيتْ كان يبدو على الملكة انها وصلت الى الحد من قدرتها على التحمل ,أنا لا ألومها حقا فإن كان الأمر صعبا علي فهو اصعب عليها بكثير .

قالت بألم واضح :إنه طهران ..كنت اعلم انه تغير لكنني لم اعلم اي نوع من الاشخاص اصبح فقد مر الكثير من الوقت مذ تحدثنا معا كأم و ابنها ..لقد أعمى الغضب و الرغبة في الانتقام بصيرته .

_الانتقام ..ممن ..اخيه ؟

تنهدت الملكة عميقا و قالت :بما انك اصبحت زوجته فمن حقك ان تعلمي ..

حين كان طهران لايزال شابا في مقتبل العمر احب فتاة من القرية ..انها قرية كنا نذهب اليها حين يشتد الحر في شيبة ..كانت هادئة و مليئة بالحقول و الغابات كما كان نسيم الهواء العليل نعمة تحل علينا في لياليها ..و على عكس طهران حاليا ..طهران الشاب احب تلك القرية و اجواءها و احب الركض في حقولها الخضراء الشاسعة ..احب الجلوس تحت اشجارها و اخذ قسط من الراحة بعد يوم طويل من اللعب مع اخوته الصغار ..و اكثر ما احبه كان تلك الفتاة ..لطالما وبخه والده و منعه من الذهاب للقائها ..لكنه لم يستمع ابدا بل كان يتسلل على الدوام و يتغيب عن اجتماعات والده ..حتى انه كره التدريب على حمل السيف و ركوب الخيل كل ما اراده كان التجول و اللعب مع تلك الفتاة ..حين اتذكر تصرفاته اعي كم تغير ولدي و اعي اكثر لما لم اعد ارى تلك الابتسامة التي اعتدت رؤيتها على وجهه في تلك الأيام ..تلك الابتسامة اختفت منذ ذلك اليوم المشؤوم ..اليوم الذي كانا فيه يتجولان في الغابة .. و فجأة ..هجم عليهما قطاع الطرق ..كانوا لصوصا أتوا للاختباء في الغابة ..قام أولئك اللصوص باختطاف الفتاة و ايذاء ابني العزيز و سببوا له ندبة لاتزال إلى اليوم ..حين عاد طهران في ذلك اليوم

إلى منزلنا الصيفي كانت دموعه لا تتوقف و صراخه يعلو و يعلو ..حاولت تهدئته بكل الطرق قائلة اننا سوف ننقذها سوف نجدها و سنعاقبهم جميعا لكن فور قدوم والده تبخر كل ذلك ..قال له بدم بارد انه السبب ..قال له انه لو تدرب على حمل السيف لو انه فقط كان المقاتل الذي يهابه الجميع لما تجرأ أحد على الاقتراب منها أو أذيتها ..قال بالحرف الواحد ..لقد كنتَ اضعف من أنْ تستطيع انقاذها منهم ..لقد رحلتْ بسببك .

آلمني قلبي حقا لم اكن ادري ان طهران عانى من حادثة كهذه في حياته ,فهمت انه لم يولد هكذا لكنه اختار ان يصبح هذا الشخص .

سألتُ الملكة بكل حزن :هل سمعتم عن الفتاة بعد هذه الحادثة ..هل عُثر عليها ؟

_لم يحصل ذلك ..كل ما اوصلنا اليه بحثنا هو انهم اقتادوها الى قبيلة عُرب ..قد يكونون قاموا ببيعها في سوق النخاسة او قتلوها لا احد يعلم ..بعد هذه الحادثة لم نعد مجددا الى تلك القرية ابدا ..حين تذكرتها شعرت فعلا بالحنين الى تلك الاوقات .

_ان كانت تعني لك الى تلك الدرجة فاعدك سموك اني سأصحبك اليها حين تنتهي الحرب و سأرافقك و اخبرك بالكثير من القصص المثيرة للاهتمام .

ضحكت الملكة و ربتت على كتفي ,اعتقد ان كسب ودها كان سهلا نوعا ما و الآن حان وقت كسب ثقتها .

قلتْ :سموك انا اعلم اني قد اكون اتجاوز حدودي و لكن ..لا احد موافق على هذه الحرب حتى شعب شيبة نفسه فمابالك بشعبي ..مثلما اخبرتك لقد عقدت اتفاقا مع العدو لكن حاكم شيبة و طهران لم يصدقوني و بالطبع والدي لم يقف بجانبي ..انا واثقة ان الملكة ارسلتْ لهم رسالة الصلح لكن لسبب ما لم تصل لأي منهم و او بالاحرى تدخل احدهم و منع وصولها ..و اعذري جرأتي لكنني اثق انها من افعال طهران لذا ارجوك سموك ..انت املنا الوحيد ..ارجوك ان تتدخلي و توقف هذا الكابوس الذي نعيشه .

بدى على الملكة انها تفكر في الموضوع ,انها تفكر مثلي ,هذا ما تأملت حدوثه .

قالت متسائلة :لنفترض اني اريد منحك ثقتي و تقديم يد العون ..ما الذي بامكان امرأة مثلي ان تفعل ؟

اعتقد ان التقليل من شأن نفسها كونها امرأة هو أمر مرفوض تماما حتى لو كانت من شيبة ,فهي تبقى الملكة و لها بعض الصلاحيات مثل الملك .

بعد التفكير قلت ما يجول في عقلي :لما لا ترسلين رسالة الى الملك و تخبرينه انه وصل مبعوث قبل أيام يدعو للصلح فإن كان لا يصدقني فهو مجبور على تصديقك جلالتك انت الملكة و لن تكذبي بل ستفعلين الأفضل لمصلحة شعبك .

و أضفتُ حين لم اتلقَ أي اجابة منها :كما انها الطريقة الوحيدة لانقاذ عين ..اذا توقفت الحرب سيعفو عنه لانه ساعد في ذلك .

ذرفت الملكة الدموع و هي تتكلم بكل ضعف كأنها بلا حيلة تماما :و كيف ستصل الرسالة في الوقت المناسب انا اقلق لهذا السبب ..اخشى أننا تأخرنا .

_لا تقلقي سأحرص على ايصالها في الوقت المناسب كل ما عليك القلق حوله جلالتك ..هو ما ستكتبينه لاقناع الملك .

مسحتْ دوعها ,اقتربتْ مني و قالتْ :اعدك انني سأفعل ما بوسعي ..ابني لا يستحق الموت ..ذنبه الوحيد انه ذو قلب طيب و هذا ما جعل طهران يكرهه اكثر ..انه يذكره بنفسه سابقا .

_حسنا لقد اتفقنا اذا ..غدا سأجهز نفسي و اذهب لايصال الرسالة ..هناك أمر آخر سموك ..عليك ان تغطي على غيابي فانا سأتسلل ليلا من القصر و اتجه الى قرطبة و أعلم من سيساعدني في ذلك .

_لا تقلقي حيال ذلك سأنبه المرافقات انك اصبتِ بالحصبة و اشرح الوضع لإحدى الحكيمات و هي من ستمثل انها تقوم برعايتك ..هذا سيكون مبررا جيدا لغيابك .

_أنت ذكية جدا جلالتك .

_لم نأكل شيئا سأطلب منهم أنْ يعِّدو مائدة جديدة .

انا احب هذه المرأة اظن ان علي زيارتها مجددا مستقبلا .

***

في الغد نفذنا الخطة كما اتفقنا ,سلمتني الملكة الرسالة و تسللتُ خارج القصر باتجاه الصحراء اين سألتقي بقرين و البقية .

لقد ساعدتني حليمة كثيرا و أخبرتني إلى أين اتجه لأستقل عربة تسير بي نحو الصحراء ,كما قدمت لي بوصلة و خريطة دقيقة لحدود شيبة ,سألتها ان كانت على دراية بقصة طهران فأخبرتني أنها سمعت شائعات عنها ليس اكثر و من بين ما سمعته كان انه يشتبه ان اسم العصابة يكون عصابة باكوار و مقرهم في قبيلة عُرب ,لا احد يعلم كيف دخلوا الى شيبة و ما سبب اعتدائهم على الأمير دون غيره .

قصة الامير أثارت فضولي و قد بدت مثل اللغز الذي لم يحل لسنوات لذا جعلني فضولي اسرح في التفكير حوله طول الطريق حتى وصلت الى حيث أشارت لي البوصلة لأترجل .

سرت شمالا علي ألمحُ طائر قرين ,و بعد ساعة من المشي وجدتهم ,ركضت نحوهم بأقصى سرعة لدرجة أني تزحلقت من تلة الرمل لأنزل مستلقية أواجه القمر ,اعتقدت في تلك اللحظة أنه يسخر مني , يال تفكيري الطفولي ,متى سأكبر يا ترى ؟

من بعيد لمحت شهاب يجلس وحيدا فوق الطائر و قد بدا عليه الحزن ,حين تقدمت أكثر واجهتني قرين بوجه حزين متصلب ,لم تنطق بكلمة و لم تقل مرحبا سموك حتى ,كان الجو كئيبا جدا يكاد يخلو من معنى الحياة لولا الاصوات التي كان يطلقها تيرو ,مع انها بدت مثل عويل الذئاب حين تحل بهم كارثة , هكذا بدا لي الأمر ام هكذا هو الامر .

تقدمتُ نحو ڤرين و امسكت بها و سألتها محاولة تهدئة اعصابي :اين هو عين يا ڤرين ..لقد طلبتُ منك احضاره معك ..لا لم يكن طلبا بل كان أمرا ..ڤرين أجيبي كفاك مزاحا ..لما لم يأتي معكم ألم تستطيعوا إخراجه من الزنزانة ..أم أن ذلك الشقي رفض الذهاب ..لما هذا الصمت ..اجيبي)..صرخت (أجيبي ...

رفعت ڤرين عينيها عن الأرض اخيرا و وجهتهم نحوي و قالت :لقد فعلنا ما بوسعنا و لكن ..تأخرنا كثيرا ..

بمجرد سماع ذلك فقدت توازني و سقطت على ركبتي ,كان الالم الذي شعرت به قويا و كانت الصدمة اعمق ,لقد خرسته ,لم أوفي بوعدي الذي قطعته ,طهران فاز و انا خسرت ,كيف سأواجه الملكة , كيف سأواجه نفسي في المرآة ,لقد فقد حياته الذي كفلها لدي ,لقد وثق بي و انا خيبت ظنه ,ليس هو وحده بل خيبت ظن الجميع ,انا لن اسامح نفسي او طهران او اي احد .

بينما كنت اعاتب نفسي بأقسى العبارات و امنح لعَيْنَي الإذن بأن تذرفا الدموع بقدر ما أرادتا فقد منعتهما عن ذلك طويلا ,الآن لم يكن لدي سبب لأدعي القوة و هو ليس هنا ,لا داعي ان ابدو بمظهر الاميرة الناضجة و اخفي حقيقتي الطفولية , حقيقتي الانثوية التي تواجهه كل مصاعبها بداية بالبكاء ,اثناء كل تلك المشاعر التي كانت تتشاجر داخلي ,سمعت صوت ضحك متعالٍ ,بدى الأمر كأني اتخيل سماعه يضحك ام اني ارى روحه أو شيئا ما .

رفعت ناظري فوجدته يقف امامي و ابتسامة عريضة تعلو وجهه ,انحنا و امسكني ثم رفعني و انا لا ازال تحت وقع الصدمة ,قال و هو يربت على رأسي :لا باس انا هنا لم يحصل لي أي شيء اردت المزاح معك فقط فأقنعت ڤرين ان تساعدني على خداعك .

بمجرد سماعي تفسيره تملكني غضب شديد كاد يجعلني أخرج سيفي و اقتله بنفسي ,لكنني اكتفيت بصفعه بقوة لاعبر عن غضبي ,لكن و بمجرد فعلي ذلك اقتربت منه وعانقته ,انفجرت بالبكاء ثانية فانا لا انوي ان امثل بعد الآن ,أنا سأكون الاميرة الطفولية من الآن فصاعدا فالأمر مرهق .

قال مازحا :لم اكن اعلم ان الاميرة يمكنها البكاء .

أجبته بعد لكمه في بطنه بقوة :اغلق فمك ..الا ان كنت تريد ان تعلم ما بإمكان الاميرة ان تفعل أيضا .

ضحك مجيبا :حسنا حسنا صمتْ .

تقدم شهاب و قدم كيسا من الذهب لعين قائلا :خذ انت فزت .

اخذ عين الكيس بكل سعادة و شكره ,لم افهم الموقف لذا كانت نظراتي نحو عين وحدها كافية ليوضح الأمر لي فقال :حسنا لقد تراهنت معه انك ستبكين لكنه قال انك لن تفعلي و بالنظر الى وجهك انا اكون الفائز ..يبدو ان شقيقك لسنوات لا يعرفك حق المعرفة .

بدى على شهاب الغضب ,اظن انه خائب الظن ,لا ألومه فحتى انا خاب ظني ,كوني أصبحت حساسة لهذه الدرجة خاصة اذا تعلق الامر به ,اعتقد اني اصبت بمرض ما و علي التداوي قريبا .

سألت قرين : الى اين الآن سموك .

أجبتها بعدما مسحت آخر دموعي :الآن ..إلى عُرب .

الفصل العاشر

يوماً مَا

مررنا بالكثير و لم يتبقى سوى القليل ,القليل من الصبر و سنصل لمحطتنا الاخيرة ,استغرقت رحلتنا من قبيلة شيبة الى عرب حوالي ثلاثة أيام من السير المتواصل .

طلبت من ڤرين ايصال الرسالة الى حاكم شيبة ,هذه المرة لن يستطيع طهران اعتراضها ,ڤرين ستتأكد من ذلك .

بدى على بحر التعب لذا توقفنا قليلا عند استراحة قريبة من أسوار العاصمة ,قدمو لنا الطعام و الشراب , كما تمكنا من النوم قليلا .كنتُ مستلقية اشاهد شهاب من بعيد و القلق باد على وجهه ,و حال عين لم تكن احسن منه ,بدا قلقين جدا و لم يستطيعا اغلاق أعينهما و اخذ قسط من الراحة بعد هذا السفر الطويل .

تقدمت نحوهما و قلت و انا اناول كلا منهما بعض الاغطية التي كانت إحدى المضيفات قد قدمتهم لنا سابقا :هلا نمتما قليلا تبدوان متعبين .

نظرا إلى بعضهما ثم اخذا الاغطية و استلقيا مثل طفلين صغيرين تشاجرا للتو و الغضب متجلٍ عليهما .

أظن انهما يعاتبانني سرا لانني احاول مساعدة رجل مثل طهران ,بعد كل ما فعله بنا ,انا اتكبد الكثير و اعلم ,ربما لن نجد تلك الفتاة ابدا و لكن مع هذا سنكون حاولنا ,لن يتملكني شعور الندم فقد فعلت ما بوسعي .لا اظن انهما يفهمان الأمر فهما لم يريا تلك الحسرة التي رأيتها تحيط بالملكة حين أخبرتها بأفعال طهران .

حتى شقيقه لم يكن يعلم بالقصة ,و لا فائدة من معرفتها الآن فقد غرس كرها اتجاهه لن يقدر على اقتلاع جذوره ,فقد تغلغلت عميقا في قلبه ,و تلك الندوب على جسده ستظل تذكره بوحشية طهران و لن يستطيع نسيانها .

***

في الغد ,دخلنا عبر ممرات التفتيش مثل الجميع ,فأنا لم أنوي أن اكشف أمري مبكرا ,كنتُ أريد السير في أسواق عُرب و التأمل في وجوه سكانها ,كما أردتُ دخول محلاتها لأبتاع بعض الهدايا و المجوهرات .

بدت مختلفة كثيرا عما روته الكتب ,و بقول مختلفة أعني أنها أجملُ حتى من تلك الرسومات الموجودة في الكتب .

السوق مكتظ أكثر مما كنتُ أعتقد ,إن عُرُب منفتحة بعض الشيء عن قُرطبة ,لذا مشاهدة البضائع المتنوعة ,المعروضة على رفوف المحلات يثير فضولي فعلا ,توجد بها أمور غريبة و مأكولات أغرب ,اريد حقا تجربتها ,كما أن عدد أنواع الأقمشة المعروضة يفوق الأنواع التي أعرفها .

كان المكان ملائما لمحبي الاكتشاف أمثالي ,حتى شيبة لم تكن تزخر بمثل هذا التنوع ,بل كانت اسواقها مملة جدا .

جلسنا متعبين على احدى كراسي ساحة السوق بعدما تجولنا لساعات دون ان نجد خيطا واحدا يوصلنا إليهم ,لقد خاب ظني فعلا ,ظننت الأمر سيكون سهلا لكن اتضح اننا نبحث عن إبرة في كومة قش .

قال شهاب :من الأفضل أن نعود أدراجنا فحتى إن وجدناهم فنحن لن تستطيع مواهجهتهم .

معه حق إن كانوا حقا كما وصفتهم حليمة لي فنحن سنكون في عداد الأموات إن وجدونا .

بعد لحظات نهض عين فجأة و سار نحو منصة خشبية عالية موجودة في منتصف السوق ,إنها تشبه تلك المنصات التي تُستخدم للإعلان او الإعدام .

صعد مثل المعتوه فوقها و صرخ عاليا حتى سمعه كل من كان قريبا من السوق أو بعيدا عنه .

صرخ قائلا :يا عصابة باكوار هل تسمعونني ..انا اتحدى زعيمكم ايها الجبناء ..إن كنتَ بنصف الشجاعة التي تدعيها اخرج و واجهني الآن ..انا في انتظاركم ايها الحمقى المتوحشون .

فاجأني حقا ,لم اكن اعلم أنه بمثل هذه الجرأة ,كل من كان هناك بدى عليهم الخوف ,لا بد انهم يتمنون أن لا احد من العصابة قد سمِع هذا المعتوه و هو يهينهم و إلا فإن الأمر لن ينتهي على خير .

ركضتُ نحو المنصة و ناديت عين كي ينزل و يوقف ما يفعله قبل أنْ يسبب لنا متاعب لسنا ندا لها .

قلتْ :عين ..إنزل الآن و إلا سنرحل من دونك .

فجأة و دون سابق إنذار ,أمسك شخص بي و قام بتقييدي ,كانوا مجموعة من الحُراس .

قاموا بتقييد شهاب أيضا و أمسكو بعين قبل أن يتمكن من الهرب ,لا اصدق مع من أوقعنا هذا الشقي .

قال الحراس و هم يجُرّوننا إلى السجن :بدأتم في افتعال المشاكل فور وصولكم إلى العاصمة ..سنريكم ماذا نفعل بالمجانين أمثالكم .

لقد كنت خائفة جدا أن اسأل ,هل سيقومون بجلدنا او إطعامنا لكلابهم المتوحشة ؟ كل ما كان يدور في ذهني حينها كان ابشع طرق العذاب التي من الممكن ان نتعرض لها .صرخت فجأة قبل أن يرمونا في السجن لانتظار مصيرنا :توقفوا ..انتم لا تعلمون من أنا أخرجوني قبل أن تندموا .

أجاب الحارس مستهزئا :لا أصدق ..لقد أصبح مجرموا هذه الأيام جريئين فعلا .

_اسمع انا اكون الأميرة هيرانة .. الحاكم يكون جدي .. يمكنكَ أخذِ اليه و سوف يتأكد من ذلك بنفسه .

انفجر جميع الحراس ضاحكين كأنني قلت نكتة ما ,ثم قال احدهم :يا فتاة ..انت لست الاولى او الاخيرة التي سمعنا هذه القصة منها ..حتى ان بعضهن أرتنا قلادة ما ..قائلة انها هدية من المرحومة ..و اتضح فيما بعد انها مزيفة ..اخبرونا ..من أين تحضرون هذه القصص يا رفاق .

معه حق كيف سيصدقونني و هم لم يروني من قبل ,انا لم آتي للزيارة ابدا و لا أملك ما يبرهن كلامي أيضا ,فحتى قلادة والدتي نسيت ان اطلب من ڤرين ان تعيدها لي ,انها لا تزال بحوزتها و لا سبيل للتواصل معها حاليا .

لقد خاب ظني مجددا ,يوم سيء منذ بدايته .

نظرت إلى عين بوجه يملؤه الغضب و كدت انقض عليه لولا أن شهاب شرع في تهدئتي قائلا :لا عليكِ ..سنجد طريقة ما للخروج من هنا .

صرخ عين بكل وقاحة ,كأنه ليس السبب الأساسي لوضعنا في هذا المكان :هذا ما تقوله على الدوام .. سنجد حلا ..سنجد حلا ..لكنك لا تفكر ابدا في ذلك الحل ..هل مهمتك هي الكذب و قول كلام مريح .. و حتى لو لم يكن كذبا هل يمكنك أن تتعب نفسك اكثر و تفكر في هذا الحل .

صرختُ بدوري على الرغم من أنني كنت أنوي تمالك اعصابي :ان كان على أحد ان يفكر في هذا الحل فهو انت لانك السبب الرئيسي في ما نحن عليه الآن لذا كفاك تذمرا و فكر في مصلحة الجميع بدل مصلحتك الشخصية .

أجاب عين متفاجئا :انا افكر في مصلحتي بدل مصلحة الجميع ..كيف يمكنك قول ذلك ..لقد وقفت في تلك المنصة لانكما بدوتما محبطين جدا يا رفاق ..نحن لم نملك خيارا آخر لنجد العصابة عدى استفزازها .

_هل فكرتَ انك ستقوم باستفزاز الحراس ليعتقلونا نحن ايضا ..أم ان هذا لم يكن ضمن الخطة .

_حسنا أعترف ..لقد أخطأت ..هل أنت سعيدة الآن ..على الأقل أنا فكرت في حل ما بدل قول بضع كلمات مريحة أو كشف هويتي كي يُطلقوا سراحي .

صرخ شهاب فجأة :كفى ..

توقف كلانا عن الشجار عندها و بدل ذلك نظرنا لبعضنا بحزن ,لم يكن أحد منا يرغب في الشجار ,لكن الأوضاع هي التي جعلتنا متوترين لهذه الدرجة .

أضاف شهاب و قد بدا هادئا جدا على عكسنا :حسنا انا اعلم اننا في ورطة و لست أنكر ذلك ..و اعلم ان علينا التفكير في حل جميعنا ..لكنه حقا ليس الوقت المناسب للشجار حول من كان المخطئ و من كان على حق ..نحن فريق و علينا دعم بعضنا مهما حصل ..انا لا ألومكَ يا عين بل اتفهم جيدا سبب ما قمتَ به ..لا عليك ..و انتِ يا هيرانة نحن لا نلومك ايضا لذا ليس عليك الاستسلام بسرعة هكذا ..انتِ اخترت هذا و نحن ايضا ..لا احد كان مجبرا على اتباعك لذا لا تُحمِّلي نفسك المسؤولية ..إن نجحنا سننجح معا و إن فشلنا سنفشل معا ..حسنا ؟

شهاب على حق ,لطالما كان على حق ,اتمنى أن يأتي يوم أكون راجحة العقل مثله ,مراعية و أتفهم الجميع ,عندها ستكون الأمور واضحة أكثر مما هي عليه الآن .

***

جلسنا في زنزانتنا مدة من الزمن لا نعلم ماذا سيكون مصيرنا بالضبط ,ننتظر بصبر في هذا الظلام , نتساءل في داخلنا هل سنرى الشمس مجددا .

في زنزانة باردة ضيقة موحشة أمضينا ليلتنا الأولى في عُرب ,في اليوم التالي استيقظنا جميعا على صوت الحارس وهو يطرق القضبان بمفاتيحه الكثيرة ,كان صوتا مزعجا بحق .

فتح لنا الباب و اخبرنا ان هناك من دفع مبلغا كبيرا من المال لاخراجنا ,تمتم و هو يضع لنا القيود :إذا كنت تملك المال فليس عليك الخوف من الحرس .

فكرتُ في هذا الشخص فلم يخطر على بالي أي من الرفاق الذين نعرفهم ,هل هو هنا حقا لينقذنا ,أم انه هنا ليوقعنا في مشكلة أكبر .

حين وصلنا إلى مكتب قائد الشرطة قاموا بفك قيودنا و تعرفنا على مُنقذنا ,كان ذلك ..العم ؟

كنت أعلم أنه عاد إلى عُرب لكن لم اعلم أني سأقابله الآن و هنا ,بدا الأمر مثل المصادفة ,أم هو القدر ؟

قال عين كأنه يجيب على أفكاري :يا لها من مزحة .

ضرب قائد الشرطه رأسه و صرخ قائلا :أيها الشقي أظهر القليل من الاحترام للقائد العظيم جليل .

سألته دون تفكير :كيف عرفت بوجودنا هنا ؟

أجاب بلا مبالاة :لا يهم كيف عرفت المهم اني استطعت ايضاح الامور للقائد كي يسمح باطلاق سراحكم .

قال عين و هو يمسك رأسه بكلتا يديه تجنبا لأي هجوم قادم :أشك أنه يدرك أننا بريئون لا اظن أنك اوضحت الامور بالشكل الصحيح .

نظر العم نحوه بغرابة لكنني وثقت ان تلك النظرة لا تبشر بالخير ,لا أعلم ما الذي تغير خلال هذه الشهور القليلة حتى أصبح العم هكذا ,أنا لم اعد استطيع التعرف عليه ,ربما يكون تغير خلال السنوات الماضية لكنني لم ادرك الامر خلال لقائنا القصير في وادي الدماء .

لم ينطق شهاب بكلمة ,انا واثقة انه يعرف العم جيدا ,فهو في الماضي قد اعتاد على التدريب معه في دروس المبارزه التي تلقيناها و نحن صغار .

قال العم :هيا بنا لا بد انكم متعبون بعد ليله أمس ..سوف آخذكم لتستريحوا .

على الرغم من الهالة المريبة التي كانت تحيط به إلا أننا تبعناه دون طرح الكثير من الأسئلة .ظننا أنه سيأخذنا إلى القصر الملكي لكن بدل ذلك اخذنا الى منزل ما .كان كبيرا جدا ومعزولا عن العاصمة ,يقع بعيدا في وسط الصحراء ,محاط بالواحات و أشجار النخيل العالية ,لو رآه شخص من بعيد لظن انه يتوهم وجوده .

دخلنا المنزل لنتفاجأ انه ليس جميلا من الخارج فقط بل هو اجمل بكثير من الداخل .لم اعلم ان للعم هذا الكم الهائل من الثروه اعتقدت انه حارس ملكي بسيط نذر نفسه لحماية الأسرة الحاكمه ,لقد كنت اشعر بالاسف عليه بعدما فقد منصبه حينما اصبح مطلوبا في قُرطبة ,أظن انه استطاع إعاده إنشاء نفسه من جديد بعد كل تلك السنوات التي مضت على خيبته الكبرى.

وجدنا انفسنا نجلس على طاولة كبيرة تضم أشهى و ألذ انواع الطعام ,بقينا ننظر لبعضها البعض بحيرة واضحة فلم نكن نثق في العم لتلك الدرجة ما جعلنا نتردد في وضع ملعقة من هذا الطعام في أفواهنا .

قال عين عندما سئِم الانتظار :أنا سأضحي بنفسي فأنا جائع كثيرا ولا يهمني ما سيحصل ..على الأقل أنا لن أموت جائعا .

دخل العم القاعة و يبدو أنه قد سمِع ترهات عين فقال ضاحكا :هل تشكّون بي حقا ..إن كنتُ سأقتلكم لِما أتكبد عناء إحضاركم إلى منزلي أو حتى انقاذكم من العقاب ؟

قلتُ وقد تملكني الغضب فجأه :هل تمزح معنا .. لقد سألتك سؤالا واضحا منذ البدايه لكنك لم تقدم أي جواب يمحو شكوكي والآن نحن في منزل يشبه قصور الشعوب الأخرى و يحيط الخدم بنا من كل جانب و الأكثر من ذلك تقول انه منزلك ..كيف تطلب مني ان اثق بك الآن .

التزم عين و الشهاب الصمت ثم نظرا الى العم منتظرين ما سيقوله ,لكنه اكتفى بالجلوس في صمت و أخذ يتذوق جميع الاطباق واحدا تلو الآخر ,شرب كأسا من الماء ثم قال :لا تخافي سموك أنا لن أقوم بأذيتك مهما حصل ..حين اراك أشعر اني ارى الاميرة جنة من خلالك ..أنت أمانة منها قبل كل شيء و أنا لن اخون أمانتها ابدا .

نظرتُ إلى عين و شهاب اللذين نظرا إليه بندم ,يبدو انه استطاع كسبهما ببضعة كلمات و بضع صحون من الفاكهة ,اما بالنسبة لي فانا لم اقتنع بعد .

ادركَ ذلك فأضاف :رأيتكم في السوق ذلك اليوم لذا تبعتكم ..وحين قُبض عليكم ذهبت لاقناعهم كي يطلقوا سراحكم ..لكنهم اخبروني ان عليكم غرامة ماليه لتهديد امن الشعب وسلامته فعدت للمنزل بسرعه لجمع المبلغ المطلوب ..لا أنكرُ انني تأخرت قليلا و لكن تطلب جمع المبلغ بعض الوقت .

لم اقل شيئا ردا على توضيحه بل اكتفيت برفع الملعقه و تناول القليل من الحساء بينما وقف كل من شهاب و عين و شكراه على ذلك ,يا لهما من احمقين .

قال بعدما تنهد عميقا :اظن اني اعلم كيف اكسب ثقتكِ مجددا .

نظر نحوهما و طلب ان يتركانا بمفردنا ,حين غادرا و اغلقا الباب ,التفتَ إلي وقال :انتِ غاضبة لأنني لم اخبرك بهويه قاتل الملكة ذلك اليوم أليس كذلك ..بل حتى انني رحلت دون ان أودعك و أمنحك أي لقاء آخر مستقبلا ..أليس كذلك ؟

نظرت إليه بغضب وقلت :انا غاضبة أنني كنت اقلق عليك طول هذه السنين واتساءل ان كنت لا تزال على قيد الحياة لكن تبين أنك لم تتأثر ولو قليلا بموت الملكة بل تبدو احسن من اي وقت عرفتك فيه .

قال وهو يحاول كبت ابتسامته :سامحيني اذا سموك فانا لم اكن على علم بذلك ..اذا كيف تريدين مني تصحيح خطئي فانا اطمع في عفوك .

قلت بعدما نظرت نحو سيف والدتي الموجود على خصري :لا بأس نحن متعادلان الآن ..لا داعي لطلب العفو .

قال مندهشا :ألا تريدين حقا معرفة هويته .. كنت اظن ان الامر مهم بالنسبة لك .

نهضت عن الطاولة قبل ان يُكمل كلامه ,اتجهت نحو الباب مغادرة و قبل ان اوشك على فتحه صرخ قائلا :انه والدك الحاكم .

تجمدت في مكاني لهول الصدمة حتى انني حاولت ربط كل ما عرفته مسبقا كي اجد ثغرة و اكذبه لكن الامر بدا منطقيا اكثر كلما فكرت فيه .

استدرت ونظرت اليه كأنني اطلب ايضاحا اكثر فأضاف :لقد شك في انها تقوم بخيانه القبيلة و تُرسل معلومات سرية الى جاسوسة ما لاعطائها لحاكم عُرب ..قام بإعدامها يا هيرانة .. وأخفى الحقيقة عن الجميع .

لا اصدق ما تسمعه اذناي اظن انني في حلم ما او الاصح انا اعيش في كابوس الآن .

لقد كذب علي طوال هذه السنين ,كيف استمرَ في العيش بهذا الذنب و قد كانت أمي تحبه و تثق فيه , صدّق انها خائنة و لم يصدق انها بريئة ,انا لن اسامحه ابدا .

فتحتُ الباب وخرجت من تلك القاعة .توجهت نحو عين و شهاب و قلت بغضب :لنخرج من هنا حالا لدينا أمر علينا تسويته .

غادرنا المنزل و سرنا عائدين نحو العاصمة ,كنت لا ازال تحت وقع الصدمة فلم يتجرآ على سؤالي عن اي شيء و انا في تلك الحاله ,بل استمرا في مسايرتي دون اعتراض .

دخلنا سوق العاصمة من جديد و بعد التجول قليلا ,كنت قد فكرت بالخطوة التالية فطلبت منهما انتظاري في مكان ما و وعدتهما اني ساشرح كل شيء حين اتاكد بنفسي من الأمر .

اخذت بحر و سألت أحد السكان أن يقودني الى مكان القصر الملكي .

حين وصلت اليه ترجلت عن ظهر بحر وتوجهت الى الحارسين عند البوابه و اخبرتهما اني مرسول من حاكم قُرطبة فسمحا لي بالدخول لمقابلة الحاكم ,اخذوا سيفي و بحر ثم طلب مني احدهما ان اتبعه .

وقبل ان يسمح لي بالدخول الى القاعة اين يوجد الحاكم ,قال لي :ان كنت تنوين اخباره انك الاميرة فمن الافضل ان يكون معك دليل قوي على ذلك .

هذا الكلام اصابني بالخوف ولم اعرف ماذا افعل ,تنفست عميقا ثم دخلت بقدمي اليمنى وانا كلي امل في حديثنا هذا ,سرت بخطوات بطيئة علي احظى بوقت أطول لتنظيم أفكاري المبعثرة قبل التقاء اعيننا .

رفعت عيني عن الارض ونظرت في وجهه مباشرة ,تلك العينان ,ذلك الوجه ,تلك النظره ,انه بالفعل حاكم عرب الذي رسمته في مخيلتي ,رجل شامخ مهيب لا يزيده شعره الرمادي الا وقارا .

اشار بيده لي كي اقترب فاضفت خطوه في مجموعة خطواتي التي كنت اعدها منذ دخولي القاعة .قال بصوت عميق :اخبرني الحراس انك طلبت لقائي ..ان قصري مفتوح للجميع ليوصلوا مشاكلهم ..كيف لي ان اساعدك يا آنستي الصغيرة ؟

لم اعرف كيف افتح الموضوع و اشاركه معه ,هل علي فتح فمي من الاساس و التحدث ,لما لا نبقى هكذا ,إنه جدي الذي لم اره من قبل ابدا ألا يحق لي تأمله قليلا قبل ان يرمي بي خارجا .

اضاف قائلا :عزيزتي لن اعلم ما هي المشكله ان لم تخبريني عنها اولا ..انا اعدك اني سأفعل ما بوسعي لحلها ..لذا لا تخشي من شيء و تكلمي .

استجمعت شجاعتي اخيرا وحاولت فتح الموضوع لكن مرافقة دخلت فجأه و بيدها صينيه من العصير , حين رأتني لم تتمالك نفسها واسقطت ما تحمله ارضا لتتناثر قطع الزجاج على الأرض و تنفجر هي بالبكاء .

نظرتُ و جلالته لبعضنا و علامات الاستفهام و التعجب تعلو وجهينا .ركضتْ المرافقة نحوي و عانقتني بقوة و هي تقول بمنتهى الأسى :سموك ..هذه انت ؟

تساءلت بيني وبين نفسي لربما تكون قد أخطأت بيني وبين شخص آخر ,لكنها مسحت كل شكوكي حين التفتتْ الى الملك وقالت :جلالتك ..انها الاميرة هيرانة ابنة سموها .

اتسعت عيناه حين التقطت اذناه كلامها ,تجلى الحزن في عينيه المحمرتين و سار نحوي ببطء ,حين اقترب مني امسك وجهي بيديه الباردتين كأنه يتفحص اوجه التشابه ,اجل انه يبحث عن ابنته في وجهي ,علّه يجدها تقف امامه .

صرخ مناديا الحراس :حراس ..ارسلوا في طلب الملكة ..أخبروها ان حفيدتها هنا للزيارة .

احسست بمسؤولية كبيرة جدا حين قال حفيدتها ,هل نحن بهذا القرب حقا ؟ ماذا عن كل تلك السنوات , كيف يكون متأكدا جدا الآن ؟

قال و هو يحاول تمالك نفسه كي لا يذرف الدموع التي لا تستأذن صاحبها أبدا إذا أرادت النزول : عزيزتي ..لقد انتظرناك طويلا ..لقد انتظرناك منذ اليوم الذي سمعنا فيه بولادتك ..انتظرنا أنا و جدتك حتى نسينا كم من الوقت انتظرنا .

اقتربت منه و عانقته فجأة ,أثر كلامه في كثيرا ,لم أكن أعلم ان هناك من يهتم لامري في هذا العالم بعد رحيلها ,انا حزينة و سعيدة في نفس الوقت .

سعيدة اني وجدتهما و حزينة أن الأمر تطلب ثمانية عشر سنة من الترقب .

لن أكذب و أقول لم انتظرهما بدوري فقد فعلت ,كل مرة وصل موكب للقصر كان لي أمل و لو صغير أن يكونا داخله .

بعد مرحلة صعبة من الحزن و الاشتياق التي امضيتها معهما محاولة اسعادهما و لو قليلا شرعت اقص عليهما اهم الاحداث التي يجب ان يكونا على علم بها ,لكنني لم استطع المماطلة كثيرا و تجنب فتح جرحهما مجددا ,فقلت :سامحاني ان كان الامر يوجعكما عند ذكره و لكن علي التأكد من أمر ما ..هل يا ترى ..هل تعلمان بالضبط كيف توفيت والدتي ..اقصد ما الذي اخبركما به والدي ؟

قالت جدتي و هي تمسك صدرها بكلتا يديها :لا عليك يا عزيزتي ..الماضي يؤلم حين يغلق لفترة طويلة ثم يفتح ..و لكنني و جدك سعينا لإحياء ذكرى وفاتها كل عام و حافظنا على اشيائها لليوم الذي تأتين فيه للزيارة ..كما حلمنا دائما ..لذا الامر لم يعد يؤلم مثل المرة الاولى ..تطلب ذلك بعض الجهد و وقت ليس بالقليل للتعود .

قال الجد مضيفا :كان يوما عاديا مثل أي يوم يمر في عُرُب ..اشرقت الشمس و غربت في موعدها .. لم تكن هناك أي اشارة على ان مصيبة قد وقعت ..دخل المرسول من قرطبة و اراد قراءة رسالة من الحاكم ..اعتقدت انها احدى رسائله الي يحدثنا بها عن الاوضاع و مدى تحسنها مذ استرجعنا العلاقات بين القبيلتين لذا لم اكن منصتا جيدا ..لكن حين انتهى الحارس من القراءة قال لي تعازي الحارة ..عندها فقط أدركت ان ارسالة مهمة و كان علي الاستماع بتمعن اكبر .

_يؤسفني ذلك حقا ..و هل اخبركما سبب الوفاة ؟

قالت الجدة :قال انها كانت في السوق حين قام عقرب ببث سمه القاتل في جسدها .

إنهما لا يعلمان ايضا ,هذا مخزي ,لقد اخفى عنهما الحقيقة ايضا ,حقيقة موت ابنتهما الوحيدة .

ماذا اقول الآن ,هل يتحمل قلبهما المسكين المتعب ما سأقوله ؟

كانت المرافقة التي تعرفت علي لا تزال هناك تستمع لحديثنا و قد بدت متأثرة جدا ,لذا قلت :هل يمكنني رؤية غرفة والدتي المرحومة ؟

اومآ برأسيهما ايجابا ,نظرتُ الى المرافقة و أضفت :يمكنها ان ترافقني اليها اذا ..سوف اعود بعد ان اراها .

توجهت مع تلك المرافقة الى جناح والدتي ,و بينما نسير في ارجاء القصر سألتها سؤالا حيرني :كيف عرفتِ انني الاميرة الحقيقية ..سمعت ان هناك الكثير من المحتالين الذين استغلوا ضعف الملك و حاولوا خداعه .

توقفت عن السير فجأة و التفتت الي ثم قالت :اين هي قلادة الأميرة هل اخذوها منك ..طلبت ان تبقيها على عنقك مهما حدث .

حين قالت ذلك تذكرتها ,انها مرافقة امي التي قام والدي بنفيها بعيدا ,لم اتوقع ان اقابلها هنا من جديد , كنت صغيرة في آخر مرة تقابلنا لذا كان من الصعب تذركها خاصة بعد مرور كل هذه السنوات ,لكنها استطاعت تمييزي من النظرة الاولى ,فهمت لما كانت امي تحبها كثيرا و وثقت فيها أكثر من أي شخص في القصر .

تقدمتُ نحوها و اجبتها بينما تظهر ابتسامة على وجهي تقول سعيدة للقائك ثانية :لا تقلقي انها في ايد امينة ..لم اسمح لهم باخذ آخر ذكرى لها ..لقد اخذوا الكثير بالفعل .

اجابت قائلة :حافظي عليها سموك ..انها الاجابة لكل تساؤلاتك .

لم افهم ما تقصده بكلامها لكنني احتفظت بذلك لنفسي كي لا استنزفها أكثر .

وصلنا الى الغرفة اين كان كل شيء مرتبا و نظيفا ,عدا كون الغرفة مظلمة و باردة .

ازاحتْ المرافقة الستائر و سمحت لاشعة الشمس بالتسلل لتدفئ هذه الغرفة الباردة .

فتحتْ خزانة الملابس اين كانت بعض الفساتين معلقة في الداخل ,ركضتُ نحوها و اخذت احداها ,كان أملي الوحيد ان تكون هذه الفساتين احتفظت برائحتها المميزة كما احتفظت بجمالها بعد كل هذه السنين .

اجل انها نفس الرائحة ,ان اشياءنا تبقى تابعة لنا حتى بعد وفاتنا ,تحمل معها ذكرياتنا ,لو كان لها فم لقصّت الكثير ,أكثر مما نتذكر حتى .امسكتْ المرافقة بيدِ و سلمتني صندوق خشبيا صغيرا مغلقا بقفل ذهبي و قالت :سموك ..هنا احتفظت الاميرة برسائلها الحقيقية .

سألت مندهشة :رسائلها ؟

حاولتُ فتح الصندوق لكنه كان مغلقا باحكام ,انه ذو صناعة جيدة ,نظرتُ الى المرافقة و سألت :الا تملكين مفتاحه ؟

قالت :كنت املكه لكنني منحتكِ اياه قبل رحيلي .

تساءلت مع نفسي هل تكون منحتني اياه و نسيت مكانه ام ماذا ؟

نظرت إلي و ابتسمت ثم قالت :العقد يا سمو الاميرة ..انه الوحيد القادر على فتح الصندوق .

راجعت كلامها قبل قليل ثم سألت :قلتِ ان رسائلها الحقيقية موجودة هنا ..هل تقصدين انه توجد رسائل مزيفة باسمها ؟

اجابت :اجل ..كُتِبت من طرف حارسها الشخصي ..لقد شكت فيه حينما لم يصلها اي رد من والدها بعد شهور من ارسال الرسائل ..طلبتْ مني مراقبته فاكتشفنا انه يقوم بدفنها في مكان داخل القصر ..لكن الاميرة استمرت في منحه رسائلها كي لا يدرك اننا كشفناه ..لم نفهم لما يقوم بذلك لذا لم تشأ الاميرة ان تظلمه ..لقد وثقت فيه ..ذلك الوغد الحقير .

تمالكت اعصابي بصعوبة لدى سماع ذلك ,لابد انه آلمها كثيرا بعدما خان ثقتها ,لِما كان عليك ان تعاني كثيرا يا أمي ,لما كان عليك أن تعاني ؟

أضافت المرافقة :حين توفيت ذهبت الى المكان اين دفنهم به و اخذتهم خلسة و وضعتهم في هذا الصندوق ..هذا كان اخر أمر منحتني اياه سموها .

ادركت ان ثقتي في ذلك الوغد كانت اكبر غلطة قمت بها في حياتي و علي العودة لتصحيحها قبل فوات الاوان .

اخبرتُ المرافقة ان تعتذر من الملك و الملكة في مكاني ,اخذت الصندوق و عدت إلى البوابة بحثا عن بحر .

حين احضره الحرس وجدت رسالة معلقة حول رقبته ,سألتهم عن مصدرها لكن لا أحد منهم رأى من وضعها ,اخذتها و قرأتها :إنْ كنتِ تريدين استرجاع صديقيْكِ احضري الصندوق معك الى غاية الوادي الكبير قبل غروب الشمس ..اذا تأخرت لا تتوقع انك سترينهما ثانية ..إن احضرت اي شخص معك فستموتين معهما .. توقيع عصابة الباكوار .

ما علاقة هذه العصابة بالصندوق لما يريدونه و كيف علموا بمكاني هل يراقبونني الآن ,علي انقاذ شهاب و عين فلم يتبقى الكثير على غروب الشمس ,يجب وضع خطة الآن .

***

تحت سماء برتقالية حمراء مصفرة وجدت نفسي اركض و بحر بأقصى سرعة ,نركض وسط صخور ضخمة صامتة لا تتحدث معك الا ان تحدثت انت معها ,الصوت الوحيد الذي يخفي وحشة هذا المكان كان صوت ضرب حوافر بحر بالارض ,كان هذا الصوت مؤنسي الوحيد .

خففت من سرعتي حين رأيت من بعيد شخصين يجلسان على ركبتهما معصوبي العينين استطعت تمييزهما على بعد امتار , كيف لا و هما سبب وجودي هنا .

توقفت على مقربة منهما اتفحص بعيني جسديهما الهزيلين ,ابحث عن أي اثر لاثارة غضبي اكثر ,كدمة ربما أو جرح صغير .

هما هنا بسببي لذا لن اغفر لنفسي ابدا ان اصابهما أي مكروه ,انها المسؤولية ,أمر يتعلمه القائد و هو ما يجعله عظيما في عيون الآخرين .

ناديتهما من بعيد :شهاب ..عين ..انتما بخير ..أليس كذلك ؟

رفعا رأسيهما حين سمعا صوتي و اجابا بشكل متفرق :هيرانة هذه انت ..اجل ..نحن بخير ..لا تقلق .

قلت بصوت أعلى :انا هنا لاعيدكما ايها الشقيان من سمح لكما بالذهاب و تركي وحيدة هكذا ..عليكما العودة معي حسنا ؟

اجابا في الوقت عينه :حاضر سموك .

سمعنا فجأة صوت تصفيق يتقدم نحونا ,ظهر شخص من وراء الصخور و اراني وجهه ,فهمت الآن لما تريد العصبة الصندوق ,هذا لان زعيمها يكون ذلك الوغد .

تقدم نحوي و قال ,أحسنت يا سمو الاميرة أنت مطيعة حقا ,و الآن سلميني الصندوق ,أجبته :لما هو مهم لتلك الدرجة ..حتى انك كشفت نفسك لي بسببه ..هل يعتبر دليلا قاطعا لادانتك عن شيء ما ؟

نظر لي مبتسما و قال :لما الامر يهمك لهذه الدرجة يا سمو الاميرة ..كان عليك ان تعودي لقرطبة لنزع والدك المجرم عن العرش بدل الوقوف هنا و محاسبتي على افعال إن كنت قمت بها سوى لأجلك و لأجل قبيلتي .

ضحكتُ مستهزءة ,لقد كان كلامه وقحا حقا ,لا ينكر قيامه بأمور سيئة حتى ,لكنه يبررها على أنها جيدة بشكل ما .

قلت :ما الذي فعلته ..اعتبرني ناكرة للجميل و اخبرني ..ما هي الامور الجيدة التي تتحدث عنها ..ماذا استفادت عُرُب من أفعالك و انت لست سوى مخادع و زعيم لعصابة فاسدة ..لا تكذب على نفسك اكثر ..لا احد استفاد من هذا الوضع غيرك .

رمقني بنظرة لقد تجاوزتي الحدود ,يبدو انني نجحت في اغضابه ,ارجو ان يكشف وجهه الحقيقي اخيرا .

قال و هو يفرك يديه :انا لم افعل الكثير سموك كل ما فعلته كان زرع الشكوك في قلب والدك الغبي .. شعب قرطبة لم يكن يوما صديقا لعُرُب ..لمدة قرون من الزمن تقاتل الشعبان و قتل الكثيرون على اثر الحرب و اعني بالكثير ..الكثير من عائلتي ..عائتي المقاتلة التي على مدى عقود من الزمن خدمت في جيوش القبيلة و حلمت باليوم الذي تستولي فيه عرب على اراضي القرطبيين ..لكنها لم تظن ابدا ان حاكم عرب سيرمي بحلمها و حلم الكثيرة في اعماق البحر و ينهي هذه الحرب مثل المنهزم فيزود العدو بالامدادات ليصبح اقوى اكثر و يمنح الشعب الذي قتل و شرد المئات منا مؤونات و عتاد ليعودوا الى سابق عهدهم في وقت كان علينا استغلاله لصالحنا و الاستلاء عليهم ..حين مات اغلب افراد اسرتي و انتحرت والدتي لدى سماعها خبر اعلان السلام ..حينما كنا لا نزال نعاني الم فقدان ابي و اخوتي .. عهدت على نفسي اني سانتقم من الحاكم و من قرطبة و من كل شخص سبب لنا الالم .

لا اصدق ,لقد ادخلنا خائنا الى قصرنا و سمحنا له بالنوم معنا تحت سقف واحد بينما كان قلبه يضمر كل هذا الحقد اتجاه الاسرة الحاكمة ,صرخت بعدما فشلت في تمالك دموعي :اذا ماذا فعلت ..هل انتقمت بقتل والدتي ..والدتي التي وثقت بك حتى اخر لحظة و امنتك علي اغلى ما تملك ..ماذا كان ذنبها ..لقد قلت انها ماتت لانها كانت محبوبة ..كذبت ..ماتت لانها وثقت بك ..هذا هو السبب .

صرخ هو ايضا فقدْ فقدَ اعصابه فجأة :كان يجب علي التضحية بها ..كانت الوسيلة الوحيدة لإعادة شن الحرب مجددا .. بعدما قتلها الحاكم بتهمة الخيانة كان يجب ان تتحرك عرب و تغزو قرطبة انتقاما لمقتلها ..لكن هذا لم يحصل فالملك كان ماكرا و اخفى سبب الوفاة و لم يفصح عن أي شيء حتى لابنتها الوحيدة ..لقد فكر في مصلحة قرطبة قبل كل شيء .

أصبت بصدمة لدى سماع كل هذا ,الحقيقة التي بحثت عنها لسنوات طويلة ,إنها تُكشف امامي اخيرا .

لم اتخيل يوما ان تكون بهذه الفظاعة ,ماذا فعلت في حياتي يا الهي حتى تعاقبني بهذه الطريقة .

نظر الي و انفجر ضاحكا ثم قال :هل أنت متفاجئة سمو الاميرة ..هل اخبرك امرا اكثر غرابة ..انا لم اكن الوحيد المتواطئ في القصر ..زوجة ابيك الاولى معنية ايضا ..او الاصح حاكم شيبة ..فقد كانت تتلقى الاوامر منه .

اعتقد انه كان يتغذى على نظراتي المندهشة فقد بدى سعيد جدا و هو يصفعني بالحقائق و الاسرار السوداء التي احاطت بي و انا لا علم لي بشيء ,اضاف مستهزءا :لقد كانت الزوجة الاولى تسلمه رسائلي المزيفة باسم الأميرة لمدة اشهر ..عاش والدك أياما و هو يظن ان زوجته ترسل معلومات الى جاسوسة قرطبية لكنه استغرق طويلا حتى لفظ بالحكم ..اظن ان لقاءه مع تلك المرأة كان كافيا ليؤكد شكوكه .

امراة ؟ مستحيل هل يعني تلك المراة التي التقيناها ,اذن كان هو من قام بخداعها لتلقي تلك العبارات على مسامع والدي المتخبط .

سألت محاولة ايجاد مكان آخر قطعة من الاحجية :اذا فقد ساعدت حاكم شيبة على خطف تلك الفتاة مقابل ان يساعدك على ايصال تلك الرسائل المزيفة الى والدي ..أليس كذلك ؟

قال متفاجئا : كيف علمت بامر الفتاة ..يبدو انني استهنت بك يا سمو الاميرة فقد عملت بجهد كبير للوصول الي ..لكن كما يقال ثمن المعرفة باهظ و قد تطُّرين لدفعه بحياتك .

تراجعت للوراء قليلا و قلت :هل تنوي قتلي الآن إذا ؟

اجاب و هو يخرج سكينا من جيبه :لا شيء شخصي سموك لكنني لن اسمح لك ان تنشري الشائعات عن قائد شجاع مثلي يُعد بطلا لدى شعبه .

قلت مستهزئة :اتقصد البطل المزيف الذي قتل اميرتهم من اجل مصلحته الخاصة ؟

_يمكنك ان تسميها ما شئت ..لكنني نظرت للامر كتضحية في سبيل الوطن .

_الوطن ..ما الذي تعرفه عن الوطن ..ان كانت أمي قبِلت بهذا الزواج و هذا الصلح فقط لاجل الجيل القادم ..كي لا يعاني مثلما عانيت انت و عائلتك ..فكرتْ في انهاء الامر و العيش في سلام الى الابد حفاظا على موطنها و شعبها لكنك لن تفهمَ هذا ابدا ..فقد اعمى حب الانتقام قلبك .

_حسنا انا لا اتذكر ذلك ..انا شخص انانى ..لكن على الاقل انا حي الآن .

صرخ مناديا جنوده :هيا اخرجوا .

صرخ شهاب و عين فزِعين :هيرانة .. اهربي ..انجي بحياتك هيا .

لكنني استمررت في الوقوف دون حراك بثقة تامة فالحقيقة أن لا أحد ظهر .

نظر حوله بارتباك و صرخ مجددا :ما الذي تنتظرونه قلت اخرجوا و امسكوا بها .

لكن لا أحد استجاب لندائه المزعج ,نظر إلي بارتباك و قال :ماذا فعلتِ بجنودي ..اين هم ؟

ابتسمت ابتسامة الانتصار و قلت :سيكونون الان اما مقيدين أو يلفظون انفاسهم الاخيرة ...و الأن اظن انه دوري .

صرخت :ليخرج الجميع .

بدأ جنود الحرس من جيش الحاكم يتقدمون من وراء الصخور حتى أحاطوا المكان بالكامل ,لا مكان له ليهرب اليه هذا الخائن .

ذُعر الوغد و تراجع للوراء وسط تقدم الحرس المستمر ,تقدم الحاكم ليقف بجانبي و قال :اعتقدتُ ان لا شيء سيكون موجعا أكثر من موت ابنتي الوحيدة ..لكني اكتشفت ان معرفة اني السبب موجع أكثر من ذلك بكثير ..آمل ان يأتي يوم تسامِحُيني فيه ..و انت يا ابنتي سامحيني أيضا .

نظرت اليه بحزن و أومأت برأسي فالأمر لم يعد مهما ,كلنا مذنبون لذا لا داعي للاعتذار حتى ,فقد حدث ما حدث و لن يعود الماضي ,لكننا استطعنا إصلاح الحاضر ,و بالنسبة لي افضل اعتذار اقدمه لها هو تبرئة اسمها لدى والدي و عقاب الخونة الحقيقيين .

بينما كنت افكرْ ركض الوغد نحو شهاب و عين و و ضع خنجره اسفل عنق شهاب ,صرخ :سمو الاميرة ..انْ كنتِ متشوقة جدا لرؤيتي ميتا فانا لن ارحل وحيدا .

ماذا قال هذا المعتوه ؟

ركضت نحوه و صرخت :توقف ..ان سالت قطرة واحدة من دمه لن اجعلك تموت فحسب بل سأجعلك تتمنى الموت ..لذا اخفض سلاحك حالا و الا .

_و الا ماذا سموك ..اعتقد انك نسيتي أنني من يُهدد هنا .

سأل المعتوه شهاب :هل من كلمة أخيرة ؟

أجابه موجها كلامه نحوي :هيرا أنا .. انا آسف لاني لم اعتني بك جيدا .

صرختُ و قد نزلتْ دموعي دون اذني ثانية :لماذا تعتذر ايها الغبي ..فكر في نفسك الآن .

_لقد حاولت ..لكنني كلما فكرت في نفسي ..يتنهي بي الأمر في التفكير بك ..انت تعلمين أليس كذلك .. أنني أحبك .

كلامه هذا جعل الوغد مشتتا لذا ركضت نحوه فجأة ,قفزت محاولة انتزاع الخنجر من يده لكن انتهى بي الامر مصابة بجرح بليغ في أحشائي ,استطاع الحراس الانقضاض عليه و امساكه بينما التف حولي الجميع ممسكين بقطعة من القماش ,محاولين ايقاف النزيف كي لا افقد الكثير من الدماء ,حملني شهاب و ركض بي الى بحر و انطلق بي متوجها نحو اقرب حكيم في الجوار .

كان تنفسي ضعيفا و حاولت منع نفسي من اغماض عيني و كل ما كنت اسمعه حينها كان صوت والدتي حين كانت تناديني في طفولتي ,تذكرت حين وبختني بعدما جرحت نفسي ,كيف تلومني و أنا لم أفعل شيئا سوى اللعب في الحديقة مع اخوتي المشاغبين .

اخبرتني ان علي حماية نفسي جيدا من الان فصاعدا ,قالت انها لن تكون بجانبي دائما حين اتأذى ,لذا علي تعلم الاعتماد على نفسي .

هل يا ترى كانت تدري انها لن تكون بجانبي فعلا ؟ ألهذا اخبرتني بذلك ,انا لم اعلم انني سأموت بهذه الطريقة ,اريد المزيد من الوقت حتى اجهز نفسي و المحيطين بي للامر ,لازال أمامي الكثير لأحققه , لا أريد الموت الآن .

***

حين استيقظت وجدت نفسي مستلقية في مكان غريب ,نظرت حولي فوجدت كلا من عين و شهاب متكئين على بعضهما البعض و يغطان في نوم عميق .

حاولت النهوض لكن آلامي أعاقتني ,يبدو انني لم اشفى بعد ,لكم من الوقت بقيت نائمة يا ترى ,حسنا منظرهما نائمين يبدو مسالما جدا و يبعث في نفسي الراحة ,سعيدة ان لا احد منهما قد اصيب ,انا حقا سعيدة .

كان الامر اشبه بالكابوس ,على مدى سنوات ,كنت اراه يوميا ,انا الأميرة المسكينة التي فقدت امها , نظر اليها الجميع بشفقة ,لكن شفقتهم تلك منحتني القوة بشكل ما ,منحتني الرغبة في اثبات نفسي اكثر , انا لست مسكينة ,انا لست ناقصة ,لست متخلفة عن الآخرين بل اسبقهم بخطوات .

لا يزال أمامي طريق طويل لإثبات نفسي لم افعل أي شيء إلى الآن ,لشعب قرطبة الذي وثق بي ,و والدتي ,إن كنت حزينة فسأجعل اعدائي سعداء ,اذا فكرت بهذه الطريقة ,فانا لن أذرف الدموع مجددا ابدا ,بل إن تطلب الامر سأبتسم في كل لحظة ,حتى في لحظات الغضب .

جاء الحاكم لزيارتي ,نظر إلي ثم الي الاميرتين النائمتين و قال بصوت عالٍ كافٍ لايقاظهما من سنوات نومهما الطويلة :سمو الأميرة لقد استيقظت .

استيقظا من نومهما مذعورين كأن زلزالا ضرب للتو و مسحا لعابهما ثم نظرا الي و انطلقا في موجة من العويل .

قال عين :سموك كيف تشعرين هل يؤلمك الجرح ؟

نظر شهاب إلى الحاكم و سأل :هل غادر الحكيم ..ماذا قال ؟

أجابه :قال أن عليها الراحة كي تُشفى في أسرع وقت .

بدى أمر الراحة سهلا و لكنني حقا لا استطيع .

قلت معترضة :لا يمكن ..مازال علي الذهاب الى قرطبة و التأكد ان الحرب انتهت .

قال شهاب :يمكننا فعل ذلك من دونك ألا تثقين بنا ؟

أجبت بغضب :إنها ليست مسألة ثقة ؟

صرخ بغضب أكبر :مسألة ماذا إذا ؟

لا أعرف ما اجيبه ,هل علي حقا شرح نفسي أكثر من ذلك ,تدخل الحاكم قائلا :لقد بحثت في أمر الفتاة مثلما طلبتِ .

تساءل عين قائلا :ماذا ؟

قال الحاكم :قبل مجيئها لانقاذكما اخبرتنا هيرانة بكل شيء ..فرتبنا خطة للايقاع بذلك الخائن .

_كنت أعلم أنكِ لن تتركينا في جميع الاحوال .

قال شهاب معلقا على ثقته :حقا ..ظننتُ انكَ أخبرتني أننا سنموت إن تُرك الأمر لها ..حتى انه ساورتك شكوك حين اخبرونا ان الشمس ستغرب و هي ليست هنا بعد .

_كفى هراء ..انا كنت احاول تضليلهم ليس اكثر كي يتركونا اذا علموا انه لا فائدة من اسرنا .

قلتُ مؤكدة :اجل انا اصدقكما ..هلا تسمحان للحاكم بإكمال كلامه .

تابع الحاكم :اتضح أن الفتاة و عائلتها انتقلوا للعيش في عُرب و لم تواجهم أية مشاكل ..حتى أن الفتاة قد تزوجت العام الماضي و أنجبت أول أطفالها .

بدت هذه النهاية السعيدة حزينة بالنسبة لي فقد عانى طهران بسببها لسنوات في حين عاشت هي حياة هادئة و سعيدة .

قال الحاكم بعدما مد يده و راء ستار يفصل سريري عن السرير المقابل :تعالي و ألقي التحية .

تقدمت فتاة من وراء الستار جميلة الهيئة و خائفة بعض الشيء ,انحنتْ مُظهرة احترامها ثم قالت : مرحبا سموك ..سررت بلقائك ..لقد سمعت الكثير عنك .

أجبتها :سمعت الكثير عنك ايضا ..اظن انك تعلمين لما أحضرناك الى هنا أليس كذلك ؟

_اجل سموك .

_اذا هل توافقين على مساعدتنا لاظهار الحقيقة ..نحن نحتاج شهادتك للقصة .

نظرتْ الى الحاكم ثم الينا و قالت :بالطبع سأفعل ..أنا لم أكن راضية على المشاركة في هذا الخداع منذ البداية بل أجبِرت عليه ..ليس أنا فقط بل جميع افراد عائلتي إطروا للرحيل و ترك شيبة ..على الرغم من أني ولدت بها لكنني أكن الكثير من الوفاء الى عُرب فقد كانت مثل الملاذ بالنسبة لنا ..عشت سنوات

من تأنيب الضمير و اردت حقا اعادة الامور الى صوبها الصحيح ..لكن كانت تنقصني الشجاعة التي تمتلكينها سموك ..لهذا انا احترمك من بين جميع الناس ..آمل ان تصبحي ملكة عظيمة مستقبلا .

كلماتها هذه استطاعت ان تهوّن علي ,آمل ان تستطيع مواساة طهران ايضا فهو المتضرر الاساسي من الامر .

***

بعد شجار مطول مع شهاب استطعت اقناعه بالانطلاق الى قرطبة بعد يومين من الراحة فقط ,احضروا لي عربة فاضطررت للجلوس بها مثل السجينة مجددا .

رحلتنا لم تدم طويلا او انني لم اشعر بطول الطريق لكوني امضيت وقتي نائمة حتى وصلنا الى قرطبة أحيرا ,لكن كانت تنتظرنا مفاجأة اخرى عند الحدود فقد اصطفت كتيبة من الجنود على البوابة الذي اعتدنا عبورها .

كانت توجد عشرون بوابة ممتدة حول اسوار العاصمة ,و لكن البوابة الواحدة و العشرون كانت مغلقة على الدوام و لا أحد لحراستها ,لذا كان التسلل عبرها يعد أسهل من العراك مع حراس الحدود ,يبدو أن سري الصغير لم يعد سري وحدي ,لقد كشِف .

أوقفَنا الجيش بالفعل ,نزلتُ عن العربة و حاولت تقييم الوضع ,رأيت حارسا يوجه سيفه نحو عين و يطالبه بالتراجع .

ركضت مسرعة رغم أن الألم لم يكن يسمح لي بالسير حتى ,صرخت عاليا :توقف ..توقف أنا آمرك .

نظر الي الحارس و انحنى قائلا :اعتذر سموك لكنها أوامر الأمير .

الامير ؟ هل هو طهران ثانية ,ماذا تفعل كتيبة له عند البوابة ؟

صرخت في وجهه :ابتعد من امامي و إلا ..ألا يُسمح لي بزيارة موطني الآن ..هل أنا منفية ؟

اعتذر الحارس و لم يسمح لنا بالمرور ,فجأة سمعنا صوت أحصنة تقترب ,حين نظرتُ جيدا تمكنت من معرفة صاحبيها .

نظر لي والدي من فوق الحصان بوجهه البارد المعتاد ثم وجه كلامه نحو الحارس :لا تسمح لها بالمرور مهما حصل ..مفهوم ؟

يا له من والد ,يبدو انه لن يشفق علي البتة , نظرتُ إلى حاكم شيبة الذي بدا سعيدا .بجواره كان طهران يركب خيله و يراقب الوضع من بعيد ,بعد دقائق نزل عن خيله و اقترب مني ثم قال :ألن توقفي هذه الحيل ..ألن تستسلمي بعد ..لقد سئِمتُ كثيرا ..لست صبورا كما تعلمين .

صرخت موجهة كلامي إلى أبي ,متجاهلة بذلك طهران :لقد أخطأتَ جلالتك ..أخطأتَ خطأ جسيما .

صرخ والدي غاضبا :كيف تجرئين ..أتتمنين الموت ؟

نظر نحو شهاب و قال :شهاب ..خُذها من هنا قبل ان افقد اعصابي أكثر ..نحن متجهون نحو القتال و لا اريد الانشغال بها الآن ..لكن ليس عليكما القلق ..حالما اعود ساحرص على ألا تفلتا من العقاب بسهولة .

كيف يمكنه قول كلمة عقاب بعدما فعله ,هل شعر بالأسف نحوي حتى .

كنت انتظر ڤرين فأنا لن استطيع قول اي شيء دون دليل قاطع .

فجأة سمعنا صوت تحليق اجنحة ضخمة ,هذا هو المطلوب ,هذا ما كنت انتظره .

نزل تيرو و فتح جناحيه مثيرا دهشة و خوف جميع الحاضرين كأنه شخص باسط ذراعيه ليمنع أي أحد من المرور ,نزلت ڤرين و اقتربت مني ,منحتني القلادة قائلة :لقد سلمتهم الرسالة لكنهم مزقوها حتى قبل قِراءتها .

_هذا ما اعتقدته إن الحرب لم تكن ظرفا اجباريا بل كانت خيارا أرادوه .

وسط ترقب الجميع أحضرت صندوق الرسائل و فتحته بواسطة القلادة ,ثم قلت لوالدي :انت لا تزال تذكر هذه القلادة أليس كذلك ..فهي لم تكن تنزعها ابدا .

سأل مستغربا :ما هو ذلك الصندوق ؟

_إنه صندوق احتفظتْ فيه والدتي برسائلها التي لم تصل لوالدها على مدى أشهر .

_ماذا ..هذا لا يمكن .

_بلى لقد قُطعت الاتصالات بينهما قبل وفاتها ..يمكنك التأكد من خط والدتي و ختمها في الرسائل .

_ماذا تقصدين ؟

_اقصد ان الرسائل التي سلّمتها لك الزوجة الأولى لم تكن سوى وسيلة لجعلك تشك في والدتي ..امي لم تكن خائنة ..هل تذكرُ حارسها الشخصي الذي هرب يوم وفاتها ..لقد اعترف بكل شيء ..انا اعلم انك قتلتها ..لكن ما لا تعلمه أنت ..انها كانت مظلومة .

نزل عن حصانه و سار نحوي بخطوات سريعة يملؤها الغضب ,أخذ الصندوق من يدي قائلا :هذا غير ممكن لقد اعترفت إحدى الجواسيس بتورطها .

ضحكت مستهزئة من حجته :تلك المرأة ..هي لم تعلم أي شيء عما كنت تقوله ..ما قالته كان تكرارا لما اخبرها به ذلك الحارس ..انا التقيت بها شخصيا و يمكنني أخذك اليها في اي وقت ان لم تصدقني .

_مستحيل ..لما قد تفعل سميحة ذلك ..أقصد لن تجرؤ أساسا .

_ستفعل ..فقد اخذت اوامر من حاكم شيبة .

التفت و نظر لحاكم شيبة الذي بدا متوترا جدا .

كاد ان يغمى على أبي من الصدمة لكنني لم اتوقف و اضفت :اقرأ رسائلها و حاول ايجاد دليل على الخيانة بها ..لكن ثق بكلامي حين اقول انك لن تجد شيئا ..فوالدتي خدمت قُرطبة بتفان و لا يمكن ان تفعل امرا كهذا ابدا ..لكن ثقتك العمياء في كلام الآخرين جعلتك لا ترى الحقيقة ..إدعو الله ان يسامحك يا أبي .

فتح أول رسالة و سقط على ركبتيه منهالا بالبكاء ,اعتقد ان الحقيقة ثقيلة اكثر من ثقل الجبال ,آمل ان يستطيع تحملها لبقية حياته .

قلتُ بصوت عالي منادية على الفتاة لتظهر :ليلى ..هلا خرجت من العربة .

حينها اتسعت عينا طهران و التفت ليتأكد ان سمعه لا يزال سليما .

نظر جيدا فاعتقدت انه استطاع تمييزها ,قلتْ :انها صديقة طفولتك يا طهران ..الفتاة التي خُطفت .. أليس كذلك يا حاكم شيبة ؟

تراجع طهران خطوتين الى الوراء ثم قال :لا ..انت تكذبين ..انها تشبهها كثيرا و لكن ..كيف يعقل أن تكون هنا ؟

_الحقيقة ..هي لم تخطف بل تم تهديدها لتغير مكان عيشها ..انها تعيش مع اسرتها في عُرُب الآن .. صحيح ؟

أجابتْ :اجل ..لقد أجبِرت على الرحيل ..ما رأيته في ذلك اليوم كان تمثيلية قد ادتها العصابة لاقناعك .

اضفتْ :انها فعلة والدك ..لقد ساعد الحارس الشخصي في خطته مقابل خداعك طوال هذه السنين .

صرخ طهران عاليا ثم سحب سيفه بغضب و سار نحو والده ,سحبه ليسقطه عن الحصان و أخذ يجره ليرميه امامنا ,ثم وضع السيف أمام عينيه و صرخ :أجبني هل هذا صحيح ..لا تجرؤ على الكذب .. أريد الحقيقة الآن .

اجاب حاكم شيبة و قد بدى صوته مرتعشا من الخوف :اجل ..اجل ..فعلت .

تقدم عين نحو شقيقه وقال :لا عليك يا اخي الأمر لا يستحق ..لقد حاولتُ طول هذه السنوات نيل اعترافه ..لقد جعلتُ سماع الثناء منه واحدا من اولوياتي لكنني أخطأت الحكم ..فقد تخلى عني بمنتهى السهولة بينما سعيت أنا جاهدا لأثبت نفسي اليه ..أعلم انك ستستطيع ان تغفر له مثلما فعلت ..و لكن .. هل ستستطيع ان تغفر لنفسك السنوات الماضية التي كرستها لنيل رضاه .

رمى طهران السيف بعيدا و جلس على ركبتيه بائسا تماما ,انبطح يبكي دماء الأناس الذين قتلهم غدرا , يُمسِكُ الرمال و يرميها بعيدا ,لا أعلم لما رمي الأشياء يهدئ الاعصاب ,لكن آمل ان يفعل مع طهران و يُساعده على تخطي الأمر .

***

بعد جلسة كشف الحقيقة هذه ,ألغيت حرب كانت على وشك ان تندلع ,اكتشفتُ لاحقا ان حاكم شيبة هدد والدي بكشف حقيقة موت والدتي لي إن هو لم يُساعده في معركته ضد البابالون , فما كان على والدي الا ان يرضخ للوضع .

ألغي زواجي من طهران و أصبحتُ حرة من جديد ,أما بالنسبة للزوجة الأولى فهي لم تعد زوجة بعد الآن و نفيت إلى احدى قرى القبيلة لتعيش فيها بقية حياتها ,فبعد فعلتها تلك توسل أخواي كثيرا كي يرفق والدي بها و ظن أن حرمانها من ولديها يعد عقوبة قاسية كفاية .سارت الامور بخير في القبيلة و بفضلي بنينا علاقات جيدة مع البابالون و اميرة إنديان آباد .

من أهم القرارات التي نُفذت بشأن والدتي ,كان إلغاء قانون منع ذِكرها في القصر ,لا بل و قد شُيِّد صرح عظيم لها في قُرطبة و اصبح واحدا من معالمنا السياحية ,كما طُبعت كتب جديدة للتاريخ تؤرخ اعمالها و انجازاتها .

بفضل ڤرين استطاع جداي زيارتي في قرطبة مرارا ,فقد عيّناها سفينة الصحراء خاصتنا و منحناها الكثير من المال لقاء خدماتها ,فهي تظل صائدة جوائز نهِمة .

ظل والدي حبيس جناحه لفترة طويلة لكن بمساعدتي استطاع تجاوز الأمر .

كل الامور سارت على ما يرام بالنسبة لعين فقد تنازل طهران عن لقب ولي العهد فتسلمه عين مكانه , بينما وعد والده انه سيمنح النساء في شيبة المزيد من الحرية و السلطة ,فتغيرت الكثير من الامور هناك و ازدهرت كذلك .

بفضل ما قمنا به لحماية قرطبة أصبحتُ بطلة قومية يتغنى شعبها ببطولاتها ,كان ذلك حلم والدتي , اعتقد انني حققته ,اما الآن فحان موعد تحقيقي حُلمي الخاص .

سألني شهاب :ما الذي تنوين فعله الآن يا هيرانة ؟

أجبت :أريد ان اساعد اكبر قدر من الناس ..ليس فقط قرطبة بل العالم أجمع .

و من هنا بدأت رحلتي لدى الشعوب الأخرى فمازال أمامي الكثير لاكتشافه .

السماء و التراب سيكونان رفيقي الوحيدين و بالطبع عزيزي بحر ايضا .

سأجوب كل العالم و أصبح محرابة عظيمة تعرف بشأنها كل الشعوب .

سيكون كل شيء جميلا ,ربما ليس اليوم ,لكن يوما ما .